جَبَلُ الزُّمرُدِ

رواية

منصورة عز الدين





الكتاب: **جبل الزمرد**
المؤلف: **منصورة عز الدين**
عدد الصفحات: 232 صفحة

رقم الإيداع: 2013/9985

الترقيم الدولي: 978-9938-886-27-6

الطبعة الأولى: 2014

الناشر:

التنوير **للطباعة والنشر والتوزيع**

مصر: القاهرة – وسط البلد – 8 شارع قصر النيل – الدور الأول – شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني – هاتف وفاكس: 009611843340

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

رقم الناشر: 14/464-36

منصورة عز الدين

جبل الزمرّد

أو

الحكاية الناقصة من كتاب الليالي



mohamed khatab

«حكاية لو كُتِبَت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن يعتَبِر»!
حســنًا! فلتكن الكتابة حفْرًا علــى آماق الأبصار، فلتكن طريقًا لعماء يعمِّق الرؤية!

«واخْتُلِفَ في معنى «قاف» ما هو؟ فقال ابن زيد وعِكرمة والضَّحَّاك: هو جَبَل محِيط بالأَرض من زُمُرُّدَة خضراء اخْضرَّتْ السماء منه، وعليه طرفا السماء، والسماء عليه مقْبِيَّة، وما أصابَ الناس من زُمُرُّد كان ممَّا تسَاقط من ذلكَ الجبل».

«تفسير القرطبي»

«ثم إن بلوقيا سأل الملك وقال له هل خلق الله جبالًا خلف جبل قاف؟ فقال الملك: نعم، خلف جبل قاف جبل قدره مسيرة خمسمائة عام، وهو من الثلج والبرَد، وهو الذي ردَّ حرّ جهنم عن الدنيا، ولولا ذلك الجبل لاحترقت الدنيا من حرِّ نار جهنم. وخلف جبل قاف أربعون أرضًا، كل أرض منها قدر الدنيا أربعين مرة، منها ما هو من الذهب، ومنها ما هو من الفضة، ومنها ما هو من الياقوت، ولكل أرض من تلك الأراضي لون».

«ألف ليلة وليلة.. حكاية حاسب كريم الدين»

غبار الطريق

لستُ لي.. أنا منذورة لشيء غامض، وما عليَّ
سوى المضي قُدمًا والتوحد بمصيري.

اسمي بستان!

من يعرفونني جيدًا، وهم قِلَّة، يسمونني «كاهنة الأبيض والأسود»!

الآخـرون يرونني غريبـة الأطوار. لو قُدِّر لكاتـب أن يكتبني لوصفني بالمرأة الحوراء، أو ذات الشعر الفاحم والملابس السوداء، إلى آخر هذه الأوصاف المحدودة بالظاهر، غير القادرة على التقاط ما يتأجج بداخلي.

لن يتمكن أحد من اِكْتِنَاه ما أخبئه ولا ما أقدر عليه، كما لن يكون على علم بخفايا الوقائع التي جرت قبل قرون، ولها نذرت حياتي، لذا عليّ أن أكون الكاتبة، أو بالأحرى الحكَّاءة المنوط بها ملء ثغرات الحكاية وضمّ أجزائها معًا، حكاية لستُ بطلتها، لكنها لن تكون من دوني.

في العام الحادي عشـر من الألفية الثالثة، وفي شـقتي المطلة على نيل الزمالـك، أنكفئ علـى التدوين بلا كلـل. عالم قديم ينهـار بالخارج وأنا مشـدودة إلـى كلمات مراوغـة، لا تكف عن التسـرب من بيـن أصابعي. كسـحائب صيف عابرة، تمـر بذهني مشـاهد متتابعة من أزمـان مختلفة، أقتنص بعضها، ويتملَّص مني بعضها الآخر.

أرانـي طفلـة فوق جبال الـ»ديلم» في سـتينات القرن العشـرين، أعدو خلـف أبـي في تسـكّعه الصباحي وهو ينشـد أبياتـًا للرومـي أو العطّار أو

حافظ. يسبقني بأمتار ثم ينتبه إلى تأخّري عنه، فيقف منتظرًا بصبر، وبخار الماء يتصاعد من فمه. ألحق به، فيُجلسني فوق صخرة مجاورة لأرتاح قليلًا. ويحكي لي، كما كل مرّة، شذرات من خبر موطننا الأصلي. وأنا، رغم البرودة الشديدة يدبُّ الدفء في جسدي، وأكمل له ما يغفله من تفاصيل، فيعانقني سعيدًا.

«نحن غرباء أبديون»! كان يقول كل مرة يُخرِج فيها تلك الرقوق والجلود العتيقة من خزانته السرية ويروح ينبِّه عليّ ألاّ أبوح بسرها لأحد، ساهيًا عن حقيقة أني أكاد لا أحادث أحدًا غيره. أعده بهذا، فيبدأ في تعليمي كيفية فك شِفرة ما بها. ينقل لي ما تعلّمه من أبيه. يهمس لي بأن السلسلة يجب أن تتوقف عندي، أسأله عمّا يعنيه، فيرد بأن ما لديه من علامات، ينبئه بأني الكاهنة المنتظَرة، ولا يزيد في الشرح.

أتذكره الآن، بينما أجلس في بيتي القاهري، فتحضرني روائح جبل «آلموت» ونباتاته، أكاد أبصر السفوح المكسوَّة بالخضرة والقمم المكللة بالثلوج والسهل المنبسط محتضنًا القرى المحيطة بجبال الديلم.

ذات يوم بعيد أشار أبي إلى ما أطلق عليه «أطلال قلعة آلموت»، وغاصت ملامحه كلها في أسى لم أدرك أسبابه. كان يقف منتصبًا مبالغًا في شد جسده، وهو يتأمل البقعة التي يصوِّب نحوها سبابته. لم أنظر إليها، بل تعلقت عيناي بوجهه الأليف بلحيته الخفيفة وشعره الرمادي.

انحدرنا نحو الأسفل، وبين برهة وأخرى كان يلتفت إلى الوراء ممعنًا النظر في أطلال لم أكن – إلى ذلك الوقت – أعرف عنها شيئًا. بعدها بيومين أجلسني بجانبه تحت شجرة كستناء، وحكى لي عن حسن الصبَّاح وطائفة الحشاشين. قال إن لا شيء يبقى سوى الحكايات، تنتهي الذاكرة بموت صاحبها، وتظل الحكايات كذاكرة بديلة متوارثة.

درَّبنـي مبكـرًا على السـرد والكتابة، مسـربًا لـي تدريجًـا لمحات مما ينتظرني من مهام، أسـمعني مئات الحواديت المسـتلَّة من دهاليز التاريخ الغابر، وأنشـد لـي آلاف أبيات الشـعر. كنت ألتهم، بتشـجيع منه، ما يقع تحت يدي من كتب.

اصطحبنـي تقريبًا إلى كل مكان ذهب إليـه، معه زرت قبر عمر الخيام المحـروس بالـورود وقلوب المحبيـن، وخطوت في أروقـة وأزقة مدينة مشـهد المقدسـة، وتجولت بين نيسـابور وشـيراز وأصفهان. «هذه مدن يتنفس فيها التاريخ ويعيش، ومع هذا يجب ألاّ تنسـينا وطننا المشـتهى»! يقـول، ثم يغمض عينيه ويغرق داخل ذاته، فيخطر لي أن الوطن المحلوم به ليس سوى فكرة.

«محال أن أنال صحبتك، لهذا أصاحب غبار طريقك»! اعتاد أن يكرر قـول فريد الدين العطّار، فأعرف أنها رسـالة موجّهة إلّي، أحدس أني مَن سـوف يصاحـب غبار الطريـق، وأن حياتي برمّتها سـتضيع علـى الطريق المسـتحيل إلـى وطن يسـكن الكلمـات. هشـة، متعبة، تنهشـني الأفكار والشكوك والهواجس، كان مقدرًا لي أن أخطو مخفورة بالغبار.

في الثامنة عشـر من عمري، غادرتُ شـبه مجبرة، بسـبب تصميمه أن مكانـي لـم يعد حيـث يقيم، وأن عليّ بـدء رحلتي وحدي، لـم أحمل في حقيبة السـفر سوى ملابس قليلة كي تتسـع لأكبر قدر مما حمَّلني إياه من مخطوطـات وكتب وأوراق. في ذاكرتي كانـت تضطرم مئات التفاصيل، وفـي مفكـرة صغيرة، قبعت أسـماء مـدن أعبر بعضهـا سـريعًا كما يفعل عصفـور قلِق، وأنظـر لبعضها الآخر من علٍ نظرة طائـر، وأقيم في القليل منها لسـنوات تطـول أو تقصر. مدن تبدأ من نيويـورك حيث كان يفترض بـي إكمال دراسـتي، وتنتهي في القاهرة التي فهـم من علامات ونبوءات،

مبثوثة في ثنايا ما ورثه عن أجداده، أنها محطتي الأخيرة التي سأجد فيها ما أبحث عنه، القاهرة حيث أجلس الآن - بعد مرور اثنين وثلاثين عامًا على توديعي له - أنسج الكلمات لأحيك ثوب الحكاية الناقصة من كتاب «الليالي».

«أي حكاية تلك؟ نعرف حكايات كثيرة أُضيفت إلى «ألف ليلة وليلة»، لكننا لم نسمع بحكاية معينة نقصت منه، ثم إنه ليس كتابًا واحدًا، إنما نص لا نهائي لا يني يتغير عبر الإضافة والحذف!».

هذا ما سوف يجول بذهن من يقرأ ما أدوِّنه، لكن اسمحوا لي أولًا أن أضم أشلاء حكايتي جنبًا إلى جنب! ولتسامحوني إذا لم تتضح لكم معالمها سريعًا، ولتعلموا أن من أصعب الأمور القفز بين الأزمنة والتواريخ ومصالحة ماضٍ سحيق مع حاضر مُعاش. الصبر صيّاد، فليكن الصبر رفيقكم، كما كان ولا يزال رفيقي الوحيد على دربي الوعِر.

كان الصبر معي، قبل سنوات قليلة، في طريقي لذلك البيت الريفي البعيد عن العمران. في تلك اللحظة كنت مغمورة بخجل طارئ من نفسي لانسياقي وراء ما سيراه الآخرون سرابًا.

لكن كلما زارني الشك تراءت لي علامة تعيد لعالمي اتساقه، وتضفي على رحلتي معناها. علامتي في تلك المرة أن البيت، القابع في بقعة تبعد كيلومترات عن القاهرة، مطابق للوصف القديم المدوَّن في أوراقي!

بناء طيني محاط بسياج من أعواد القش، تظلِّله شجرة توت ضخمة، وتحيط به أشجار كافور. سرقتني الرسوم المطبوعة على بابه الخشبي العتيق: باخرة حُجَّاج ونخلة مثقلة بالتمر وطائر ضخم يستعد للانقضاض على فريسة نسيَ الرسام أن يرسمها. بصعوبة، انتشلت نفسي وطرقتُ الباب.

طرقـة واحـدة علـى اسـتحياء، تلتها طرقـات أخرى بوقْع أشـد، حتى فتحـت لـي صاحبة البيت وحارسـته. كانت كمـا تخيلتها تمامًا: سـمراء، نحيلة، مطفأة النظرة، تربط رأسها بعصابة سوداء، وترتدي جلبابًا فضفاضًا باللون نفسه، لم أعرف ما ينبغي عليّ قوله، ولا كيف أبرّر زيارتي المفاجئة لها. لحسن الحظ وفَّرَت عليّ الكلام.

« استنيتِك كتير ».

قالت ثم أنزلت لمبة الكيروسين المعلقة بمسمار إلى الحائط، أطفأتها بنفخة من فمها:

« نور ربنا كفاية».

نظرتْ إلى السيجارة التي أشعلتُها، وأشاحتْ بوجهها بعيدًا. تشاغلتْ بالعبـث فـي ثنيات ثوبهـا الفضفاض، وإن ظلـتْ تتابعني خلسـة، وترمق شعري المتناثر بلا انتظام فوق كتفي، وملابسي القصيرة، ونهمي للسيجارة التي أمتصها. تأملت بدوري جسـدها الضامر ووجهها المتغضّن، خمّنت أنها بلغت الخمسـين لتوِّها، وهنأت نفسـي على مظهر لا يدل على سـنّي الحقيقية، لن يصدق أحد أن الفارق بيننا بضعة أعوام.

سـألتها عن الغرفة، فأشـارتْ إليها. فتحـتُ الباب فباغتتنـي الحيطان العاريـة، ورائحـة بخـور نفَّـاذة. أغلقـتُ الباب خلفـي، خلعـتُ حذائي، وخطوتُ حافية على الحصيرة الخوص النظيفة.

بلا نوافذ، خالية إلاَّ من سـرير خشـبي ومنضدة صغيرة فوقها شمعدان فضّي به ست شمعات، وبجواره كتب قديمة مصفرة الأوراق. غبار أبيض غطـى كل شـيء. حاولت مسـح بعضـه بيدي، فلـم أفلح، توقفـت عندما تذكـرت خطـورة تعديل أي شـيء في الغرفة، أو حكْي مـا مررت به فيها، وضرورة ألا أغادرها إلا بعد مرور يوم كامل على دخولي لها، يوم أصوم فيه عن الكلام.

للحظات غلبتني أنايَ الأخرى، فشعرت بالتوتر وبعض الندم لمجيئي إلـى هنـا، أشـعلت سـيجارة ثانية علّهـا تمدني بالهـدوء، وتمـددتُ فوق الفراش.

دسسـتُ وجهي في الوسادة، هربًا من رائحة البخور فوجدتها صارت أكثر تركيزًا. جلسـت مسـتندة بظهري إلى قائمة السرير. خلت أنني أسمع ضحـكات أبي الصاخبة تتناثر على أرضية الغرفة. رغم عدم رؤيتي له منذ ثلاثة عقود، ووفاته قبل أعوام. شـعرتُ بحضوره معي، وشـممتُ رائحة التبغ الممزوجة بأنفاسـه. اسـتحضرتُ نبـرة صوته الهادئـة وكلماته التي كان ينطقها متمهِّلًا كأنه يبخل بها على من يحادثه. اندهشـت من حضوره الكثيـف في مكان لم تسـبق له زيارتـه. كيف لمن قضى جُـلّ عمره بعيدًا ونائيًا عن كل شيء، أن يلاحقني طيفه أينما اتجهت؟

سـمعت أصواتًـا متداخلـة تتجـادل بعنـف وعصبية، وتردد اسـمي - بصيغته الفارسية - من وقت لآخر، وأنا عاجزة عن فهم ما يُقال، الكلمات بـلا أي معنـى أو دلالـة محددة. خفتـت الأصوات، تحولتْ إلى وشـيش خفيف يحف بالمكان.

وحده اسمي كنت أميزه، يُنطق «بوستان دَريا» مرة و«باغ دَريا» مرات. مـع حلول المسـاء، أُنيرت الشـمعات السـت من تلقاء نفسـها. لم أشـعر بالجـوع أو العطـش، كما لم أعد في حاجة للتدخيـن. مرّت حياتي أمامي كشريط سـينمائي يتكرر ببطء وبلا نهاية. ذاكرتي باتت حاضرة ومحتفظة بأدق تفاصيل ماضيّ، مع التركيز على لحظات إخفاق تُسـتعاد في ذهني، لكنهـا على عكس توقّعي لـم تخلِّف بداخلي ندمًا. كنـت كالواقعة تحت تأثيـر مخـدّر ما جعـل ردود أفعالـي بطيئـة، وأزال أي توتـر أو خوف، أو عاطفة.

هادئة تمامًا، خلعت ملابسي، وغفوت شبه عارية، في إغفاءتي سمعت أبـي يترنَّـم بأغنية غَمـضَ عليَّ معناهـا. رأيتنـي طفلة تعدو فرحـة بجوار ضريح سـعدي الشـيرازي في حديقة السـعدية، أهبط درجات وأصعدها مـن جديد، لألعب بيـن أعمدة الرخام الوردية. أبتعد عن الضريح مسـافة تتيـح لي رؤية قبّتـه الفيروزية، وأقترب منه لأدقق في الرسـوم المنقوشـة علـى مدخله: كون أزرق يحتضن شـجرة حياة تعكـس زهورها وأوراقها مهرجانًا لونيًا يحتويه إطار ذهبي موشًّى بالنقوش. في الداخل بدت أبيات سعدي المكتوبة على الجدران كتميمة تتحدى الزمن.

غادرت المقبرة المحاطة بأشجار «السرو» متجهة صوب ينابيع الماء، مـع كل خطوة أخطوهـا أنتقل من الطفولة إلى المراهقة ثم الشـباب حتى صـرت المرأة التي أنا عليها اليوم، خلَّفت السـعدية ورائي، بينما أفكر في أن لا شـيء يماثل ربيع شـيراز، تذكرت وطن أسـلافي المفقـود فغمرني الحزن.

حيـن أفقت وجدتني مرتدية ملابسـي بالكامل، وجسـدي يؤلمني في أكثـر من موضع، انتبهـت إلى أن الغرفة مختلفة عن السـابق، ظهرت فيها نافذة تتوسـط الحائط عن يميني، ولـم يكن هناك أثر للشـمعدان بشـموعه السـت، ولا للكتـب القديمـة بجواره، المنضدة الخشـبية نفسـها لم تكن موجودة. خمنت أن هناك من نقلني إلى غرفة أخرى. اعتدلت في جلستي وأنا أتسـاءل عـن مصدر الألـم الخافت في جسـدي. قمت ببطء، ارتديت حذائي، وخرجت بتثاقل.

وجدت صاحبة البيت جالسة في الصالة، تربعت بجوارها فوق «كليم» مـن الصوف. لم أخبرها بما اختبرته في الداخل، ولـم يبدُ عليها أنها تنتظر كلامي أو تتوقع مني شيئًا.

حملت حقيبة يدي، وخطوت أولى خطواتي في طريق العودة. ثمّة مطر خفيف، وظلام يخطو مترددًا. أحكمتُ وضع شالي الأسود على كتفي، مددتُ كفّي أمامي فسقطتْ عليها قطرات مطر، ضممت قبضتي متمنية أن تتحول إلى أحجار زمرد متلألئة، تُذكِّر بحكاية «جبل الزمرد».

لِعلة ما طُرِدت هذه الحكاية من «ألف ليلة وليلة»!

أغفلها الرواة والمدوِّنون، في البداية لجأوا إلى تحريفها، وإذا انتبه أحد المستمعين، يمكرون فيصححون تفصيلة أو اثنتين، للتمويه على باقي التفاصيل المُحرَّفة. مع الوقت اختلفت عن أصلها، بل تناقضت معه، تفرَّق دمها بين الحواديت الأخرى، وتوزعت تفاصيلها عليها!

لا أحد يعرف لماذا قُدِّر لها تحديدًا أن تُحرَّف حد التضاد مع أصلها، ثمّة من يقول إن بعض الرواة القدامى وجدوا فيها إزعاجًا مبهمًا لا يقوون على تحمله، وهم ينشدون «الليالي» في أزقة وحانات: بغداد، والقاهرة، ودمشق. كأن لعنة ما تسمّها؛ لعنة تنتقل إلى عقل الراوي، وتنخر فيه كسوسة شرسة، حتى يستبد به وحش الجنون، كم من راوٍ فقد عقله، وهام على وجهه في الدروب!

آخرون زعموا أن التحريف المتعمَّد جاء طلبًا لسكينة روح الأميرة زمردة، ابنة ياقوت ملك الجبال والأحجار الكريمة المقيم في قاف. ادّعى هؤلاء أن كل ذِكر للحكاية كما جرت وقائعها، خنجر يطعن الفتاة التي كانت كعادة أميرات «الليالي» جميلة كالبدر لا يرتوي منها البصر، من ينظر إليها نظرة؛ تورثه ألف حسرة.

بالَغَ بعضهم مؤكدًا أن كل كلمة ينشدها راوٍ للّيالي تهبط بالأميرة، ذات الابتسامة العذبة والخد الأسيل، درجة في غياهب الجحيم.

روى العارفون بخبايا «ألف ليلة» ومفسِّروها الأوائل أن طرد حكاية

ابنـة ملك الجبال مـن جنة الكتاب الأشـهر، كان قَدَرًا لا فـكاك منه، ومع ذلك كان قدرًا جالبًا للّعنة. لعنة «الليالي» كما أطلقوا عليها، ذلك الكتاب القاتـل، الملعـون، الضّـاج بصرخـات آلاف الممسـوخين والملعونيـن وشياطين الإنس والجن، المثقل بالتعاويذ والتمائم الشريرة وكافة أشكال السحر الأسود.

مثلمـا تآمرت بقية حكايات «الليالي» على هـذه الحكاية وطردتها من الكتـاب، كان للحكايـة انتقامها الأسـود، كون والد زمردة، وكان سـاحرًا لا يُبـارَى، قـد وضـع لعنة تصيب كل من يقتـرب من ابنته المدلَّلة بسـوء، سواء في حياتها أم بعد مماتها. وهذا ما كان. ردّت الحكاية الحاملة لروح الأميـرة المعذَّبـة الانتقام، ولعنـت الكتاب كلـه. صار مطـارَدًا منبوذًا في ثقافته الأم، من يقرأه كاملًا يموت مع انتهائه من آخر كلمة فيه.

وحدهم النُسّـاك والمتصوفة المتحدرون من جبل قاف، والذين تاهوا - إثـر تلاشـيه - هم ونسـلهم فـي بقـاع الأرض المختلفة، هـؤلاء الذين ابتعدوا عن إغراءات الحياة، واختاروا، بعد عقود من التيه، الاسـتقرار في الجبال والمرتفعات طلبًا للسـكينة، وحدهم من حملوا عبء رد الحكاية لأصلها، ومن ثم إعادتها لـ»الليالي».

فعلـوا هذا اتقاءً لشـرّ اللعنـة المحدِقة بمن ينكرها، وأملًا في اسـتعادة وطن أسلافهم الموغل في القدم، وحبًا في الحكاية التي رأوا أن لا حكاية أخـرى تدانيها جمالًا، لا في كتاب «الليالـي»، ولا في «المهابهارتا»، ولا في «الشاهنامة»، ولا في أي كتاب وضعه الأوَّلون.

كانوا واثقين من أنها الحكاية المفضَّلة لشـهرزاد من بين كل حكاياتها الآسرة. وأنها التميمة السحرية التي حمتها من بطش شهريار.

كتـب النُسّـاك في مدوناتهم السـرية المحفوظة في كهـوف الجبال أن

«شـهريار» نفسه وقع في هوى الحكاية وبطلتها، وأنه كان يخطئ، أحيانًا، وينادي «شـهرزاد» باسم زمردة. لم تكن تغضب لذلك، بل تبتسم بلطف، وتتمنى لو كانت بالفعل ابنة الملك ياقوت، مليكة جبل الزمرد وحاميته.

لكـم حلمـت شـهرزاد بأن تكـون هي تلـك الأميرة الأجمـل من منار السـنا، المـرأة ذات الريـش؛ ابنة ملـك الجان في حكاية حسـن البصري، والأكثـر علمًا مـن الجارية تودّد والأميرة نزهة الزمان معًا، والأشـجع من إبريزة ابنة ملك الروم في حكاية عمر النعمان وابنه الأمير شركان.

في حكاية «جبل الزمرد»، كان حضور زمردة الآسر يلوّن الفضاء بلطفه وذكائه وجرأته. لم تعرف شهرزاد أن خبر زمردة، كما وصلها وكما حكته لشهريار، لم يكن إلاّ تحريفًا مشئومًا لقصة حياة أميرة واقعية عاشت ذات يـوم فـوق جبل قاف السـحري، حياة تلاشـت ولم تخلِّف وراءها سـوى حكايـة خضعـت لتحريف مسـتمر، وتنتظر من يخلّصها ممـا علق بها من آثار التشويه ويُحيي ما مات من أجزائها، أو أُغرق في ضباب النسيان.

مع الوقت، بدأ النُسَّـاك المتحدّرون من قاف في التناقص. حتى عقود مضت لم يكن قد تبقّى منهم إلاّ سـبعة: ناسـك في كهف سـرّي في جبل قاسـيّون بدمشـق، وآخر في جبال زاجروس، وثالث فـي جبال الأطلس، ورابع في جبل «سـانت كاترين»، وخامس يعيش في الهيمالايا، وسـادس عنـد قمـة جبـل دماوند فـي إيران، وسـابع علـى مقربـة من أطـلال قلعة «آلمـوت» بجبـال الـ»ديلـم»، وكل ناسـك منهـم يحرص علـى أن يختار بعناية، قبل وفاته، ناسكًا آخر، ليحمِّله عبء الحكاية.

كان الواحد منهم يعرف كل شـيء عن الآخرين من دون تواصل فعلي بينهم. عاشـوا مع مريديهم القليلين منتظرين انبعاث أميرتهم الغائبة، لكن سـرعان ما قلّ عددهم، إذ مات خمسة منهم بلا وريث مؤتمن على السر،

وغادر السادس جبل دماوند مع طفله الوحيد لتنقطع أخباره عن ناسك جبال الديلم، والذي كان يعتبر الأكثر دراية بسيرة ابنة الملك ياقوت، خاصةً أن بحوزته مخطوطًا نادرًا يحوي علامات وإشارات - معظمها ملغز - تقود، في حالة النجاح في فك شِفراتها، للناقص من تفاصيل «جبل الزمرد»، وتساعد على عودة بطلتها. كان مقتنعًا أنني، أنا ابنته الوحيدة، بستان البحر أو «بوستان دَريا»- كما اعتاد مناداتي- من سينجز هذه المهمة العصية على الإنجاز منذ قرون.

ذكرت النبوءات، المكتوبة على هيئة ألغاز وأشعار غامضة، أن الكاهنة المنتظرة ستبعث زمردة من رماد احتراقها، عبر تنقية حكايتها مما أصابها من تحريف وإعادتها إلى متن «ألف ليلة»، ولحظتها سوف يتجسَّد قاف من جديد وتبطل لعنته، فيرجع إليه أهله بعد قرون من التيه.

كان ناسك جبال الديلم مؤمنًا بإخلاص بالقوى السحرية للكلمات. بكلمة واحدة تنهار ممالك وإمبراطوريات، وبنسْج حرف بجوار الآخر تنتهي حيوات، ووحدها زمردة ستسير بمهارة، مغمضة العينين، بين حقول ألغام الكلمات، عارفةً خيرها من شرها. كم ابتهل كي يشهد عودة الأميرة، كان سيعرف بها في حال تساقط مطر من زمرد؛ حبّات خضراء لا يراها إلاّ المؤمنون بحقيقة قاف. مَن عداهم سيرونها كأي مطر آخر.

أعمار أجيال من أسلافه النسّاك ضاعت في انتظار هذا المطر الزمردي الآذن بعودة ابنة ياقوت التي ما إن تتجسد من جديد، وتستفيق إلى واقعها، وتستعيد تفاصيل ماضيها حتى ينتصب قاف مجددًا، ويتراقص ابتهاجًا، وإذ يحصل ذلك ستنفصل عن جسده قطع زمرد كمطر منهمر على العالم.

ساعتها ستُبعَث العنقاء، وتعود رعية ملك الجبال الناجية إلى موطنها. سيواصلون حياتهم من اللحظة التي توقفوا عندها بعد تخلصهم من

لعنـة الإخفاء والتيه. سـيمثل لهم الملك ياقوت كراعٍ سـرمدي، في حين تحكمهم الأميرة مستفيدة من حكمة قاف وفلسفته، تلك الحكمة المؤدية إلى فهم الذات، ومن ثم فهم العالـم!

مغناطيس الأجساد

كطفل يشيِّد قلاعًا رملية ثم يهدمها احتفاءً
بقدرته على الخلق والتبديد معًا، أبني
بدوري عوالم وأبيدها!

الطريق، المُزَنَّر بأشـجار الكافور من الجهتين، بالكاد اتّسـع لسيارتي. بـدا بـلا نهاية، خاصةً أن الأشـجار رمت عليه ظلالًا كابيـة، كما ضاعفت بسـاتين البرتقـال الممتـدة علـى جانبيـه من قتامتـه ومن ضياعـي. خفتُ للحظة، لكن إدراكي أن لا مجال للتراجع نفض طيف الخوف عني.

أي شـخص هذا الذي يبني بيتًا وسط بسـاتين مساحتها خمسون فدانًا في بقعة شبه مهجورة من دون أن يعبِّد طريقًا يُسهِّل الوصول إليه؟

لطمأنـة نفسـي رحـت أفكـر فـي طفولتـي، في رحلاتـي مع أبـي إلى «شـيراز» تحديدًا، كنت أحـس عندما أزورها أني على وشـك الخطو في أرض مسـحورة، تغمرني السـكينة، فيما يسـتغرق أبي في تأملاته أمام قبر سـعدي، يجلس بالسـاعات محدقًا في نقطة متخَيّلة أمامـه، أحاكيه كأنما أتدرب بدوري على الصمت، «وتحسـب أنك جُـرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر!»، ترن جملة الإمام علي في رأسـي، فأنغمس أكثر في ذاتي وأجاهد حتى لا أنفصل عمَّا حولي.

لكن بينما أقود سـيارتي وسط بساتين تكاد تبتلعني بداخلها، يجتاحني

الإحساس بالضآلة، أراني جرمًا صغيرًا يصارع كي لا يلتهمه هذا الطوفان النباتـي. لا وجـود لأي صـوت بشـري. لا شـيء سـوى زقزقـة عصافير بأصـوات معدنية حادة، وطنين نحل يتسـابق على امتصـاص الرحيق من زهر برتقال يُعبِّق الجو بأريجه.

من بعيد بان البيت المشـيد بالحجر القديم كقلعة مصغرة تدير ظهرها للزمن. اتسع الطريق حتى انتهى إلى مستطيل من الأرض الفضاء يتوسطه البيت بأسواره العالية. ركنتُ العربة ووقفتُ مترددة أمام البوابة الحديدية. قبل أن أضغط زرّ الجرس، فتح لي المضيف، فخمّنت وجود شاشة مراقبة تُظهِر له ما يجري خارج قلعته الحجرية.

قادنـي إلـى الداخل عبـر مجاز متعـرج، أوصلنا إلـى فناء كبيـر بمثابة حديقـة داخليـة تتوسـط البيت وتتوزع حولهـا قاعاته الرئيسـية على غرار البيوت العربية القديمة.

«خدي راحتك.. دقايق وراجع لك».

جلسـت على حافة «الفسـقية» التي تتوسـط صحن الـدار، بينما تأنس أذناي لخرير مائها وتشخص عيناي نحو أشجار الياسمين الهندي وزهور الجهنميـة المتوهّجة. لاحظتُ أنه زرع أكثر من شـجيرة جهنمية مفسـحًا المجـال أمامهـا كـي تتداخـل ألوانهـا المختلفة، ليبـدو الأمر فـي النهاية كشجرة واحدة يجتمع فيها الأبيض بالبنفسجي والوردي والأحمر.

كان عبير زهر البرتقال المتسلل من البساتين القريبة لا يزال يملأ أنفي، وبدت السـماء فوقي صافية على نحو غير مفهوم مقارنةً بالأجواء القاتمة في الطريق الضيّق.

عاد بعلبتيّ بيرة «سـتيلا»، ناولني واحدة وشـرب رشـفة من الأخرى. أشـار إلى باب قريب فسـبقته نحوه. دخلنا إلى قاعة خافتة الإضاءة بتأثير

ستائر مخملية مسدلة. كان ثمة عشرة أشخاص يتحلَّقون فوق بساط من الفرو، مستغرقين في مناقشة منعتهم من الانتباه لنا، انضم لهم وأشار إليّ أن أحذو حذوه.

ضايقني عدم تمكني من رؤية وجوه من أجالسهم بوضوح، ثم تجاوزت الأمر حين علا صوت مضيفي وهو يقرأ ما ذكر أنه الأصل الذي أُستلهِمت منه حكاية «مدينة النحاس». أنصتَ الحضور بجدية مبالغ فيها، ولمَّا انتهى بدأ آخر يحكي من الذاكرة مقتطفًا من حكاية حسن البصري، ذلك الذي يرحل فيه البصري إلى جزر «الواق واق» لاستعادة زوجته «منار السنا». بعدها بدأت نقاشات حول التأثيرات الدينية على حكايتيّ «حاسب كريم الدين» و«رحلات السندباد»، وختم أحدهم الحلقة بمداخلة حول ما أطلق عليه: «طيف النبي سليمان كأب مهيمن على فضاء الليالي». اكتفيت بالإنصات، بينما عمل ذهني كجهاز تسجيل يسجل ما أجده لافتًا للانتباه.

ما إن انتهت الجلسة حتى تسلل الجميع مغادرين وخرج صاحب البيت لتوديعهم طالبًا مني انتظاره. أزحت الستائر فتسرب ضوء الغروب الخجول إلى القاعة، وبانت لي زخارف الفسيفساء، والأرائك المكسوة بالحرير في الجانب الآخر منها، في السقف لمحتُ نقوشًا بارزة بدت كطلاسم تضفي مسحة غرائبية على المكان، وفي وسطها شريط دائري مكتوب فيه بالخط الكوفي: «أنا قطرة مطر سالت من سحابة سخية، وتعرف أنها سوف تتبدد على الأرض مختلطة بترابها لإنتاج ما يتعداها». دققتُ النظر في الجملة فكدت أرى مطرًا منهمرًا على غابات وبحار وصحارٍ.

بانضمامي لهذه النخبة، قطعت خطوة كبيرة، لكن نهمي وطول رحلتي

يمنعانـي من الرضا. لم يكن من الصعب تعميق معرفتي بالبروفيسـور في فترة قصيرة نسـبيًا بالنظر لمشـاركتنا في أكثر من مؤتمر دولي معًا، وولعنا المشـترك بـ»ألف ليلة وليلة». بسهولة كنا نمد خيط النقاش بيننا حول كل ما يخصها. كانت دعوته لي لحضور جلسـات جماعته «دراويش الليالي» مسـألة وقت. أسـتاذ سـابق فـي جامعـة «ليدن»، مهـووس بفكـرة النص الأصلـي لـ»الليالي»، وحالم بتنقيتها من إضافات المترجمين وما يسـميه باحتقار «القصص المزوَّرة». يكاد يحفظ مقاطع كاملة من طبعة «محسـن مهـدي»، ويتحفظ عندمـا أتحدث أمامه عن اهتمامـي بإحدى الحكايات المضافة. من بين أبحاثي العديدة، لفتت نظره دراسة صغيرة عن تمثيلات الجبال في «ألف ليلة».

«ملاحظات جديرة بالاهتمام»!

قال بنصف ابتسـامة محافظًا على اقتصاده اللغوي ونفوره من المبالغة والمجـاز، ففطنتُ إلى أن هذا أقصى مديح يمكـن أن يناله منه أحد. وهو يدعوني إلى بيته الواقع وسط بساتين الفاكهة، أخبرني أن هناك مفاجأة في انتظاري، فعرفت أني على وشك الانضمام لناديه الحصري.

عندمـا تأخـر، خرجت من القاعة إلى الفناء، جلسـت مـن جديد فوق حافة الفسقية أتأمل المشربيات والقمريات المصنوعة برهافة من الخشب البغدادي.

لم أنتبه لعودته إلاّ وهو يضع يده على كتفي، بينما يقول بزهو طفولي:

-إيه رأيك في بيتي؟ شَبَه بيت أثري زرته في دمشق!

كدت أسخر من مفارقة أن يفخر المهووس بالأصل الذي أعرفه بعمل مقلَّد؛ تحريف لنسخة أصلية، غير أني بلعت تعليقي مجاملةً له، واحترامًا للبيت المصمَّم بإتقان.

-رائع.

رددت بحماسة.

لـم أرغب في المناورة، سـألته مـن دون مواربـة إن كان يعرف حكاية «نورسـين وملكة الحيَّات»، وأخبرته بخطوطها العامـة. ذكر أن لديه أكثر من صيغة لها، لكن لا يمكنه الجزم أيها الأدق.

كان هـذا بالضبـط ما أريده، أن يمنحني مفاتيـح الروايات المتاحة عن حدوتة نورسـين، ومن ثم أقارنها مع ما بحوزتي عن «جبل الزمرد»، وعبر لعبة تباديل وتوافيق تطرح كل الاحتمالات أصل إلى ما يفترض أن يكون صيغتها المثلى. لسبب ما همَّش أسلافي سيرة نورسين زوجة ملك «قاف» كأنها وصمة عليهم التخلص منها.

***

وُلِدت نورسـين في مدينة تُدعى «جولسـتان»، تقع بين جبال مكسـوة بنباتـات زاهيـة الخضرة وبحر هائج باسـتمرار، كان والدهـا علاّمة؛ أتاح لهـا مكتبة عامرة بكتب الطب والفلك وأخبـار الأمصار المختلفة. كبرت وهي لا تتخيل لنفسها موطنًا آخر. لم يخطر ببالها قط أن القدر كتب على جبينها الانتقال إلى مكان ما كان لها تصوُّر وجوده.

في «جولسـتان» حيث قضت طفولتها وصباهـا، قلة فقط هي من أتت علـى ذكـر جبـل قاف، وأفـراد معـدودون علـى الأصابع هم مـن حفظوا شذرات من أسـراره. فعلوا هذا دونما يقين بوجوده الحقيقي. تراءى لهم في المسافة المخاتلة بين أساطير الأولين والحقائق غير المبرهَن عليها.

إلـى جانـب هـذه النخبـة، كان ثمة شـريحة أعرض لم تسـمع بالجبل السحري إلاّ في مقام الوعيد. كان التهديد بالنقل إلى ما خلف قاف أقوى أنـواع التهديد. ومع أن أحدًا لم يتيقن قـط من حقيقة الهيكل المقدود من

الزمرد، ومع أن الحكايات المروية عنه تُجمع على أنه يبعد بمقدار سنوات عن أقرب مكان له، بقيَ منبعًا للرهبة بين من سمعوا به. عجز معظمهم عن تخيـل جبل تنتهي بنهايتـه الدنيا وتبدأ حدود الآخرة، وتقع خلفه سـبعون أرضًا من ذهب وسبعون أرضًا من فضة، وسبعون أرضًا من مسك.

في صباها كانت نورسين تسمع أباها يتحدث مع رفاقه عن قاف. اعتاد أن يؤكد أنه ليس مكانًا حقيقيًا، إنما جوهر الحقيقة صعبة البلوغ.

«في الطريق المستحيل إليه، يمكن لأي شيء أن يحدث! كم من سفن ضاعت وكم من أسـاطيل تاهت، وكم من رحالة فقدوا البوصلة والدليل، وهـم يحلمون بالطَّوْد الأخضر المحيط بالدنيا والمُحدِد لخط الأفق، ولا يفصله عن السـماء سوى 80 فرسـخًا. قاف هو الحرف القابض على سر وجودنا والمُلم به كمحارة تحتضن لؤلؤة»!

كانت تسمعه يردد هذا، فيشرد خيالها في بحر من لآلئ تخطف البصر. تحفظ الشعر، وتقرأ ما يقع تحت يدها، وتواظب على الإنصات للنقاشات الدائرة في مضيفة بيتهم، محاولةً ملاحقة أفكار رائحتها في الهواء. كانت أكثر لحظاتها ألمًا، حين منعها أبوها من حضور هذه النقاشات بحجة أنها كبرت، ولا يجوز لها مجالسـة الغرباء. لم تستسـلم وراحت تتنصت على مجلسهم من وراء ستار، في المساء ترتحل مع كلماتهم إلى عوالم أرحب من جدران البيت وحدود المدينة.

ذات شـتاء شـاع فيه الجدب، وفرغت مخازن الغـلال، لمحها الملك ياقـوت خلال إحدى جولاته النادرة على متن العنقاء. مسـتندة إلى حائط فـي الباحة أمام بيتهم، رأى فيها أجمل مخلـوق صادفه، وقرر أخذها معه إلـى قاف مهما كلفه هذا. كان يقطع المسـافة الهائلة إلـى مدينتها بغمضة عين بفضل العنقاء. لشهر كامل اعتاد أن يحوم على مقربة من سكنها دون أن تنتبه له.

واتتـه الفرصة حيـن خرجت مع الجمـوع للابتهال استجداءً للمطر. وقفـوا فوق تل أمـام باب المدينـة، وقد رفعـوا وجوههم المتوسِّـلة نحو السـماء. بأصوات هامسـة رتلوا أدعيتهم، واختتموا طقسـهم بالتمرغّ في التـراب. مئات الأطفال والنسـاء والرجال تمرغوا فـوق التل وتدحرجوا نحو الأسـفل، فيما وقفت تتابعهم مأخوذة بطلاوة أهازيجهم المتضرّعة، فبانت بجسـدها الممشـوق وشعرها البني المستسـلم لمداعبات النسيم، مثـل رَبَّة تبارك المتعبدين طمعًا في غفرانها. فـي اللحظة التي رفعت فيها رأسـها لأعلى وأغمضت عينيها وارتسمت على شفتيها ابتسامة استرخاء، حلّـق الطائـر الخرافي على مقربـة منها، فجفلت، لكنّ يـد ياقوت، كانت أسـرع من انتباهتها، التقطها كما لو كانت طفلة، وأجلسها أمامه، فضاعت – عبثًا – محاولاتها للإفلات.

لم ينتبه الغارقون في ابتهالاتهم إلاّ مع صرختها الثالثة. من نظروا أولًا، رأوا ذراعًـا قوية ترفع ابنة مدينتهم في الهواء، أما من تأخروا عن متابعة ما جـرى، فأبصروا فقط جناحين عملاقين بلون بنفسـجي يـكادان يحجبان الأفق، ولـم يصدقوا رفاقهم حين أقسموا أن رجلًا فوق هذا الطائر خطف نورسين وطار بها إلى حيث لا يعلمون.

عندما هطل المطر بغزارة لمدة أسبوع، قال أهل المدينة إن ابنة العلاَّمة كانـت القربـان لغيث لم يشـهدوا مثله من قبل. لم يتـرك والدها مكانًا في «جولسـتان» ومـا جاورهـا إلاّ وبحث عنهـا فيه، وفي النهايـة عكف على الغوص بين مجلدات مكتبته، علّه يجد فيها تفسيرًا يقبله عقله. ظلّ يبحث حتى مات كمدًا.

خـلال ثوانٍ قليلة وجدت نورسـين نفسـها فوق جبل هائـل مادته من الزمـرد المصقول ومحوره من الياقوت وبحيراته من فضة سـائلة تنعكس

عليهـا أشـعة الشـمس نهـارًا فيتراقص الألـق فـوق صفحتهـا، وتتفاداها الأبصـار، وفي الليـل ينعكس عليها ضـوء القمر فتتحوّل إلـى مرايا برّاقة يتأمل القمر فيها نفسه كنرجس مضيء!

حاولتْ الهرب مرارًا، ولـم تصدق الملك حين أخبرها أن مدينتها تقع على بعد سـنوات. بكت لأسابيع وامتنعت عن الطعام حتى كادت تهلك، قالـت لهـا الوصيفات إن الجبل الزمـردي أكثر الأماكن عزلـة في العالم، كيف لا وملكة الحيات تلتف حول هيكله كأنما تعتصره؟ حية لا مثيل لها تحميه من تطفل أي مخلوق، كما تمنع سكانه من مغادرته وتبقيهم أسرى سجن من زمرد ثمين.

وحـده الملك ياقوت - ومعـه الجان والطيور الجارحة - كان يسـافر بحريـة من قاف إلى الجبال والبقاع الموغلة في البعد حد التلاشـي. على متـن العنقاء يسـتطيع التحليق من مـكان لآخر قاطعًا في لحظات أسـفارًا تحتاج إلى أزمان طويلة.

في النهاية استسـلمت نورسـين لمصيرها مؤقتًا علـى أمل النجاح، مع الوقـت، في تغييره. كلما اشـتاقت إلى عالمها القديـم فكرت في العنقاء، الرابضـة فـي عش آمن مطمئنة إلى أن أحدًا لا يجـرؤ على تعكير صفوها. تتخيـل ذلك الطائر الخرافي، يطير بهـا إلى بلادها، تتذكر لونه الأرجواني المتوهج، فتفكر في أنه الوسيلة والغاية في آن.

حيـن ظهرت عليها أعـراض الحمل، بدأت تتعامل مـع وجود ياقوت فـي حياتهـا كأمر واقع عليها التأقلم معه، لم تكن تعلم عنه وعن عالمه إلاّ أقـل القليل، على العكس من نهمها للمعرفة وهي في «جولسـتان»، باتت غير مكترثة، وابتلعت فضولها مع تربعها على عرش قاف.

لـم تعرف مـن أين أتى ياقـوت! ولا كيف أصبح ملـكًا على كل جبال

العالم وأحجاره الكريمة، ولا لماذا اختار الإقامة في هذه المدينة المعلَّقة فوق قمة جبل لم ترَ له مثيلًا من قبل.

عرفت فقط، أنه من بين كل الأحجار وقع في هوى الزمرد. كيف لا وهو يبصره في كل شيء حوله فوق قمة قاف؟ أخبرها، وهو يتأمل جدران قصره الزمردي، أنه رأى في خضرته المتدرجة المُكَمِّل لأحمر الياقوت. فقالت: «سنسمي مولودنا القادم باسم الزمرد سواء أكان ذكرًا أم أنثى. مرامي أن يكون له بعض من حُسن الزمرد وسِرّه. فكما تعرف، أعزّك الله، لكل امرئ من اسمه نصيب».

راقته الفكرة، وتمنى أن يكون المولود أنثى بعينين برَّاقتين كحجري زمرد، خضراوين كجبل قاف. بعد بضعة أشهر جاءت زمردة إلى العالم كملاك رقيق بملامح آسرة وعينين لامعتين. هادئة، لا تكاد تبكي، تُرقِدها أمها على ظهرها فوق الفراش فتتأمل السقف تأمل الحكيم العارف.

كانت كأنها مولودة بمعرفة هائلة رغم صمتها. في البداية ظنها أبواها بكماء لأنها حتى سن العاشرة لم تنطق بكلمة واحدة، كانت فقط تطيل النظر بعينين باسمتين مرتاحتين.

في سن السابعة، وبسبب إلحاح أمها، أحضر لها والدها كبير حكماء قاف كي يعلِّمها الحرف، ويغرس فيها بذور الحكمة، كان الرجل يطيل الشرح محتارًا، غير واثق إن كانت تفهم ما يقول، أو حتى تسمعه، أم لا. كانت تنظر إليه من دون أن تتكلم. من جانبه أدى مهمته متغاضيًا عن مسألة عدم التواصل، كان يتحدث عن الفلسفة وأصول الطب والجبر والفلك، ويحكي عن ممالك بعيدة في السِند والهند، ووراء بحر الظلمات، يحكي عن طيور الرخ المحلقة باستمرار فوق مدن موغلة في البعد كأنها سماء داكنة موازية للسماء، وعن رحالة يرتادون الآفاق غير عابئين بالأخطار،

عن الأحجار الكريمة والجبال الممتدة على مساحات شاسعة من مملكة أبيها تفصل بينها بحار ومحيطات بلا نهاية.

رسم لها جغرافيا جبل الماس المحاط بوادي الحيّات، حيث يذبح التجار حيوانًا ويقذفونه في عمق الوادي فتلتصق الماسات النادرة بلحمه الساخن قبل أن ترفعه النسور الجارحة فوق القمة من جديد، فيخيفها التجار ويلتقطوا الجواهر على عجل.

وأفاض في كل ما تجب معرفته عن جبل السحاب الذي تكاد ذؤابته تلامس الغيم، حيث تسكن البنات السبع لملك الجان في قصر لا يستطيع إنسي بلوغه.

أسمَعَها حكايات تخلب اللب عن جن حبسهم الملك سليمان في قماقم سحرية مختومة بالنحاس، وتركهم أسرى زمن ميت.

من السابعة حتى العاشرة من عمرها، حشا الحكيم عقلها، بعلم وافر ورصيد لا ينفد من الحكايات، إلاّ أنه كان يترّدى في هاوية اليأس لشعوره بأنه يكتب على الماء، يضيِّع وقته الثمين مع مخلوق بالغ الجمال لكنه لا يكاد يفقه شيئًا رغم ذكاء عينيه وبريقهما الأخاذ.

يوم عيد ميلادها العاشر، وبينما يشرح لها قوانين البابلي حمورابي، بعد أن عرّفها على أسرار الفرعوني بتاح حُتب، وعلى جغرافيا جبل المغناطيس ولعنته المميتة، بلغ منه اليأس مبلغه. قرر، بتهور، التوقف عن إهانة علمه ورميه أسفل قدمي هذا الكائن الملكي الصامت. لم ينشغل بما قد يجلبه هذا عليه من نقمة وعقاب. ندم - قبل كل شيء - على خيانته لقناعته الراسخة بلا جدوى تعليم الإناث.

نظر إليها بحسرة، ففهمت ما يفكر فيه، وأرادت ثنيه عن قراره، فكان عليها أن تهجر عالم الصمت. نطقتْ بكلماتها الأولى:

-سيدي ومعلمي لم يضِع جهدك سدى، ويومًا ما ستتيقن من هذا!

كان صوتها واثقًا، وآمرًا بلطف، كأنما تدربت على جملتها هذه مئات المـرات، كي تترك الأثر الذي تركته في نفـس الحكيم. تخلى الرجل عن وقاره، صرخ فرحًا، وركض لإخبار والديها أن ابنتهما ليست بكماء صمّاء كما خُيّل لكل أهالي المملكة.

من يومها واصلـت زمردة الحديث بصوتها ذي الرنة المعدنية العصية على النسـيان، وكأنمـا ترغب في تعويض سـنوات صمتهـا، انكبت على التعلم بنهم لم يصادفه الحكيم مع أيٍّ من مريديه. لاحظ انشغالها بالعالم خـارج حدود قاف، وسـؤالها الدائم عـن أكثر الممالك نأيًـا كأنها ورثت عن أمها هوسـها بالرحيل. كانت متعطشـة للحكايات؛ للنهل من عجيبها وغريبهـا. استفسـرت مـرارًا عن قماقم سـليمان، وكيفية تسـخير الجن،. استفسرت عن عشبة الخلود، وهل من سبيل للوصول إليها؟ وعن طريقة لترويض جبل المغناطيس واستئناس أحجار الجنون الفضية.

سـعى الحكيم لجرّها إلى أرض الواقع وعلومه، غير أن غرامها الأول كان الغيبيات. درست على يديه العلوم والرياضيات، لكن كيانها كله كان مع الخيال وعوالمه المغرية.

***

كان ميـلاد زمـردة قـد مثَّل نقطـة تحول في حيـاة نورسـين، إذ تغيرت صلتهـا بالحيـاة في «قـاف». صارت ابنتهـا وطنًا بديلًا لهـا. كانت تتأملها بالسـاعات، فـي سـنواتها الأولى، مبتهلـة أن تخصها ولـو بكلمة واحدة، وكادت تجـن من الفرحـة عندما نطقت الصغيرة أخيرًا وهي في العاشـرة من عمرها.

بدت الأم وقتها كأنما نسيت حنينها لمسقط رأسها، وغربتها الإجبارية

في بلاد لا تهمها في شـيء، لكنها في العام الأخيـر قبل اختفائها، داهمها حنين مَرَضي. كانت شـوارع مدينتها وأزقتها تسـكن أحلامها. كانت ترى الطرقـات والميادين والحـارات كمـا لـو أضحت خاليـة إلاّ مـن مبانيها وأشـجارها، لا بشـر ولا حيوانـات ولا طيـور. ثـم زارها طيـف لعملاق بمسـوح داكنة يقطع دروبًا وعرة، وأبى أن يغادر مناماتها. كانت تتابعه كل ليلـة تقريبًا وهو يذرع طرقًا لا نهائية بينما تسـير خلفـه، وفي ذهنها أنه من سوف يدلها على طريق العودة.

ليلـة بعد الأخرى، غلبتها الرهبة بينما يمر بمدن مُقبضة، واستسـلمت للبهجة وهي تبصر أضواءً تنعكس فوق قباب كريسـتالية هائلة، وحبسـت أنفاسـها فيما يتسلق دَرَج جبل حالك السـواد، مهدَّدًا بسقوط مدوٍ مع كل خطـوة. تركتـه يغالب قدره فـي رحلة صعوده، ووجدت نفسـها على قمة الجبل تستمع لصوت أبيها كأنما يقرأ من كتاب:

«فـي المسـافة اللا نهائيـة بين جبلـي المغناطيس وقاف تكمن أسـرار الوجود وخباياه».

لطالمـا وقف جبل المغناطيـس بالمرصاد للرحّالـة والمغامرين. كان مغناطيسـه الأسـود يجذب مسـامير وحديد السـفن، فتنفصل عن خشبها وتتطاير في الهواء منجذبة نحوه، لتتحطم السفن ويغرق ركابها. قد ينجح نفر منهم في السـباحة وتسـلق دَرَج الجبل نحو الأعلـى حيث طيور الرخ بالغـة الضخامـة، ومـن هناك ينظـرون للأسـفل فتميد بهـم الأرض وهم يتأملون الطريق الذي قطعوه صعودًا.

فـوق قمة المغناطيس يقتم اللون الأسـود ويتمدد كأنما يغطي الكون، أسـود حالـك يخطـف البصر ويجبـر ناظـره علـى التحديق فيـه كالواقع تحت تأثير سـحر لا شـفاء منه، يعود لا يبصر زرقة السماء ولا زرقة البحر

المستعارة منها، تتلاشى خضرة الأشجار وأبيض السحب ودُكنة الغيم.

ليس على المسحور بمغناطيس اللون أن ييتئس، لأن هذا السحر أخف من آخر أشد ضراوة، إذ ثمة أحجار برّاقة من فضة شاهقة البياض تتناثر بين المغناطيس الأسود، وإذا كان هو يمغنط المعادن، فالأحجار الفضية تمغنط أجساد البشر، بحيث إذا نظروا إليها تتلألأ؛ لا يقوون على الابتعاد عنها، وتأخذهم أقدامهم رغمًا عنهم نحوها ليلتصقوا بها غارقين في ضحك بلا نهاية يقودهم إلى أعماق الجنون. جنون الفضة هذا يختلف عن غيره من أنواع الخبَال في اقترانه بالضحك ليصبح مسًّا ضاحكًا ينتهي بالموت».

لم تحكِ نورسين أحلامها لأحد، كما لم تأت أبدًا على ذِكر العملاق الذي صارت ترى فيه رفيق درب، لا تدري إلامَ سينتهي بها. مع الوقت أخذت الأحلام تتضح أكثر، فسَّرتها بأن الرجل هو من سيعيدها إلى بيت أبيها، ثم بدأ يسكنها هوس جديد؛ هَوَس جبل المغناطيس بأحجاره الفضية. صارت تخايلها في الحلم، فتصحو غير قادرة على التفكير في سواها. تساءلت أيمكن أن تكون قد تمغنطت عن بعد؟ خافت من الجنون، وإن لم تستطع، بل لم ترغب في مقاومته.

في حلم كاشف رأت نفسها على أطراف جبل الزمرد، تحديدًا أمام الجميزة المعمرة المسكونة بملكة الحيّات، انتظرت طويلًا قبل أن تسمع صوتًا منبعثًا من التجويف في جذع الشجرة يبشّرها بقرب تحقيق مرادها.

عندما اختفت نورسين، كانت زمردة في عامها الخامس عشر. استماتت كي يكشف لها والدها سر اختفاء أمها، لكن كلماته القليلة كانت تلف الحدث بطيّات إضافية من الإبهام. بات اسم الملكة نورسين محرَّمًا على الألسن فوق قاف، ومع هذا حمل الهواء لابنتها همسات

تربـط رحيلها بملكة الحيّات وجبل المغناطيـس، فقد تناقلت الوصيفات أن آخر مكان شوهدت فيه ملكتهم كان مقر الحيَّة الحارسة.

في العام نفسـه، ولإخـراج زمردة من أحزانها، أخذهـا أبوها إلى عش العنقـاء لأول مرة، مرّنها علـى ركوبها وترويضها، وأخبرها أنها سـتكون وسـيلتها للتعرف على العالم والسـفر فيه ما إن تبلغ الحادية والعشـرين، حذّرها بشدة من خرق الناموس المقدس والمغادرة قبلها.

عاهدته على الطاعة، وفي ذهنها أن جبل المغناطيس سـيكون وجهتها الأولى، ما إن يُسـمَح لها بالسـفر. سـتطأ أرضه مهما كانت المخاطر. في أحـلام يقظتهـا كان طيف أمهـا يخايلها متجـولًا بين شـعابه ومنحدراته. لطالما حلمت زمردة أن تجوب العالم على متن العنقاء، ثم تحوّل حلمها إلى هاجس مُمِضّ إثر تبخُّر أمها.

بدا لها عمر الحادية والعشـرين بعيـدًا، أرادت التعجيل بهذه الخطوة، لتيقنهـا من أنها كلما سـارعت، كلما زادت فرصتهـا في العثور على أمها. كانـت تؤمن بأنها ضاعت في غياهب جبل المغناطيس، بسـبب لؤم ملكة الحيّات؛ حارسة قاف وضامنة عزلته.

حين كاشـفت كبير الحكمـاء برغبتها في التخلص مـن الحية العملاقة بحجـة أنهـا تمنع سـكان الجبل مـن مغادرتـه، فاجأها فزعـه. أخبرها أنها تحميـه، وتحفظـه من خطـر التبدد والـزوال، ولم تـؤذ أي كائـن من قبل، فقـط تلتـف على هيكل الجبل كأم حنون، ثم تلجـأ إلى كهفها الخاص في فترة البيات الشـتوي. أضاف أن عزلة قاف قدرية ولا دخل لمخلوق فيها. سايرته الأميرة وصمتت، ظن أنها نسيت الأمر لأنها لم تعاود الحديث عنه. في تلك اللحظة السحيقة كانت قد بدأت، دون أن تدري، درب الاحتراق.

وحدها في مدينة صاخبة

هشة كابتسامة لحظة انطفائها، ارتحلتُ
من مكان لآخر، حاملةً السّر بداخلي.

أضاعت هدير زمردة في طفولتها، وقدرها أن تضيع طوال حياتها بحثًا عنها!

مَـن كان ليخبر الطفلة ذات السـنوات السـت أن خطأً بسـيطًا، أو فعلًا منسـيًا نقوم به دونما قصد قد يرسم مصيرنا. لو لم يخلب الفصّ الأخضر البـرّاق لُبّهـا. لو لـم تشـتهيه وهو يتوِّج بَنصَرَ أمها. لو لـم تلتقطه خلسـة من دُرج التسـريحة، وتخرج به إلى حديقة بيت جدّها، ويسقط منها في كومة القـش، لـو لـم يحدث كل هذا، لربما عاشـت هدير حياةً أخـرى. لربما ما كان لحكايتنا أن تكون. لكن من يمكنه إقناع الشـابة الجامحة بهذا بعد أن كُتِب على مصيرينا التلاقي؟

فـي طريق عودتي من البيت الكائن وسـط بسـاتين البرتقـال الممتدة، كنـت مشـغولة بهدير. غابـت عني وقائع حكاية نورسـين وذكـرى رائحة المطر فوق جبال الـ«ديلم»، واسـتولى عليّ مشـهد هدير وهي تترجّل من التاكسي:

خرجـتْ من العربة، أغلقتْ الباب خلفها بقـوة، وجرَّت حقيبتها ذات العجلات على الرصيف المتكسِّـر في شـارع جدتها. كونها لـم تزرها في

منزلها منذ فترة طويلة، أخطأت البناية التي تسكن فيها، وطلبت من السائق أن ينزلها أمام بناية مشابهة على بعد أمتار.

فـي الحاديـة والعشـرين مـن عمرها، سـارت وحيدة، تسـحب حقيبة مكتظـة بملابسـها، وتتحايل على الرصيـف كي لا يعوق مسـار حقيبتها. أمهـا في طائرة عملاقة فـي طريقها لزوجها الجديد فـي كندا، وهي عليها أن تعيش لعام كامل على الأقل مع جدتها لأبيها.

فـي لحظتها تلـك، ذات ظهيرة مملّة، كانت هدير بشـعرها الـ«كيرلي» الأسـود القصير، وجسـدها النحيل، وملابسـها «الكاجوال»، تمر بلحظة مماثلـة لتلك التي اختبرتها وهي في السادسـة مـن عمرها، حين أضاعت خاتم أمها الزمرّدي، ثم هامت على وجهها في الشوارع المجاورة لمزرعة جدها. غير أنها، على عكس تلك اللحظة القديمة، لا تشـعر بالخوف ولا الضياع، إنما بحرية ممزوجة بالإثارة والترقّب.

لكـم رغبـت أن تظل في شـقتهم حتى المسـاء، لكنّ أمهـا رفضت أن تتركهـا وحدها في الشـقة. تأكـدت من إغـلاق الغاز ومفاتيـح الكهرباء، وصممـت على أن تغادرا معًـا: هي تغادر إلى المطار قبـل موعد طائرتها بسـاعات خوفًا من مظاهـرات قد تعطل حركة المـرور، وابنتها تغادر إلى بيت جدتها.

وحدها في شـارع مزدحم يضج بالحياة والناس، سـارت هدير وقلبها المتوثّـب يتقافـز في صدرهـا، لأن نادية قالـت إنها تكره مشـاهد الوداع، لـذا فلا مبـرر لأن ترهق وحيدتها نفسـها بمصاحبتها إلـى المطار، ذكرت هذا كما لو أنها تتفضل عليها بهذا الصنيع؛ كأن مشـاهد الوداع في عرض الشارع ليست وداعًا!

ربمـا لم يكن مشـهدهما كذلـك بالفعل، لأن ناديـة المرتبكة بحقائبها

العديـدة، وبأوراقهـا من جواز سـفر إلى تذاكر وخلافه، سـاعدت سـائق «الليموزين» على وضع أمتعتها في صندوق سـيارته، ثم اكتفت بطبع قبلة سـريعة فـوق جبهة هدير، قبل أن تدخل السـيارة وتغلق بابهـا تاركةً ابنتها على الرصيف في انتظار مرور تاكسي يوافق على توصيلها من آخر شارع الهرم إلى حي المنيل في وقت الذروة هذا.

رغمًا عنها تشـبثت عيناها بـ»الليموزين» وهـي تبتعد، وخُيل إليها أنها لمحت أمها تسـتدير ناظرةً إليها عبر الزجاج الخلفي، وتمرّر كفها الأيسر أسفل عينيها كأنما تمسح دموعًا.

استغرق التاكسي ما يقرب من الساعة، كي يقلّ هدير إلى بيت جدتها. كادت تختنـق بداخلـه، كأن زحام الشـوارع يطبق علـى صدرها، وها هي تخطئ العنوان فيتضاعف إحساسها بالاختناق.

وصلت أخيرًا إلى البناية العتيقة ذات الزخارف والتماثيل البارزة على واجهتهـا، جـرّت حقيبتها نحـو المصعد القديـم من الحديد المشـغول، والمكسو من الداخل بالخشب، تساءلت في سرها عن الطابق الذي تقيم فيه جدتها، قبل أن تتذكر أنه الطابق الخامس وتضغط زرّ المصعد.

فتحــت بــاب المصعد، فأحدث جلبـة أزعجتها، خرجـت منه، وقفت أمام باب الشـقة تلتقط أنفاسـها، قرأت بصوت مسـموع الاسم المكتوب فوق لوحة نحاسية بيضاوية الشكل: «شيرويت قنديل». ردَّدته مرة أخرى مُنغّمًا، وهي تهز رأسها وترفع حاجبيها، ثم ضغطت على الجرس.

فتحــت شـيرويت الباب. دقّقـت النظر في الشـابة الواقفـة أمامها، ثم قالت بصوتها العميق:

-هدير! أهلًا حبيبتي.

وانتحت جانبًا مفسحةً لحفيدتها مساحة للدخول.

«هديـر! أهـلًا حبيبتـي.» هكـذا، دونما قبـلات أو أحضان أو مشـاعر مبالـغ فيها، كأنها ترى هدير هذه كل يوم. وكان هذا مناسـبًا تمامًا للشـابة المتحفّـزة. تركـت حقيبة الملابـس في الردهـة بجوار البـاب، واتجهت خلف شـيرويت إلى الصالون. جلست تسـتريح، وتتأمل جدتها بفستانها الكتان الرمادي القصير، وجسدها الممتلئ، ووجهها المأخوذ، كأن هناك من فاجأها على غفلة منها بشيء يدعو للتوتر والذهول.

دونما كلمات فكّرت كل واحدة كيف سـتتعامل مع نظيرتها طيلة عام كامـل. نظرة هدير شـابتها لمحة سـخرية هازئة، وهي تفكـر في الموازي الكاريكاتوري لشـخصية جدتها، أما الأخيـرة فتأملت حفيدتها كما تتأمل موضوعًا للفرجة.

بمجـرد دخولها الشـقة، عـادت هدير عـدة عقود إلى الخلف. الشـقة بسقفها بالغ العلو، ونوافذها المرتفعة، وأثاثها القديم، ساهمت في تعزيز هذا الشـعور، إلا أن الدافع الرئيسـي له، كان شـيرويت نفسـها: ملابسـها المنتميـة إلـى عقد الخمسـينات مـن القرن الماضـي، أو السـتينات على أفضل تقدير، العدسـات السميكة لنظارتها، شـعرها القصير فضي اللون، وكلماتهـا التـي تبدو كأنما خرجت لتوّها من فيلـم قديم من زمن الأبيض والأسود.

«صبـاح الخيـر يـا نينـا. نهارك سـعيد. تشـرفنا يـا إكسـلانس، ممنون لسعادتك.........»! كلمات بدت منطقية جدًا إذا نطقت بها شيرويت.

سألت هدير عن الغرفة المخصصة لها كي تستريح قليلًا.

-»تاني باب يمين»!

عـادت إلـى الحقيبـة التي تركتهـا في المدخـل وسـحبتها متجهة إلى حجـرة والدهـا قبل زواجه مـن أمها، في الداخل سـيطر عليهـا الارتباك،

fb/mashro3pdf

المـكان واسـع ومرتّـب، لكنـه لا يشـبهها. سـرير كبيـر، دولاب بمرايـا مصقولـة، ومكتب فوقه «أباجورة» على هيئـة تمثال لفينوس بلا ذراعين. علـى الجدران صـور لفرح فاوسـت، بروك شـيلدز في طفولتهـا، راكيل وولش ونجلاء فتحي.

«مين اللي ممكن يعلق صور زي دي دلوقت»!

أحبـت فكـرة أن تعيش، بشـكل ما، في ماضـي أبيها، في مكان شـهد فتـرة لـم تعاصره فيها، كمـال، الطفل فالمراهق فالشـاب. بدأت في رص ملابسها وأشيائها في الدولاب الفارغ، وكتبها الدراسية فوق المكتب.

لكنها حين انتهت تأملت الصـور المعلقة من جديد وقررت التخلص منها، وتغيير كثير من التفاصيل كي يتلاءم المكان مع ذوقها وعصرها.

Sorry dad! I have to destroy your intimate old world.

ارتمت فوق السرير، وأغمضت عينيها طلبًا لبعض الراحة.

لم يبدر أي صوت من جدتها بالخارج، كان الصمت هو اللغة الوحيدة السائدة. استيقظت بعد ساعة ونصف الساعة. اغتسلت، ارتدت ملابسها، وخرجت.

تناولـت غداءها فـي «هارديز»، واشـترت شـموعًا بروائح الياسـمين وخشـب الصنـدل والليمـون، وبوسـترات لجاسـتين تيمبـرلاك وآيمـي واينهاوس.

في فراشها وهي تتهيأ للنوم، بكت كما لم تفعل من قبل. في هذا الوقت تكون حساسَّـة أكثر من المعتاد. شـعرت أنها مهجـورة من الآن فصاعدًا: والدهـا فـي دبي مـع زوجته الثانيـة وطفليه منهـا، وأمها فـي «تورنتو» مع زوجها الجديد.

كان الأرق رفيقهـا حتى الفجر، ومع هذا لـم تغادر الفراش. غفت في

الرابعـة صباحًا واسـتيقظت في التاسـعة، وفـي بالهـا أن تعاملهما بالمثل وتسـتثمر الحريـة التـي يتيحهـا لهـا وضعهـا الحالي فـي تحقيـق حلمها المؤجل بالسفر وحدها.

ظلت في السرير لبعض الوقت، ثم مدت يدها والتقطت طلاء الأظافر الـ«فوشيا» الذي وضعته بالأمس على الكومود، وجلست تطلي أظافرها، وهي تتراقص على أنغام موسيقى وهمية. تفحصت أدوات زينتها وقارورة عطر «مس ديور» أهدتها لها أمها قبل أسـبوع، ثم نظرت لنفسـها في مرآة الدولاب، وقررت أن تغيّر قصة شعرها في أقرب فرصة.

لم ترغب في الذهاب إلى الجامعة، ولا الخروج لمقابلة أصدقائها في مقهـى «البورصة»، لأنها صارت تتجنب النقاشـات السياسـية المتواصلة وموجات الإحباط الجماعي بعد هنيهة من النشوة العارمة. فتحت الشباك فوصلتهـا أصـوات الخارج وهواؤه البارد. عادت إلى المكتب وسـحبت ألبوم صور من بين كتبها الدراسية، وراحت تتفرج على ما فيه من «كروت بوستال» جمعتها بنفسها لمدن عديدة حول العالم. تصفّحت سريعًا مناظر رائعة من سويسرا، الصين، كوريا وأستراليا، وتوقفت أمام مجموعة صور ستوكهولم التي تشغل نصف الألبوم تقريبًا. دققت النظر فيها، فشعرت - كما كل مرة - كأنها تخطو في تلك المدينة الإسكندنافية المثيرة لخيالها. عرفـت بها لأول مـرة، وهي في العاشـرة من عمرها عبر إحـدى روايات «رجل المستحيل». فتنتها من دون أن تراها، وراحت من يومها تجمع كل ما يخصّها من صور ومعلومات.

أغلقـت الألبوم، وأخرجت سـيجارة حشـيش مخبّأة فـي حقيبة يدها، أشـعلتها ووقفـت تدخنها أمـام الشـباك المفتوح وهـي تنظر شـاردة إلى مدرعة جيش تصفع عينيها كلما أبصرتها. رشّـت رشـتين من «مِس ديور»

فـي فضاء الغرفـة للتمويه على رائحة الدخان، سـرح ذهنهـا في خيالات تذكّرهـا بـكل لحظات الصفـو الممكنة، وقررت قضاء يومها في الكسـل على أن تخرج مبكرة في اليوم التالي لتنفيذ ما اعتزمته.

***

أطلّت شـيرويت من النافذة. مدت يدها للتأكد من درجة برودة الجو، وعادت برأسـها مـن جديد للداخل. بـدا الميدان أهدأ مـن المعتاد. بائعة الجرائـد علـى الناصيـة المواجهـة انكمشـت على نفسـها بجوار كشـك السـجائر، وغطت جسـدها بشـال صوفي أسـود أخفت فيه يدها اليمنى، فيمـا أخذت تكوِّر كفها اليسـرى وتنفـخ فيها لتدفئها، بينمـا تعلَّق بصرها بالمدرعة العسكرية الواقفة على مقربة.

راقبتها شـيرويت، فانتقلت البـرودة إليها. أغلقت النافذة بهدوء، وهي تداري حنقها لأنها سـوف تُحرَم من جلستها الصباحية في الشرفة المطلة علـى زاويـة أخرى من الميدان بسـبب البرد الشـديد. صبَّرت نفسـها بأن الشمس سـوف تشرق لا ريب قبل انتصاف النهار، وساعتها ستعد فنجان القهوة الأثير لديها، وتتابع من الشرفة حركة الناس في الميدان، والشوارع القريبة، المفضية منه وإليه.

خرجت هدير في وقت مبكر. أفاقت شـيرويت من نومها على صوت اصطفاق باب الشـقة. قاومت كسـلها وألم مفاصلها، ونظرت في الساعة على «الكومـود» المجاور. فوجدت أنها السـابعة ونصف. حاولت النوم مجددًا دون جدوى، ظلت راقدة في فراشـها لمدة ساعة ونصف الساعة، قبل أن تغادره في التاسـعة. حين فوجئت بهـذا الطقس البارد غير المعتاد فـي أبريل، وتذكـرت أن لا محاضرات في الجامعة اليـوم، ولا تظاهرات معلن عنها مسـبقًا، تعجبت أكثـر من الخروج المبكر لحفيدتها. شـعرت

ببعض الندم لأنها وافقت على تحمل مسؤوليتها إلى أن تنتقل للإقامة مع أمها في كندا.

تحركت ببطء نحو المطبخ، أعدّت لنفسها شايًا بالحليب، رصّت بعض قطع البسكويت في طبق وضعته على صينية، واتجهت إلى غرفة المعيشة حيث جلست تقضم قطعة بسكويت، ثم تتبعها برشفة من الكوب، وهي تقرأ الجرائد باهتمام مبالغ فيه. سهت قليلًا عن إفطارها، أمسكت قلمها «الفلوماستر» الأخضر، وبدأت تضع خطوطًا تحت العناوين التي تلفت نظرها، أو ترسم دوائر حول الأخبار الصغيرة المهمة. أجّلت تدوين ملاحظاتها حول ما تقرؤه في جرائد الصباح حتى يصحو الطقس.

من سنوات طويلة لا تثير صفحات السياسة في نفسها إلاّ الامتعاض. تقرأ بنهم، وتحاول، عبثًا، ربط الأحداث والتفاصيل ببعضها بعضًا علّها تفهم الآلية التي تسير بها الأمور. تقرأ لغة فاسدة وكلمات تخون معناها.

تحاول ردَّ الكلمات إلى معانيها الأصلية، والحدث إلى سببه الحقيقي، تقارن ما نُشر عنه في الجرائد القومية بالمنشور في الجرائد المستقلة والمعارضة فتميد الأرض بها، من فرط التناقض.

من الشارع جاءها ضجيج عربة داس السائق مكابحها فجأة فتوقفت بصخب، أصاخت السمع لتتبين هل صدمت العربة أحدهم أم لا، وحين لم تصلها ضجة تالية للأولى، عادت لجريدتها. وصلت إلى صفحة الوفيات، أجالت بصرها بحثًا عن اسم تعرفه، منذ مدة باتت تُفاجَأ بصور لرفاق قدامى تزيِّن هذه الصفحة من آن لآخر.

ما هي إلاّ لحظات حتى رأت صورة «سمية رفعت»؛ النسخة المُسنّة من «سمية» أو الرفيقة كريمة، بكامل رزانتها، تبتسم ابتسامتها الحذرة، برفقة سطور قليلة: حرم الدكتور شاكر عبد السلام وأم المهندس أسامة

شـاكر. حياة ثريـة اختُزِلت فـي تعريف لا يليـق بصاحبتـه، الرفيقة الأكثر راديكاليـة. أخذت بيد شـيرويت وغيرهـا كثيرين وكثيرات. كانت شـعلة من نشـاط وحيوية، قبل اختفائها عن الأنظـار إثر خروجها من اعتقال دام سنوات.

عدلت نظارتها بسـبابتها اليمنى في حركـة لا إرادية وهي تدقق النظر، ثـم رفعـت عينيها نحو سـاعة الحائـط فوجدتها العاشـرة ونصف. طوت الجريـدة ونحّتهـا جانبًـا. تحركـت ببـطء في الصالـة وقد شـعرت بخدر يسـيطر على ساقها اليمنى. منذ سنة تقريبًا تحس أنها تنفصل عنها وتتمرد عليهـا. تخطو فتتأكد أنها لم تعد تتحكم بهذه السـاق العاقة، التي تخذلها وتستسـلم للارتعـاش المفاجئ. تؤلمهـا الركبة اليمنى تحديدًا؛ شـاخت أكثر من باقي الجسد، كأنها أُم لهذا الجسد لا جزء منه.

تعـرف أنهـا تجـاوزت عتبة الشـباب قبـل عقود، لكـن مـا يؤرقها هو انعدام الانسـجام بين أعضاء جسدها. أيمكن أن يشيخ جزء أكثر من باقي الأجزاء؟

لطالمـا اعتبـرت أن الزمـن شـيء هلامي يصعـب تحديده أو قياسـه. قضـت عمرها كله في زمن سـائل فضفاض يصعب القبـض عليه. قاتلت طوال حياتها، عبثًا، من أجل تقسيمه، والإحساس بالفواصل بين مراحله.

عاشـت حتـى الأربعين بإحسـاس الصبية التـي كانتهـا، بعدها راحت تمسـك بالزمـن فقط عبر آثاره على وجهها وجسـدها، تجعيـدة هنا، بقعة داكنة هناك، كيلوجرامات زائدة شرعت تغزو جسدها بدايةً من الخمسين، قبـل أن تهـلّ الأمراض على اسـتحياء. تواءمت مع كل هذا لأنها شـعرت بجسـدها كتلة واحدة متناغمة، لكن ما إن بدأت السـاق اليمنى تنشـز عن إيقاع الجسد حتى أصبح لشيخوختها قوام.

التفتت يسارًا فلمحت الجريدة المطوية. استعادت الوجه الهادئ الجاد للرفيقة سمية رفعت، فهاجمتها غصّة مفاجئة.

عندما أشرقت الشمس، وصارت الحركة في الميدان أكثر حيوية، أعدّت قهوة الصباح وخرجت لتشربها في الشرفة، في طريقها تذكرت خروج حفيدتها المبكر، التقطت هاتفها المحمول من فوق الطاولة وتابعت سيرها البطيء.

في الشرفة حاولت الاتصال بهدير، لكن هاتفها كان مغلقًا. ارتشفت القهوة وهي تنظر نحو الميدان. بحثت بعينيها عن المتشرد أخضر العينين، فوجدته جالسًا أسفل شجرة «الأثاب»، متربعًا على الأرض كعادته، وقد أشعل نارًا يتدفأ بها. لافتاته المكتوبة بالإنجليزية والفرنسية موضوعة خلفه بينما يحملق في النار، انتظرت أن يبدأ حركاته الشبيهة بالتمرينات السويدية كدأبه كل صباح، لكنه لم يفعل، شعرت بالأسف لأنها فوّتت على نفسها عرضه منذ بدايته.

بعد برهة قام من مكانه كي يجمع الأوراق وعلب العصير الفارغة، هواء خفيف حرّك ورق شجر متساقط، فألقى الرجل ما جمعه من قمامة على الأرض غاضبًا. ركل الهواء، قبل أن يعاود جلسته المتأملة في النار. حركاته على محدوديتها أضحت تسليتها اليومية.

لا تعرف من أين يجيء ولا كيف وصل إلى هذه الحال؟ خمَّنت أن خلفه حكاية مثيرة، لافتاته بجملها الغريبة، والأغنيات الفرنسية التي يصدح بها حين يروق مزاجه تدل على حياة مختلفة عمّا يعيشه الآن.

ترسل له الطعام بعد الظهر يوميًا مع زوجة البواب، فيقبله مرة ويعيده مرات دون سؤال عن مصدره. إن قبله يغسل يديه أولًا من زجاجة مياه يحملها معه، ثم يبدأ الأكل بأناقة مناقضة لوجهه المترب وملابسه

المهلهلـة وشـعره الأشـعث، يمضغ بهـدوء فيما يرفع رأسـه لأعلى كمن يبحث عن شيء فوق أغصان «الأثابة» التي يستظل بها.

حين تنزل شـيرويت بعد حلول الظلام لا يكون موجودًا، تسـير بتثاقل سنواتها السبعين، وهي تحمل كيسًا مليئًا ببقايا أطعمة توزعها على القطط المتجمعـة أسـفل السـيارات المركونـة. تمـر المـرأة السـبعينية الممتلئة بالشجرة فلا تجد أي أثر يدل على أنه قضى يومه هنا، يكون المكان نظيفًا وخاليًـا من أي آثار أقدام أو مخلَّفات. تدخـل المصعد لاهثة كأنها بذلت مجهـودًا ضخمًا، وتخرج منه إلى شـقتها. تتجه فورًا إلـى غرفتها وتتمدد فوق فراشها طلبًا لبعض الراحة.

قررت أنها لن تنزل لإطعام قطط الشـارع هذا المسـاء. سـاقها اليمنى تؤلمها أكثر من المعتاد مما يعكّر مزاجها، عليها الركون للراحة.

«لكن إزاي أرتاح وأنا مش عارفة هدير راحت فين بدري كده؟».

وضعـت فنجان القهوة فـوق طاولة البامبو، وعادت لمتابعة المتشـرد أخضر العينين.

***

اصطفق الباب بعنف رغمًا عن هدير وهي تغلقه خلفها صباحًا، نظرت في سـاعة يدهـا فوجدتها تقارب السـابعة ونصف، هبطت الـدَرَج بهدوء مصطنع، وهي تراجع في سرها قائمة الأوراق المطلوبة.

بمجرد خروجها من البوابة الحديدية للبناية صفعتها برودة لا تتناسب مع طقس أبريل الربيعي، ضمّت معطفها القصير حول جسـدها بقوة وهي تعبر الميدان شـبه الخالي. كانت هناك أم تصطحب طفلتها إلى المدرسـة القريبة، وأشخاص قليلون يسيرون مسرعين إلى أعمالهم. كشك السجائر لا يزال مغلقًا. الميدان كله يتثاءب تحت وطأة برد مفاجئ.

متجنبـة النظر إلى مدرعة الجيش الرابضة في مقابل الكشـك، أوقفت عربة أجرة لتقلّها إلى ميدان طلعت حرب.

أغاني الصباح انثالت من المذياع، ففرضت على السـائق صمتًا محببًا إلى نفس هدير في هذا الوقت من اليوم. راحت تفكر في احتمالات قبول طلبها للتأشيرة، وكيف ستقنع جدتها بسفرها، وهل عليها إخبارها أم لا؟

والدهـا لـم يأخـذ رأيها في مسـألة سـفره إلى دبـي وإقامته هنـاك منذ سـنوات، كمـا أن رأيهـا لم يكن ليفـرق كثيرًا مع أمها بخصـوص زواجها الثانـي ثم قرارها الهجـرة مع حبيب القلب إلى كنـدا. وبالتالي، هي أيضًا مـن حقها أن تقرر مجريات حياتها بمفردها، خاصة أن شـهورًا قليلة فقط تفصلها عن التخرج من الجامعة.

تذكرت جدتها، فشـعرت بالذنب، إذ ليس من الملائم أن تغادر البلد، كالهاربـة، من دون إخبارها، ثم ارتأت تأجيـل التفكير في هذه النقطة إلى ما بعد حصولها على التأشيرة.

دفعت الأجرة واتجهت نحو مكتب السـياحة لاسـتخراج وثيقة تأمين صحي دولي، وجدت المكتب مغلقًا، فقررت التسـكع في شـوارع وسط البلد حتى يفتح. رسوم الجرافيتي الغاضبة لوّنت الجدران القديمة بشغب صـار سـمة للبلد كله، انتابها إحسـاس بالارتياح وهي تقـاوم حنينًا جارفًا لميدان التحرير والشـوارع المحيطة. قبل أقل من شهرين ونصف الشهر، كان وطنًا بديلًا لها ولملايين غيرها.

خطت في ميدان طلعت حرب باتجاه تقاطعه مع شارع 26 يوليو. الجو لا يزال باردًا والسـماء غائمـة وبعيدة. وصلت إلى مقهى «إكسيلسـيور»، دفعـت بابه الزجاجي، وجلسـت إلى طاولة تطل على أول شـارع عدلي. طلبـت سـاندويتش «سـلامي» وكوبًـا مـن الشـاي بالحليـب. تشـاغلت

بالنظـر إلـى الخارج عبر زجـاج المقهى. المكان مثير للأسـى والشـفقة، يقاتـل للاحتفاظ ببقايا مجده القديم، فيبدو كمليونير مفلس يسـتميت في التمسك بمستوى حياته السابق، لكن ظروفه الحالية تدفعه نحو السقوط.

انطلق صوت «لويس أرمسترونج»، مغنيًا «What a wonderful world» فبان النشـاز بين الأغنية الرائقة وبين تفاصيل المقهى التي يدلّ كل ما فيها على البؤس: الزهور الصناعية في مزهريات بيضاء فقيرة على الطاولات، الكراسـي رديئة الذوق، نباتات الظل الذابلة، الزبائن القليلين وقد تناثروا هنا وهناك.

شـاب بقميـص قطني مقلَّم يحـل الكلمات المتقاطعة بتكاسـل، كهل بنظـارة طبية يتجادل طويـلًا مع زوجته قبل أن يقررا ماذا سـيطلبان، امرأة بشـعر ملموم على هيئة كعكة وبنظارة سـميكة العدسات، وملابس عملية تملأ اسـتمارات رسـمية بلا كلل، زبون بملامح غير مريحة لم يكف عن الحديـث في هاتفه المحمول بصوت مرتفع، وامرأة اقتربت من الأربعين تشكو لزميلتها من امرأة ثالثة تنغِّص عليها عيشها.

علـى الرصيف المقابل فرَش بائع صيني بضاعته من أجهزة المحمول المقلَّـدة، بقميصـه الأزرق الخفيف غير الملائم للطقـس البارد، وحذائه الرياضـي الأبيض، وانتقاله المرتبك مـن الوقوف إلى الجلوس القرفصاء بجـوار بضاعته، بدا ناتئًا عن المشـهد المجاور له غريبًـا عليه. كان يدخن سيجارته متململًا وهو يتفرَّس بعينيه الضيقتين في وجوه المارة من حوله بحثًا عن مشترين محتملين لبضاعته الكاسدة في هذا الوقت المبكر.

تناولت هدير فطورها سـريعًا، ثم نظرت في سـاعتها فوجدتها تقارب التاسـعة. انطلقـت صوب مكتـب السـياحة. اسـتخرجت وثيقـة التأمين الصحي ووضعتهـا مع باقي الأوراق والوثائق فـي الملف، واتجهت إلى السفارة السويدية في شارع محمد مظهر بالزمالك.

هناك، خيَّم هدوء تام، لا ضجيج، ولا مشاحنات بين المارة، لكنه لم يكن سوى مجرد سطح خادع بالنسبة لهدير، باتت تلمس عنفًا مكتومًا في كل شيء حولها: حركة المرور، اللفتات، وحتى الجمادات. ثمة استماتة في التأكيد على هدوء مزيف، لكنها - بدلًا من هذا - تنبئ عن عنف موشك على الفيضان.

أمام سفارة السويد جلس العشرات، فوق كراسٍ صُفت متجاورة فوق الرصيف، منتظرين الحصول على تأشيرة سفر. الجو لا يزال باردًا، والسماء متمسكة بغيومها والجميع نافدو الصبر رغم أنهم في ساعات الصباح.

انشغلت هدير بمحاولة تخيل دوافع كل منهم للسفر: هذا لمهمة عمل، وذاك للهرب، وهذه أملًا في هجرة دائمة.

لوَّن الغثيان نظرتها للعالم بسبب سيماء الاستسلام في النظرات وعلى الوجوه، فكرت لثوانٍ في مغادرة المكان، لكنّ ولعها المهيمن بفكرة السفر أجبرها على المكوث.

هربت من ملل الانتظار إلى أحلام يقظة عن عوالم جديدة ستفتح أبوابها لها، تارة تتخيل نفسها نجمة مشهورة، وتارة أخرى تحلم بأنها في السويد وقد نجحت في مد إقامتها هناك. أفاقت على صوت الموظف ينادي رقمها. في الداخل كان هناك ملصق مبهر لستوكهولم مكتوب عليه «جمال على الماء»، تزايد عزمها على السفر لمعاينة هذا الجمال بنفسها. لكنه حلم سرعان ما تحطم، فعندما عادت بعد أسبوعين لاستلام جواز سفرها وقد زينته التأشيرة، فوجئت برفض طلبها، مع أنها ظنت أن قبول السفارة لملفها يعني ضمنًا الموافقة على منحها «الفيزا».

سارت من محمد مظهر حتى 26 يوليو. وصلت إلى مطلع كوبري «15

مايو» المواجه لفندق «ماريوت»، فصعدت السـلّم لأعلى الكوبري، ومنه نزلت إلى كورنيش ماسـبيرو حيث المعتصميـن أمام مبنى التليفزيون. لم تتأمل النيل كعادتها حين تخطو بموازاته، كانت شـاردة في الفراغ أمامها. اسـتمرت في سيرها حتى وجدت نفسها عند كوبري قصر النيل، احتارت هـل تتجه إلى ميـدان التحرير علّهـا تقابل أحد معارفها هنـاك، أم تواصل تسـكّعها. بعد برهة أعطت ظهرها للميـدان، وعبرت الكوبري إلى الضفة الأخـرى من النهر. تجاوزت دار الأوبـرا، وكوبري الجلاء وأصبحت في شارع التحرير. هناك فقط انتبهت إلى الزحام الشديد.

قـرب نهاية الشـارع كانـت العربات تتـراص خلف بعضهـا بعضًا في انتظـار فتح إشـارة المـرور. الجو خانق، وثمة إحسـاس، يحملـه الهواء، بانفلات الأعصاب. إحسـاس يمكن تلمّسه من عشـوائية حركة الأجساد الكسولة وهستيريا الضغط على كلاكسات السيارات.

لفـت نظرهـا ترقب الباعـة الجوّالين والمـارة الذين تزاحمـوا ناظرين لأعلـى، رفعت رأسـها بدورها فلمحته واقفًـا في نافذة إحـدى البنايات. رجل بشـعر أشـيب مهوّش يحيط بصلعة لامعة فـي مقدمة الرأس، ووجهه المكتنز مرهق، وصوته عالٍ مشـروخ، يصـرخ بكلمات، حوَّلها الضجيج وبُعد المسافة إلى مجرد فحيح.

تمنـت لو تعرف لمن يوجه كل هذه النقمة، غير أن الصوت كان يضيع فـي الهواء المثقل بعوادم، و«كلاكسـات» السـيارات الضجرة من اختناق مروري دائم. كان الرجل كأنما يشتم شيئًا أو شخصًا ما، لكن كمّ الغضب المتسـرب من ملامحه وطريقة أدائه يوحي أنـه يصب لعناته على الوجود بأكمله.

نزلـت عينـا هدير إلـى الجزء الظاهـر من جسـده تاركةً وجهـه، فرأته

مرتديًا فانلة قطنية بحمالات رفيعة، ولا ينقصه إلاّ تاج ملوّن من الورق المقوَّى وصافرة حكم كرة قدم كي يقترب من المجانين كما يظهرون في الأفلام المصرية القديمة. حوّلت صرخاته، المتلاشية في الفراغ، العالم بدوره إلى جنون موازٍ. نسيتْ هدير كل ما يخصها، وفي لعبة تخمينات راحت تتخيل سببًا لهذه الهستيريا: هل فقد أحد أبنائه على يد الأجهزة الأمنية؟ هل تعرض لظلم هائل كملايين غيره وهذه طريقته في الإعلان عنه؟ هل أضرت الأحداث المتلاحقة منذ يناير بمصالحه؟ أم أنه أحد الذين لا يحتملون العيش في ظل وضع غامض؟

تصورته كأب فقد سلطته على أبنائه ممن أخذوا أدوار البطولة تاركين له فقط التحذير المضجر من عواقب الثورة، قبل أن يستسلم هكذا للصراخ في وجه السماء اعتراضًا على اختفاء العالم كما يألفه.

وقفت تراقبه حتى غاب في الداخل، ثم استدارت عائدة. أوقفت «تاكسيًا» أمام سينما «التحرير» وطلبت من السائق التوجه بها إلى المنيل. حين وصلت، قصدت غرفتها على الفور، وأغلقتها عليها، ارتمت في فراشها وقد خلا ذهنها من أي فكرة، ظلت تحدق في السقف ساهمة حتى نامت.

***

طرقة واحدة، تلتها طرقتان، فصمت لبرهة!

طرقة أخرى، تلتها طرقتان، فصمت أطول!

وأخيرًا جاء صوت شيرويت عميقًا مبحوحًا:

-هدير! هديييير!

-.......................

-يللا اصحي. إيه رأيك نفطر برا النهارده؟

أفاقت متململة على صوت جدتها. ليست معتادة على النهوض باكراً صباح الجمعة، لكنها لم تُرِد أن تُغضِب العجوز الواقفة بالخارج، رغبتها في الخروج حدث نادر، لذا رأت أن تشجّعها عليه، رفعت رأسها عن الوسادة قليلًا ودعكت عينيها، ثم قفزت من الفراش بحيوية:

-فكرة جميلة يا شيرو!

عند الساعة العاشرة كانتا تنتظران عربة أجرة في الميدان الذي بدا خاليًا إلاّ من المتشرد المنهمك في هز أغصان الشجرة بعصا رفيعة، تاركًا لافتاته بجملها المبهمة مستندة إلى السور الحديدي القصير للحديقة الصغيرة في منتصف الميدان. تابعته شيرويت بإشفاق في حين ابتسمت هدير بسخرية قبل أن يصل التاكسي ليحملهما بعيدًا.

لا تزال شيرويت تعيش في قاهرتها القديمة، قاهرة الخمسينات والستينات. لا تتحرك إلاّ في المنيل أو وسط البلد أو الزمالك. تأخذ مواعيدها النادرة في جروبي شارع عدلي، إكسلسيور أو في «كافيه ريش» في أفضل الأحوال، وتعود مكفهرّة كأنما اكتشفت مجددًا أن القاهرة كفّت عن أن تكون مدينتها.

لم تتوقع هدير أن تصطحبها جدتها إلى خارج حدود المناطق الثلاث التي تألفها، لذا فوجئت حين سمعتها تقول للسائق: مصر الجديدة لو سمحت! صحيح أن مصر الجديدة حي عريق مثل الأحياء التي تفضلها الجدة، إلاّ أنه بعيد عن المنيل، كما أن شيرويت، مع التقدم في السن، اختزلت حياتها إلى أقل عدد ممكن من الأماكن والأفعال، اختصرتها إلى ما هو جوهري، مخلِّفةً وراءها مجبرةً المرأة الهادرة التي كانتها يومًا.

وصلتا إلى «الأمفتريون»، وجلستا إلى طاولة في مساحة مشمسة. حكت شيرويت لحفيدتها، بينما تتناولان فطورهما، عن علاقتها بالمكان

منذ كانت طفلة تقيم في «هليوبوليس» مع أبويها، وتأتي بصحبتهما إلى المطعم كل جمعة. قالت إن الملك فاروق كان من رواده، واعتاد أن يلعب فيه القمار مع أصدقائه المقربين.

تألّقت عيناها، كعادتها كلما تحدثت عن أسرة محمد علي. تحكي بحماسة فتتساءل هدير: كيف لشيوعية قديمة أن تكون على هذا القدر من الانبهار بالمَلَكية؟

تحت شمس «الأمفتريون»، بدت شيرويت مسترخية وتلقائية أكثر من عادتها. ارتسمت على شفتيها ابتسامة حلوة وهي تلتهم فطورها بشهية، وتتحدث بلا انقطاع، كأنها تركت العجوز التي تقضم البسكويت بفتور، وتحتسي خلفه رشفة شاي بالحليب، هناك في الشرفة المطلة على الميدان، وجاءت هنا متخلصة من أعبائها.

-إيه رأيك نفضل هنا للغدا؟

وافقت هدير بهزة محايدة من رأسها.

-ناوية تعملي إيه بعد التخرج؟ إيه أحلامك وخططك؟

تكره هدير هذا النوع من الأسئلة، تتهرب عادةً من الرد، أو تجيب بوقاحة ساخرة. حارت في كيفية الرد دونما سخرية أو ادعاء، غمغمت بكلمات مفككة قريبة مما تتصور أن جدتها تحب سماعه، وأربكها أن الأخيرة جاوبتها بابتسامة ماكرة.

انتقلتا من موضوع لآخر، ومن حكاية لأخرى. حكت شيرويت مطوَّلًا عن ماضيها: نشأتها في عائلة برجوازية، وخروجها عليها للالتحاق بصفوف اليسار أثناء دراستها الجامعية رغم معارضة والدها، اعتقالها لفترة قصيرة، سفرها إلى فرنسا وحصولها على درجة الماجستير ثم الدكتوراه من هناك، زيجاتها الثلاث الفاشلة، وحياتها كما تعاينها هدير الآن.

أخيرًا وبعد الغداء، وبينما تتشاركان زجاجتي بيرة، سألتها شيرويت بلا مواربة:

-ناوية تسافري السويد امتى؟!

-عرفتِ منين؟ ردّت هدير وهي مغمورة بالخجل.

رأت نفسها لحظتها مخادعة ضئيلة، وبدا العالم أمامها بسوقية لون أصفر فَجّ.

قالت جدتها ببساطة:

-أبدًا. شُفت بالصدفة استمارة طلب الفيزا في درج مكتبك قبل أسبوعين.

-خلاص مش مسافرة، طلب التأشيرة اترفض. صدقيني كنت هأقولك، بس استنيت لمّا آخد الفيزا الأول. وبصراحة خفت تمنعيني.

-إطلاقًا دي حياتك، ولو بابا أو ماما كانوا رفضوا كنت هاقنعهم، بشرط إنك تكوني متأكدة من قرارك ومصممة عليه.

أضافت شيرويت بغموض، أنها ستعوِّض هدير بالسفر إلى مدينة لا مثيل لها. ما إن تنتهي من امتحاناتها الجامعية، سوف تمنحها تذكرة ذهاب وعودة إلى مكان لن تنساه أبدًا، وستحجز لها عشر ليالٍ في فندق رائع هناك.

الباحث عن الليل

فلأكن يدًا حمقاء تخط بلا أمل، يدًا عمياء
.تتخبط في عتمتها

في اللحظة التي نطقت فيها زمردة كلماتها الأولى، كان ثمة، في الطرف الآخر من العالم، رجل بجرم هائل اسمه إيليا على وشك أن يصير شخصًا آخر يُعرَف بالعملاق الأعمى. وكانت هناك مدينة تغرق أكثر في الظِّلال بعد أن ظلت منذ وُجِدت أرضًا لشمس دائمة، لا يزورها الليل ولا يعرفه أهلها. لم يعد في المدينة من الألوان سوى الرمادي وبجواره، على استحياء، الأسود والأبيض.

عندما قالت زمردة لحكيم مملكة الجبل: «سيدي ومعلمي، لم يذهب جهدك سدى، ويومًا ما سوف تتيقن من هذا»، كان في الشوارع الرمادية للمدينة القصيَّة بشر كثيرون يسيرون ببطء ناظرين إلى نقطة ثابتة أمامهم، هدوء ثقيل يخيّم على كل شيء، وإيليا بجرمه الهائل يسير متفكرًا، غير عابئ بالمتلصِّصين عليه، تلصّصهم على كل دخيل. كان يحدس بمجيء عملاق ذي عباءة داكنة وسحنة متجهِّمة وخطى ثقيلة، ثم ساد الهرج وبدأ الناس في العدو هاربين.

شعر أن الأرض تهتز على وقع خطوات ذي العباءة الداكنة. يعرف أنه يظهر في الشوارع على فترات متقاربة، يخطو بقوة متكئا على عصاه

الأبنـوس، تتحرك نظرته العمياء بين الوجوه المقابلة، وحين لا يرى شـيئًا يصـرخ صرخة ملتاعـة ترتجف لها المدينة بأسـرها. غيـر أن العملاق لم يظهـر ولم يصرخ هذه المـرة رغم اهتزاز الأرض والفوضى التي سـادت تحسّبًا لصراخـه المدوّي. ثمة فقـط حالة ترقّب لظهـوره، وزلزلة خفيفة كالتي ترافقه أينما ذهب.

لـم يجرؤ أحد على إخبار إيليا السـائر بشـرود أنه والعملاق شـخص واحد، فالعملاق ليس حدسًا أو خيالًا يعشش في عقله، إنما تجليه الأكثر إظلامًا الذي يحوَّله في لحظات من رجل صموت إلى كائن يرتعد الجميع خوفًـا من غضبته. تحت تأثيـر الهلع، تركوه مواصلًا خطوه البطيء داعين الله ألاّ يُخرِج وجهه المظلم في هذه اللحظة، ومكتفين بمراقبته عن بعد.

خطا محافظًا على تجهّمه وبروده. عدّل من وضع عباءته على جسده، ورفع رأسـه نحو السـماء كمـن فوجئ بقطرات مطر في غيـر موعدها، ثم استكان إلى شروده.

بعد عودته من رحلة بحثه عن الليل، لم يمنعه عماه من إعادة اكتشاف المدينـة، كان يجـوس فـي شـوارعها بـلا توقـف مرهفًا السـمع لأخفت صوت.

بالنسبة له كانت مدينة العالم. منذ دخلها لأول مرة، قبل سنوات – بعد أن كان قـد قضى معظـم عمره في الغابـة المتاخمة لها – انشـغل بالكتابة والتدويـن. رصد كل ما رآه، وكل ما هجس به وتخيله، على رقوق جلدية حفظها بعناية. أراد تخليد مدينته الحلم، وتحنيطها فوق الرقوق كما سمع أن المصرييـن القدماء حنَّطوا موتاهم. طمـح إلى إدخال مدينته التي تبدو كأنها خارج العالم إلى قلبه الأكثر صخبًا.

كتب أنها كانت تُسـمَّى مدينة الشـمس الدائمة. لم تكن شمسها تغيب

طالما بقي أحد سـكانها مسـتيقظًا. كانت تغرب فقط حين ينام آخر واحد منهم، وتشـرق قبل اسـتيقاظ أولهـم، حُرِموا جميعًا من الليـل. لم يعرفوا بوجوده أصلًا.

فـي ماضيها هذا، لـم يكن ثمة عملاق، ولا شـوارع رمادية، ولا بشـر راكضين، إنما نهار دائم، وشـمس متوهجة تكاد لا تغيب. شوارع المدينة بالغـة التشـابه كأنها تكرارات أبدية للشـارع نفسـه، عماراتهـا تبعث على الرهبـة بأقواس بارزة وأبراج مسـتدقة، وزخارف ونقـوش متماثلة لوجوه صارخة بعيون متسعة بفعل الفزع. ميادينها مربعة، وحدائقها أشبه بغابات ممتدة على أطراف المدينة.

هي نفسـها الغابات التي جاء منها منذ وقت طويل قبل أن يعرفه الناس بالعمـلاق ذي العينيـن المطفأتيـن. لكنّه وقتهـا، لم يكن أعمـى، وكانت نظرته محمّلة بالإغواء لا التجهّم. اعتاد التحرك بخفة مبشرًا بشيء خارق الجمـال يُدعى الليل، قـرأ عنه في المخطوطات الكثيـرة التي تملأ كوخه المعـزول فـي الغابة، وحكى لـه الصيادون في البحيـرة المجاورة للكوخ عنه. قالوا إنهم رأوه في مدن أخرى وقت كانوا يجولون على سفن الصيد في البحار البعيدة.

اعتـاد إيليا أن يغمـض عينيه ويتكلم عن الليل كما لو كان رآه. «سـواد عظيـم لا تقوى آلاف المصابيح على تبديـده، فقط تموِّه عليه قليلًا مانحةً إياه مزيدًا من الجمال». يقول وهو يمرر لسـانه على شـفته السفلى متذوِّقًا فكرة الليل.

غـادر مدينة الشـمس بحثًا عـن الليل. سـار آلاف الأميـال، مرت أيام وأسـابيع ثم أعوام. سـأل كل من التقاهم عنه، وصفه لهم بكلمات مبتورة ومرتبكة، ولم يحصل على جوابٍ شافٍ.

مـع مـرور الوقت بـدأ ييـأس، لكنـه بمكابرة، واصل المسـير. مشـى مسـافات لا يعلـم مداهـا، يأكل ممـا يجده فـي طريقه، ويشـرب من مياه الينابيع، حتى وجد نفسه في طريق العودة إلى مدينته.

عرفهـا مـن الأبـراج المسـتدقة الشـاهقة، والقبـاب الكريسـتالية التي تنعكس عليها أشعة الشمس فتخلق أضواءً باهرة. لم يقدر على إبعاد عينيه عـن البريق المخيف المنعكـس على تلك القباب، حتى بدأ يشـعر بالنور ينسحب منهما. كلما توغل في المسير مقتربًا، كلما خفت البريق وضعف بصـره. لم يدرك في البداية كنه ما يواجهه، ظن أن العالم من حوله تخفت إضاءته، وتتلاشـى على مهل. عندما غرق فـي الظلام أدرك أنه وصل إلى مبتغـاه. التقى الليل وجهًا لوجه. فرح لأنه سـوف يصطحب ليله الخاص عائدًا به إلى مدينة الشمس.

المسافة المتبقية، كانت على قِصرها، الأكثر صعوبة في رحلته الطويلة. تخبّـط في خطواته، دار حول أسـوار المدينة أكثر من مرة، قبل أن يدخلها فـي النهاية ليُفاجأ به أهلها وقد أصبح هذا العملاق المتجهّم ذا الخطوات الثقيلة، وليكتشـفوا أن مدينتهم مع عودته أضحت أخرى مترددة بين نهار غادر بلا رجعة وليل يأبى الوصول.

اعتكف إيليا بنظرته التي أصبحت مطفأة في كوخه بالغابة لفترة، اعتاد الإنصات لحفيف الأشجار وزقزقة العصافير وصخب الرياح حين تهب، وعندما يمل من وحدته وصمته، يخرج إلى الشوارع بخطواته الثقيلة التي تهز الأرض تحتها. متوكئًـا على عصاه الأبنوس، محتميًا بتجهمه وعماه، ومسلحًا بخبرته في الإنصات للّا شيء.

عششـت المدينة فـي عقله أكثر من ذي قبـل. كان يعيش طوال الوقت بمخيلته مع شـوارعها المتماثلـة، وميادينها المربعـة، والزخارف الدقيقة

لوجـوه صارخـة على واجهـات مبانيها. يحلـم بها كما عرفهـا قبل عماه، ويفيق ليجد نفسـه كأنما يسـير في دروبها مبصرًا. يصحـو فجرًا مثقلًا بما رأى، وتتحرك أقدام عملاقة في رأسه. تعاوده رؤية نظرته وهي تتحول من التجهّم إلى الإغواء كسابق عهدها، تبدو هذه النظرة الوهمية العابرة كأنما تدعوه للعودة إلى ما كان عليه، للقبض على ماضيه وتثبيته عبر الذاكرة.

علـى الرغم من إظلام عينيه، واصل الكتابة محاولًا - عبثًا - اسـتعادة خطه المنمَّق وحروفه المرسومة بإتقان، بينما يفكر كم تغير ولـم يعد يشبه ذلك الشخص الذي كانه.

بـدت له المدينـة كمكان مارس عليه سـحرًا وثنيًا غامضًـا، يدفعه إلى الكتابة بلا توقف، كتابة دونما مشـاعر وبـلا غرض. ظل يكتب بتفانٍ نادر عن المدينة التي حولته في البداية إلى مجرد عين تلتقط التفاصيل أمامها، ويـد تـدوِّن ما يراه بـلا كلل، قبل أن تسـحب نـور عينيه، وتتركه شـخصًا عاجزًا عن رؤية ما تخطه يداه، منغمسًا في كتابة كل ما رآه في السابق، وما يتخيل أنه «يراه» الآن.

حيـن تعـوزه التفاصيل الواقعية يروح يكتب عـن مدينة مختَرَعة واقعة بين جبال مكسوة بنباتات وأشـجار زاهية الخضرة، وبحر هائج باستمرار يغلِّـف الجـو برائحة اليود، وتلفـظ أمواجه طبقات كثيفة مـن الملح على الشاطئ كل صباح.

بيوتهـا مبنيـة بكاملهـا علـى جرف مخيـف يمتد بيـن الجبـال والبحر الهائج، كأنها في وضع سـقوط أبدي. وسـكانها يقاومون الجاذبية طوال الوقت، يسـيرون ببطء صعـودًا أو هبوطًا محاذرين الوقـوع من هذا العلو إلى جوف البحر الذي تتلاطم أمواجه بأصوات مجلجلة.

تناسـى كل شـيء آخر، وانشغل فقط بتسـويد رقوق كدَّسها في أرجاء

كوخـه. كان يكتب متجاهلًا وجع أصابعـه، وألم عموده الفقري من طول الانكفـاء، خالطًـا بيـن مدينتـه والمدينة المحصـورة بين الجبـال والبحر الهائـج، بين الميادين المربعة والعمارة المقبضـة بالوجوه الصارخة فوق مبانيها، وبين الجرف الخطر والبيوت المقاومة سـقوطًا أبديًا، بين البشـر الخائفين من العملاق ذي النظرة العمياء في الشـوارع الشـاحبة، وبين من يتخيلهم بسيرهم الحذر صعودًا وهبوطًا على حواف الجرف.

حيـن لا يعود قادرًا على الكتابة من فرط الإنهاك، يلقي بجسـده كيفما اتفق فوق أرضية الكوخ حتى يغرق في غياهب النوم، يسـتيقظ على أدنى جلبـة تحدث فـي الغابة، يمد يديـه مفزوعًا بحثًا عن رقوقـه، يطمئن حين يلمسها، يتحسسها بنهم كأن أصابعه قادرة على القراءة بدلًا من عينيه.

يخرج من كوخه المحاط بنباتات وأشـجار كثيفة متشابكة مستندًا إلى عكّازه، ليُفَاجأ بـمدينته تصطخب في رأسـه. يطبق جفنيه مستسلمًا لظلام مضاعف، فينفتح أمام عينيّ خياله مشـهد عامر ببشر كثيرين يسيرون ببطء ناظرين إلى نقطة ثابتة أمامهم، و«يرى» نفسـه يسـير متفكرًا، ويسمع وقعًا صاخبًا لخطوات ثقيلة كأنما تصدر عنه.

***

لـم يمـلّ إيليا ليلـه الخاص، لكنـه كان يشـتاق من وقت لآخـر لرؤية مـا حولـه مـن تفاصيل يرغب فـي تدوينها، عـاش وهو يخشـى أن تذوي مخيلته، فلا تعود قادرة على مده ببديل مناسب لما يعجز عن رؤيته. رجع للحديث مع الصيادين، الذين دلوه بدورهم على البحارة في ميناء قريب. هـذه المـرة لم يكن يبحث عن الليل، بل أراد اسـتعادة بصره الذي خطفته أشعة الشمس المنعكسة على القباب الكريستالية.

هلـع البحـارة من مظهره القاتم وتجهمه وجرمـه العملاق، غير أنه بدا

لهم مسكينًا بائسًا عندما بدأ في البوْح بمشكلته، بحلمه شبه المستحيل باستعادة قدرته على الإبصار. أخبروه أنهم، في رحلاتهم القادمة، سيبحثون عن إجابة لطلبه. ودّعهم على أمل أن يعودوا بما فيه شفاؤه.

بعد ثلاث سنوات جاءه بحّار عجوز بالمعلومات المطلوبة. طرق باب كوخه لاهثًا، وقبل التحية أخبره أنه استشار حكماء المدن التي توقفت فيها سفينته، معظمهم ردّ بأن لا شيء قادر على هذا الفعل المعجِز، غير أن ثلاثة أجمعوا من دون سابق معرفة بينهم على أن العلاج موجود في جبل المغناطيس.

شرح لإيليا المندهش أن ثمة أحجارًا فضية نادرة بين صخور المغناطيس، إذا حدّق فيها المبصرون تسحرهم حتى يلتصقوا بها ويفقدوا عقلهم منطلقين في ضحك لا يتوقف سوى بموتهم. أما لو حملق فيها العميان لمدة فسوف يستردون بصرهم ويتحصنون ضد سحرها الأسود.

حكى له البحّار العجوز عن أثر جبل المغناطيس على السفن. عن جذبه لحديدها مما يحطمها ثم يغرقها. كاد إيليا يرتطم بقاع اليأس، إلاّ أن الرجل حدّثه عن سفن مصنوعة بكاملها من الخشب، لا أثر فيها للمسامير الحديدية أو لأي معدن آخر. قال: وحدها هذه السفن تتحايل على قوة جذب الجبل.

صمت إيليا لبرهة بعد أن انتهى الرجل من كلامه، قطّب جبينه واسترجع ترحاله السابق بحثًا عن الليل، انقبض قلبه تحسبًا لصعوبات الطريق، ومع هذا اتخذ قرارًا بالمغادرة مرتاحًا إلى صحبة البحار العجوز الذي أقلّه إلى واحد من موانئ السفن الخالية من الحديد، والمارة في طريقها بالجبل المرهوب. استقل إحداها، وبعد شهور من الإبحار وصل إلى وجهته المرغوبة. كي يطمئن قلبه، أخرج إيليا من طيات ثيابه خاتمًا

حديديًا صغيـرًا، وضعه في كفه المفتوحة فطار نحو الجبل، لحظتها تيقن أنه على أعتاب حلمه.

اقتربت السـفينة من جسـم الجبل لأقصى درجة ممكنة، وساعده أحد بحارتها على النزول، ثم سحبه من يده نحو الدَرَج المنحوت في الصخر، تركه البحار شبه واثق من أن رجلًا ضريرًا سوف يهلك بلا ريب في وحشة المكان المخيف، ثم قفز إلى المركب الذي انطلق مبتعدًا.

كان إيليـا قـد جمع، مـن البحـارة، كل الحكايـات المتاحـة عن جبل المغناطيـس، بعضهـا يتناقـض مع البعـض الآخـر، وكثير منهـا غير قابل للتصديـق. لكـن بالنسـبة له لا شـيء عصيٌ علـى التصديـق. حدثوه عن الجبل والدَرَج الصاعد إلى قمته، عن آلاف المسامير والحدائد الملتصقة بهيكله الضخم، عن كهوفه المخيفة المتوارية عن الأعين، ونباتاته القاسية كأنما قُدَّت من صخر. ما كان يشـغله، وهو يلتمس الصعود ببطء محاذرًا السـقوط، هو كيف سـيتعرف علـى الحجر الفضـي. لم ينشـغل بالهلاك المحتمـل، ولا بوحـوش الجبل وجوارحـه، ارتحاله السـابق في مطاردة الليل دَرَّبه على التصالح مع الخطر.

بدا له الدَرَج، بينما يصعده، كشـعرة تفصل الجنة عن الجحيم، وصله ضجيج الأمواج صاخبًا، فمال إلى الأمام حتى لمس بيديه الدرجات التي كان يقف عليها منتصبًا قبل قليل، اعتمد على أطرافه الأربعة في الصعود، بينما يقبض بيده اليمنى على عكازه ساحبًا إياه خلفه.

بـدا كحيـوان قاتـم اللون، يجلـس لفترة طلبًـا للراحة قبـل أن يواصل صعوده. انتهى الدَرَج إلى مساحة أرحب، مد يده للتأكد من اتساع الأرضية أمامه، وزحف بعيدًا عن الحافة. اطمأن لوصوله إلى القمة، أرهف السمع فأتته أصوات متداخلة بعضها خافت والآخر مرتفع. عماه الطويل شـحذ

حاسـة السـمع لديه، صارت أذناه عينيـن بديلتين. كان قـادرًا على التقاط أدنى احتكاك للنسـيم بأوراق الأشجار القريبة من كوخه في الغابة، تؤرقه أبسط الأصوات وتوقظه من نومه مهما بلغ عمقه. فوق جبل المغناطيس، كانـت الأصوات المحيطة غير مألوفة لأذنيه. فكر أنه سـيحتاج إلى بعض الوقـت لترويضهـا والتآلف معها، عليـه أن يفعل هـذا إذا أراد النجاح في مسـعاه، لكـن لا بد أولًا من التعرف عبر حواسـه المتبقيـة على كل بوصة من مسرحه الجديد.

اعتاد السـير بوجل متوكئًا على عكازه، متلمِّسًـا الطريق. مع أن معظم البحارة أكدوا له أن الجبل شبه أجرد، ترقَّب أن تلتقط أذناه حفيف أشجار محتملـة، خطا بين الشـعاب حتـى حمل له الهـواء الحفيـف المرغوب. اقتفى أثره إلى أن وجد نفسه بين أشجار يهز النسيم أوراقها.

مد يديه يتفحص الأغصان بحثًا عن ثمار. عند الشجرة السابعة قبضت كفـه اليمنى على ثمرة مسـتديرة، بـدون تردد بدأ في التهامهـا، لم يهتم إن كانـت صالحة لـلأكل أم لا، كان جوعه موجعًا، كمـا أن المقامرة صارت الصفـة الغالبـة عليه منذ ارتحل مطـاردًا الليل. إما أن ينجح في مسـعاه أو يهلك دونه. ما كان يملك أبدًا رفاهية تعدد الخيارات.

أكل حتى الشّبع ثم استسلم لنوم ثقيل استمر لساعات. حين أفاق كان لا يزال شـبعانًا، سـمع خرير ماء على مقربة فزحف نحوه. تحسّـس بيديه بدايات جدول ينسـاب ماؤه نحو الأسـفل، غرف منه بكفيه وشـرب حتى ارتوى.

قرر الاستقرار في هذه البقعة من الجبل، مطمئناً إلى غذائه. كان يرهف السـمع ليل نهار، يشـرب من الجدول الجاري، ويأكل من ثمار الأشجار حتى يتخم.

صار الصوت الأكثر قربًا لقلبه هو صوت تحطم سفينة ما أثناء مرورها بجبـل المغناطيس، ينصـت لصراخ ركابها وعويـل بحارتها ووقع ارتطام حديدها بهيكل الجبل، وينتظر صعود الناجين القلائل إلى قمته. سيحظى برفقـة ولـو من بعيد. يتوارى عنهم بين الأشـجار. يصيخ السـمع ويتخيل مـا يفعلونه مما يترامى إليه من أصوات متباعدة. يشـحذ حواسـه بالكامل حيـن ينطلـق ضحك مجنـون، يدرك حينهـا أن ضحية جديـدة وقعت في براثن مغناطيس الأجسـاد فضي اللون. يصبر مكرهًا للتأكد من أن الحجر الفضـي قد أسـر الناجين مـن الغرق، وحين لا يعود الفضاء يحمل سـوى هذا الضحك الشـرس المخيف الذي صـار مألوفًا له، يتجه من فوره نحو الضاحكيـن بـلا انقطاع رغمًا عنهـم، يقترب منهم وقد فقدوا كل سـيطرة على أنفسـهم، يلمس الحجر المُمغنط لهم، يحاول جذبه نحوه بلا فائدة. يكـون الحجر ملتصقاً بحيـث لا يمكن فصله عن ضحيتـه. يتفحصه إيليا بأصابعـه، وينطلق متلمسًـا صخور الجبل وأحجاره، علّه يسـتطيع التمييز عبر حاسـة اللمس بين الأحجار السـوداء، والأحجـار الفضية الموصوفة لشفائه، غير أنه يفشل.

يحمل أحجارًا مشابهة في ملمسها للأحجار جالبة الضحك والجنون، يرفعهـا أمام عينيه المطفأتيـن فلا يحدث الأثر المرجو. بـدلًا من الركون لليأس، يقنع نفسـه بأنه أمسـك بالحجر الخطأ، ويواصل محاولاته كأنما يتدرب على صبر لا حدود له.

لا يعلـم كـم مـرّ عليه مـن الوقت منتظـرًا، فقد شـغفه بالتدويـن، كان يتحسـس الرقـوق، التـي حملهـا معه فـي رحلتـه مربوطة حـول خصره، مـن دون أن يجد في نفسـه الولـع القديـم بالإضافة إليها. بدأت الأشـياء تخفـت فـي ذاكرته وتبهـت، يحاول اسـتعادة ما تشـير إليه كلمـات مثل،

القمر، الشـمس، الغابة، فتتملكـه الحيرة. وحده الليل حافظ على ألقه في وجدانـه، إذ لـم يفارقه منذ التقـاه على أبواب مدينته حيـن أعمته الإضاءة الباهرة المنعكسة على القباب الكريستالية.

في يوم لا يختلف عن أيام عديدة سـبقته، سـمع صوت تحطم سـفينة أخـرى، أنصـت إلى العويل والصـراخ المعتادين، ووقْـع ارتطام المعادن بالجبـل. انتظر كعادته صعود الناجين مـن ركابها بلا أمل في أن يبدِّل هذا من مصيره.

لم يصل إلى قمة الجبل سوى اثنين، عرف إيليا هذا لأن أذنيه لم تميزا إلا صوتين مختلفين فقط. احتمى بملجئه بين الأشـجار، أكل من ثمارها ونـام، وحين اسـتيقظ اسـتقبله صـوت الضحـك المجنون تُـردد جنبات الجبل صداه، فيبدو كالصادر عن جوقة كاملة.

تسـحَّب بهـدوء متوجهًا نحو مصـدر الصوت، فاكتشـف أن الضحك نابع من شخص واحد. قبض بكفه على الحجر الفضي، وحاول زحزحته مـن مسـتقره، تحسسـه كعادتـه، لكنـه فوجـئ بالضحيـة الجديـدة، رغم التصاقهـا بالحجر، تطـوِّح يديها بعنف مما أوقعه علـى الأرض. لم يقدر على النهوض سـريعًا. كاد المجذوب إلى الدائرة المغناطيسية للحجر أن يقضي عليه. أخذ يدوسه بعنف مستمرًا في الضحك حتى توقف قلبه عن النبض ومات واقفًا ملتصقًا بمغناطيس الأجساد.

خلَّص إيليا نفسـه بصعوبة، وبحث عن عكازه. قام مستندًا إليه، واتجه صوب الأشـجار المتشـابكة الأغصان، وقد نسـيَ أنه استمع بالأمس إلى صـوت رجلين لا واحـد. جلس يلتقط أنفاسـه، ثم زحف إلـى الجدول، ونهـل منه حتى ارتوى. تمدد على حافته، وراح في النوم. صحا بعد قليل على حركة مريبة بين الأشـجار، انتفض جالسًا، وتناهى إليه وقع خطوات

مترددة تقترب منه. ثم سمع من يقول:

-لا تخف، لن أؤذيك. تحطمت سفينتنا، وصعدت مع ربانها للاحتماء بالجبل. سبقني إلى القمة وحين أدركته وجدت عينيه معلقتين بالحجر الفضي، قبل أن ينجذب كامل جسده نحوه. اختبأتُ خلف صخرة ضخمة أراقبه محاذرًا التحديق في الحجر في آن، ثم رأيتك تقترب منه قبل أن تسقط ويدوسك بقدميه.

-من أين أتيت؟ وإلى أين تتجه؟

-جئت من مدينة بعيدة، وأبتغي الوصول إلى جبل قاف المقدود من زمرد!

-جبل من الزمرد؟ لم أسمع به من قبل. جيد أنك تحاشيت حجر الجنون وإلاّ لواجهت مصير زميلك نفسه.

-ماذا تفعل في هذا المكان الموحش؟

-لم أسع مثلك إلى جبل من زمرد، قطعت آلاف الأميال بحثًا عن الحجر الذي عليك أن تتحاشاه.

حكى إيليا للناجي حكايته كاملة، وشرح له أن عودة بصره مرهونة بتحديق عينيه المطفأتين في حجر الجنون، لكنّ المشكلة تكمن في أن عماه يمنعه من تمييزه عن سواه. داهمه فضول مفاجئ، فسأل الناجي أن يقص عليه قصته. سرحت عينا الأخير في الأفق وبدأ في الحكي:

وُلِدت لأجد نفسي في رعاية جدة عجوز، لا أعرف لي أبًا ولا أمًا. الجيران ينظرون إليّ بشفقة، والأطفال يتعاملون معي بحذر، والهمسات تسيِّجني أينما ذهبت. كانت تصلني في صغري، كهمهمة سرعان ما اتضحت لتكشف عن سهام مصوَّبة نحو أمي الجميلة التي ماتت وهي تلدني، من دون أن تخبر أحدًا بهوية أبي. بعضهم قال إنها لم تكن تعرف

مـن هـو، حين وقع بصرها عليه في سـوق المدينة وأغرمـت به بمجرد أن رأته. غريبًا كان. وصل للتجارة، لم يمكث سوى أسابيع قليلة، وغادر مع وعد لم يتحقق بالعودة.

آخـرون ذكـروا أن أمي حملت بي من أحد ملـوك الجن، وأنها لم تكن تخـرج مـن البيت. كانـت فقط تصعد إلى السـطح لتبيت فوقه فـي الليالي المقمرة، وهناك رآها ملك الجن هذا وعشـقها. تجسّـد لها في صورة بشر فأحبتـه، وأنجبتنـي منـه، قبل أن يطير بهـا إلى قلعة حصينة فـوق قمة جبل الدخان حيث تعيش معه هناك، وتأتي لتزورني كل شهر حين يكتمل القمر.

شـخصيًا، لا أصـدق هـذه القصـة، لأن أمي لـم يسـبق لهـا أن زارتني، ولطالما تساءلتُ: أي أم هذه التي تترك طفلها وتعيش محاطة بالجن؟

لـم أفنِّد مزاعمهـم، لأنها أولًا كانـت تُحكى، من وراء ظهـري، وثانيًا كانت تضفي عليّ هالة من رهبة أملت أن تكف الأذى عني.

جدتي بدورها كانت لها حكايتها الخاصة، إذ أكدت أن ابنتها الوحيدة كانت متزوجة من ابن عم لها سافر للتجارة وهي حامل بي ولم يعد، وأنه حين يفعل سـوف يصـدم كثيراً لمـوت زوجته الحبيبة، لكنه سـيفرح بي، وربما يقرر البقاء معنا والكف عن الترحال.

كانـت جدتي مؤمنة بحتمية رجوعه، وتعيش فـي حالة انتظار دائم له. مـا إن يطرق أحدهم بابنـا حتى يتهلل وجهها، وتقول إنـه أبي، وفي ليالي أرقهـا، اعتدتُ أن أسـمع ابتهالاتها من أجل أَوْبتـه. غير أنها مع التقدم في السـن باتت تخلط حكايتها عن أصلي بتقوُّلات الجيران الذين دأبوا على التحـرّش بي، ولم يرفعوا يدهم عنيّ إلاّ حين كبرتُ وأصبحت أقوى أبناء حارتي وأكثرهم رعونة، ذلك الذي يتودد له الجميع اتقاءً لشره. لم يفطن أحد إلى أن هذا كان غطاءً يخفي وحدتي ويُتمي.

حيـن بـدأت أخرج للّهو مـع أقراني، وأقضي في الحانات والأسـواق وقتًـا أكثر مما أقضيه في البيت، خافـت جدتي من يوم أرحل عنها فيه إلى حيـث لا تعلم، فتوسـلت إلى نيروز الفارسـي، أمهر صائغـي المدينة كي يقبلني صبيًا في ورشـته لأتعلم منه أسـرار الصنعة. سقاني نيروز ما يعرفه عن الجواهر والمعادن النفيسـة: أنواعها، وكيفية تشكيلها وسبكها. كنت ألمـح نظرات الإعجاب في عينيه من سـرعة تعلمـي، ومهارتي في ابتكار تصميمات جديدة. حدثني ذات يوم عن جبل كامل من الزمرد بالغ النقاء. مـن سـاعتها وأنا أحلم بـه، ولَمّـا آن الأوان ارتحلت علّني أبلغـه، وها أنا أمامك بعد أن تحطمت سفينتي وغرق كل من عليها ما عداي أنا وربانها.

بسـماع الحكايـة لانـت ملامح إيليـا المتجهمـة، أنس للناجـي الذي عرض عليه أن يرشـده - بشـكل غير مباشـر - إلى حجـر الجنون. اقترح أن يختبـئ خلـف الصخرة، ويقتـرب إيليا من الأحجار ويلمسـها، واحدًا تلو الآخر، فيما يراقبه من وراء سـاتره وهو يغطي عينيه بكفه تاركًا فسـحة ضيقة يرى منها لينبه إيليا ما إن يضع يده على حجر فضي.

قاد الناجي إيليا إلى حيث لا يزال البحّار الميت يقف وقد التصق بطنه بحجارة الجبل. اختبأ خلف الصخرة فيما خطا الآخر ببطء متجهًا صوب الأحجـار، حرّك كفيـه عليها حتى وصلـه صوت الناجي يخبـره أن الذي تحت يديه الآن فضي اللون.

حـاول إيليا تخليص الحجر من بين الصخور المجاورة له، فلم يفلح. انحنى بجسده حتى أصبحت عيناه في مستواه، فتحهما عن آخرهما كأنما يرى المستطيل البرّاق في مواجهته. ظل على هذا الوضع مبالغًا في تركيزه إلى أن وقع مغشيًا عليه من الإنهاك. لمحه الناجي يسقط غير أنه لم يجرؤ على الاقتراب منه خوفًا من لعنة الضحك المميت.

بعـد مـدة أفاق إيليا على صداع شـديد، وإنهاك غيـر محتمل، لم يفتح عينيـه على الفور، وحين فعل كان كمن يحملق في ضباب كثيف بلا قدرة على اختراقه. لم يعد كفيفًا كسابق عهده، لكنه أيضًا لم يستعد قدرته كاملة على الإبصار. بدا كمن يرقب العالم عبر غمامة.

لـم يسـتطع النهوض، ظـل راقدًا فـي مكانه لفتـرة مغمضًـا عينيه وقد بدأتـا تؤلمانـه. حين عاود فتحهمـا كان العالم مهتزًا، وإن بـدأت ضبابيته تقـل. أعاد الكرة أكثر من مرة، يغمض عينيه ثم يفتحهما بالتدريج، فيفاجأ بالاهتزاز ماثلًا كما هو، في حين تقلّ كثافة الضباب مفسحة الطريق لمزيد من وضوح الرؤية.

مـع غروب الشـمس، أصبـح إيليا قـادرًا علـى الوقوف، سـار مقاومًا إحساسـه العارم باهتـزاز العالم، لحق بـه الناجي، جلسـا صامتين بجوار أجمة الأشـجار. بدا إيليا منفصلًا عمّا حوله، وسرّب هذا إلى الناجي أمرًا غير منطوق بمواصلة الصمت.

خـلال أيام عـاد له بصره كامـلًا، ورجع للعالـم ثباته فـي عينيه. أبصر رفيقـه لأول مـرة بوضوح، فوجئ بأنه في مقتبل العمر مع أن صوته يوحي بأنه أكبر. استكشـفا معًا معظم خبايا جبل المغناطيس في جولات حرص الناجي خلالها على تحاشـي النظر المباشـر للأحجار الفضية، فيما التهم إيليا بعينيه كل ما رآه، محاولًا استعادة الألق القديم لذاكرته، وشحذ خياله ليعود وحشيًا كما كان.

لـم يرغـب في المغادرة، ولـم يشـعر بالحنين إلى مدينتـه أو إلى كوخه فـي وسـط الغابـة، بالأحرى خاف مـن العودة كـي لا يفقد بصـره مجددًا على مذبح الأشـعة باهرة الضوء. عكف على مخطوطاته يقارن بين خطه المنمق القديم، و«الشخبطات» العشوائية التي خطها في محبس عماه.

ساعدته الرقوق الواضحة على إعادة تشييد ذاكرته، أما «الشخبطات» التي فك شِفرة بعضها واستعصى عليه بعضها الآخر فحفّزت خياله على اختراع سياقات مفترضة لها. قضى شطرًا لا بأس به من عمره يدوِّن آلاف الكلمات، وها هو يقضي معظم وقته إما في قراءة ما سبق ودوَّنه، أو في حل طلاسم الملغز منه.

استيقظ إيليا ذات صباح فلم يجد الناجي في الجوار، انتظره بلا طائل، فظن أن رفيقه المؤقت غادر بحثًا عن جبل الزمرد. كان الناجي قد صحا مبكرًا وتسحّب على أطراف أصابعه كي لا يوقظ إيليا النائم بجواره، أراد استكشاف مناطق جديدة بعيدًا عن أحجار الجنون المهدِدة، سار مسترشدًا بمنحدرات الجبل، سلك شِعابًا لم يسبق له الاقتراب منها في جولاته السابقة.

كان النسيم يهدهد وجهه في جو الصباح الصحو، واستنشق أنفه رائحة عطرية أنعشته للحظات، قبل أن يستحوذ عليه شعور خفيف بضيق التنفس. واصل سيره حتى وجد نفسه في منطقة مزروعة بأشجار ثمارها بيضاوية كبيرة. كان أخضر الأشجار يحجب اللون الأسود للجبل. قطف ثمرة ناضجة وبدأ في التهامها، وما إن انتهى منها حتى فوجئ بألم حاد في بطنه أخذ يتلوَّى تحت ثقله.

تضاعف إحساسه بضيق التنفس كأن العالم خلا من الهواء، وأحس بغيمة داكنة تمنعه من الرؤية. كان، غير قادر على الحركة، ضائعًا في هلاوس تتخللها كائنات متوحشة تهاجمه. رأى نفسه يغرق في مياه بالغة الغور، ثم أفاق على جسده يُجَرّ على أرضية مسننة تثخنه بالجراح. تدحرج فوق الصخور خارجًا من إطار العالم كما يألفه. استعاد ذكرى غرق السفينة وصراعه مع الأمواج الهائجة للنجاة قبل أن يتعلق في لوح

خشـبي، لينتهي به الأمـر مرميًا على سـفح جبل المغناطيـس. زارته تلك الذكريات كلمحات خاطفة يصرع بعضها بعضًا.

جالـت روحه في أقاليـم مرعبة، توالت عليه صور مـن خلَّفهم وراءه: جدتـه وقـد أضحـت عجـوزًا بائسـة تطـوف الشـوارع بحثًا عنـه، معلمه الصائغ، وقد تكالبت عليه الديون والأحزان، رفاق الصبا المستغرقين في لهوهم وقد أداروا له ظهورهم.

دفعتـه الصـور للغوص أكثر في مأسـاته الراهنة. حين فتـح عينيه، كان ملقـى في صدع مسـتطيل مـن صدوع الجبل، جسـده مُدَمًّى فـي أكثر من موضـع ومُوَشًّـى بآثار سـحل. أبصر، فـي الأعلى، وحشًـا متحفزًا يشـبه الكائنات التي ظن هجومها عليه مجرد أوهام.

رغم إدراكه أن إيليا لن يسـمعه لبعد المسـافة بينهما، فإنه صرخ مناديًا عليـه بـكل ما يعتمل في نفسـه مـن رغبة فـي الخلاص. حين بدأ المسـاء زحفـه، كان الوحـش المتحفز لا يـزال مطلًا عليه من فـوق حافة الصدع. استسـلم الكون للعتمة، وبقي هو يعاني من الجوع والألـم والخوف. انتبه إلى كيان ضخم يحط على مقربة منه ليغطي جسـده، وينُشِـب مخالبه في ثيابـه حاملًا إياه لأعلـى. متأرجحًا يغلبه الدوار ويـكاد الهلع يقتله، تواءم الناجي مع مصيره. منعه الليل من رؤية آسره. من إحساسه بقبض ما يشبه المخالـب على ملابسـه، اسـتنتج أنه طائر عمـلاق، وتذكر ما سـمعه من أعاجيب عن طائر الرخ الأسطوري. ثم أصبح ذهنه فارغًا وفارقه الوعي.

جبل الحياة

فلأهدر حروفي كمطر أحمق يهمي على مستنقعات بلد استوائي.

كانت هدير متوترة!

لم يسبق لها أن سافرت بطائرة، وفوق هذا، كان الشيء الآخر يثير رعبها.

ذلك الشيء المخفي بعناية في حقيبة السفر. ندمت بشدة لأنها لم تستمع لصوت العقل، وأحجمت عن أخذ قطعة الحشيش معها. فكرت مرات - وهي تجر حقيبتها خلفها منصتةً لصوت عجلاتها على أرضية المطار المصقولة - في سحبها إلى دورة المياه لتفتحها وتخرج ما بها من حشيش، وتلقيه فى «التواليت» مغرقةً إياه بضغطة من إصبعها. تخيلت رد فعل جدتها الموقرة شيرويت قنديل إذا عرفت أن حفيدتها ألقي القبض عليها بتهمة حيازة الحشيش. سيكون مشهدًا لا يُنسى بالتأكيد.

غير أن أوان الندم فات، فهدير الآن في الطائرة، مستسلمةً لحزام الأمان تراقب سحبًا تبدو عبر النافذة كحقول ممتدة من القطن الأبيض المندوف. كانت قد طلبت من موظفة «البوردينج» الجلوس بجوار النافذة، ثم أنَّبت نفسها على هذا.

«مش هتبطلي هَبَل بقى؟»

كادت ابتسامة نزقة ترتسم على شفتيها إلا أنها قمعتها بسرعة. النظر لأسفل يدوّخها، ومع هذا لم تقدر على الامتناع عن النّظر. تذكرت دوخة قديمة كانت تغمرها في الملاهي، حيث اعتادت، في طفولتها، الذهاب بين حين وآخر بصحبة أمها وأبيها، وقتها لم يكونا قد انفصلا بعد. يخرج ثلاثتهم من البيت قبل غروب الشمس بقليل، تشد أمها على يدها وهي سائرة بجوارها دون أن تتكلم، فتبدو كما لو كانت تصطحبها لعقاب، لا إلى فسحة. صامتة معظم الوقت، فتصمت هدير بدورها. يركن أبوها السيارة ويلحق بهما. هناك حيث الأرجوحة الكبيرة، والعجلة الضخمة الدوارة، وحيث أسر سعيدة خرجت لتنزِّه أطفالها، وصغار مرحون يتقافزون بعفرتة، كانت هدير وأبواها يبدون مختلفين لدرجة محرجة.

يتصرف والداها كأنما يعيشان في عالم يخصهما وحدهما. ثمة دومًا موضوعات ملحة تحتاج للنقاش حولها، بصوت منخفض وباستغراق تام، حتى في الملاهي. كأن حاجزًا ما يمنعهما من الاندماج مع الآخرين ويدفعهما للالتصاق ببعضهما بعضًا. وبدأت هدير تتصرف مثلهما. كانت طفلة خجولة، تلعب وحدها غالبًا. يجلس والداها بعيدين عن الآباء الآخرين، يراقبانها ببسمة مشجعة، فترغب ساعتها في أن تكون خفية، لكنها ترد بهزة رأس مرتبكة.

اختلفت نادية كثيرًا حين انفصلت بعدها بسنوات قليلة عن كمال، لم تعد تلك المرأة الصموت العصبية، أصبحت أكثر حيوية ونشاطًا. ظلت على علاقتها الطيبة بزوجها السابق وظلا قادرين على الغرق في مناقشاتهما الودية الحميمة.

بقيت هدير معها بعد الطلاق، اتفقا على أن هذا هو الأفضل لابنتهما، كالعادة لم يسألاها ماذا تريد، هي نفسها لم تكن لتعرف. حين تزوج أبوها زوجته الثانية، اعتادت أن تقضي معه يومًا كل أسبوعين، ثم أصبحت

الفتـرة الزمنيـة تتباعد، مع انشـغاله بحياته الجديدة، قبـل انتقاله إلى دبي، وحتى حين تزوجت طليقته لم يرغب في أخذ ابنته للعيش معه هناك.

«إيه النكد ده بقى؟»، كادت هدير تنطق بهذه الجملة، حين اسـتعادت ذكـرى ابتعاد أبويها عنها، لـولا أنها لمحت المضيفة تبتسـم لها بينما تمر بجوارها. لم تعرف ما الذي يدفعها لاستدعاء هذه الذكريات الحزينة.

قالـت إن هـذه الرحلة سـتكون بدايـة مرحلـة تعتمد فيها على نفسـها بالكامل، شـعرت بالاستقلالية، لطالما وصفتها نادية بالعنيدة والمتمردة، لكـنّ أحدًا لـم يخبرها، قبل شـيرويت، بأنها قوية وجميلـة، وما عليها إلا رؤيـة هـذا الجمـال، والتصالح مع هـذه القوة وعـدم التنكر لهـا. «صلبة كالماس، جميلة كالوردة، وناعمة كالقطيفة» هكذا تراها جدتها.

تناسـت مؤقتًا الحشـيش ومخاوفها من اكتشـافه ومنَّت نفسها بتجربة مثيرة في «ثاكاتيكاس». حاولت تخيلها فلم يسـعفها خيالها سـوى بصور نمطيـة مسـتلة من أفـلام هوليوود عن المكسـيك. قرأت مـا وجدته عنها على شـبكة الإنترنت، لكنها رفضت تصفّح صورها، كي لا تفسـد عنصر المفاجأة. حين منحتها شـيرويت تذكرة السفر، كانت هذه أول مرة تسمع فيها بالمدينة، اندهشت من مقدار بعدها عن القاهرة، وسوس لها شيطانها أن العجـوز ترغب فـي التخلص منها، فأرسـلتها إلى أبعد مـكان ممكن. حدثتهـا شـيرويت عـن تربة حمـراء، حقول صبّـار ممتدة، وجبل مكسـو بالنباتات، وعن سـفرها في الماضي لحضـور مؤتمر هناك، قالت بحنين، كانت هدير لتسـخر منه في لحظة أخـرى «يا ما حلمت إني أرجع للمكان ده تانـي». ضحكت حين لاحظت تردد هديـر: «مش مدينة الزمرد، وأنتِ مـش دوروثي فـي مغامـرة بحثها عن سـاحر أوز، لكنها هتكـون مدينتك ورحلتك لعشرة أيام».

***

حين هبطـت الطائرة في ثاكاتيكاس بعد مرَّتـيّ «ترانزيت» في مطاري «شارل ديجول»، و«بينيتو خواريث» وصل توتر هدير إلى أقصى درجاته، عاودهـا الذعر ممـا خبأته في حقيبتهـا. تلكأت في الخروج مـن الطائرة. انتظـرت حتى غادرهـا الجميع، وسـارت في مؤخرة الصـف الطويل في الممر الضيق الموصل إلى مبنى المطار.

تتبعت بتثاقل اللافتة التي تشـير إلى مكان تسلم الحقائب. خطر ببالها ترك أمتعتها والمغادرة بسرعة، ثم نفضت الفكرة عنها. لا تثق في حدسها عادةً، لكنّ شـيئًا ما أخبرها أن تتبعه هذه المرة، وحَدْسَـها همس لها بأن لا مشكلة!

جـرّت حقيبتهـا خلفهـا، وهي مستسـلمة لشـعور عـارم بالترقب. في الخارج قابلتها أشـجار كافـور وماغنوليا وأنواع أخـرى لا تعرفها. كانت الشـمس قد غربت منذ مدة تاركةً آثارًا برتقاليـة تلوِّن الأفق، فكرَّت هدير في أن مدينة تستقبل زائرها بالأشجار وبليل وشيك الحلول، تستحق هذه الساعات والساعات من الطيران.

تفحّصـت المنتظريـن، كأنمـا تبحث عن مُسـتقبِل لها. وقفـت مكانها لبرهـة، حقيبتهـا علـى الأرض، وعيناهـا تتجولان فـي الفضـاء المواجه للمطـار. بعد قليل، اتجهت نحو «تاكسـي» ينتظر فـي المكان المخصص لعربـات الأجـرة، وأعطت لسـائقه ورقة بعنوان الفندق، اكتفى بهز رأسـه لكنه عوّض صمته بالانطلاق بسرعة فائقة. أحسّت بالرهبة، وهي وحدها، في بلد غريب، في سـيارة يقودها رجل يفهـم بالكاد كلماتها بالإنجليزية. مرّا بحقول شاسعة من الصبّار قبل أن يدخلا المدينة. الشوارع كانت شبه خالية. جميع المحال مغلقة، وثمة رائحة ثقيلة بدت ملتصقة بالهواء كأنها طبقة أخرى تجعله أكثر كثافة.

وصلت أخيرًا إلى فندق «إمبريال» في الوسط التاريخي لـ«ثاكاتيكاس»؛ بناية أثرية تحولت إلى فندق مع الحفاظ على طابعها القديم. أنهت إجراءات تسجيل الدخول، وصعدت إلى غرفتها. كان جسمها مهدودًا من أثر الطيران لساعات طويلة بلا نوم، فارتمت فوق الفراش دون حتى تغيير ملابسها. نامت في السابعة مساءً واستيقظت بعد تسع ساعات. كانت المدينة لا تزال غافية فتشاغلت بمشاهدة التلفاز، ورغم عدم فهمها للإسبانية، تابعت بشغف قناة للأغنيات الحديثة.

في العاشرة نزلت لتناول فطورها بمطعم الفندق، ثم تجولت في الشوارع القريبة منه. اختارت مقهى رصيف أعجبها، وجلست تستمتع بالشمس، وهي تتناول «آيس كريم»، وتتأمل الوجوه المارّة في الشارع. الجالسون إلى الطاولة المجاورة كانوا يتحادثون بصخب، ومن وقت لآخر تفرقع ضحكاتهم فيتأفف بعض مجاوريهم. ثم أبصرته يقترب. رجل أربعيني بشعر أسود مموّج وبشرة برونزية، كانت قد لمحته يتناول إفطاره، بصحبة امرأة جميلة، في مطعم فندقها قبل قليل.

وصل إلى طاولتها وسبق سلامه بانحناءة مسرحية مصحوبة بجملة نطقها بإنجليزية متشاوفة:

«Honored to meet you, your majesty!».

اتخذت على الفور سمت الملكات وحيّته بهزة مترفِّعة من رأسها، شوّشت عليها ابتسامة ساذجة، لا تليق حتى بأميرة مزيفة في مسرحية رديئة. من ملامحه خمنّت أنه إيطالي، غير أنه بادرها بعربية متقنة.

-اسمي كريم خان. واضح أنك عربية. صح؟

-صح. اسمي هدير كمال.

سحب كرسيًا وجلس في مواجهتها من دون استئذان:

-تعرفي ليه قلت لك «يور ماجيستي»؟ عشان أنتِ برج السرطان زيِّي!

اندهشــت لمعرفته برجها، لكنها لم تظهر دهشتها للحد من اقتحاميته، اكتفت بابتسامة خفيفة فواصل:

-أنــا من إيران، عشــت في مصر خمس ســنين، وقضيت فــي الكونغو سنتين عرفت فيهم كتير عن الأبراج وقراءة الكف!

طلبــت منــه أن يقرأ كفها، فلم يمانع. أمســك يســراها ليســتطلع خبايا العمــر والحــب والحظ، ارتســم الانزعاج على قســماته وهــو يحدّق في خطوطها، قبل أن يسحب الكف الأخرى محاولًا التأكد من أمر ما.

عــاد الارتياح ليســكن ملامحه. أخبرها متنهــدًا أن خط العمر في كفها اليســرى يبــدو كأنما ينقطع قبل منتصفه، لكنه بتدقيــق النظر لاحظ أن ثمة خيطًــا واهيًا يربطه بخــط يكمله ويعلوه. والأمر الجيد أن هذا لا يتكرر في يمناها، إذ يظهر الخط قويًا، وإلا دلّ تكراره على أن حياتها ستنتهي مبكرًا أو على الأقل ستتعرض لحادث مأساوي. سألته عمّا تعنيه هذه الانعطافة في كــف واحدة؟ فأجاب بالفصحــى، وبجدية بعيدة عــن لهجته اللاهية: «ستصيرين أخرى»!

انتفــض فجأة متعلــلًا بأنه تأخر على صديقته، ووعدها بجلســة أخرى موسعة. تابعته يغادر في اتجاه الفندق بخطوات سريعة. فكرت في قراءته لكفهــا، وأخافها خاطر أن تصدق نبوءته. لـم تفهمها تمامًا، لكنها شــعرت بانقباض مبهم.

***

جبل الحياة!

قــال كريــم إن هــذا لقــب «ســيرو دي لا بوفــا» المطــل علــى المدينــة المكسيكية كأنما يحرسها من هجوم منتظر.

ألقـت هديـر نظرة خاطفـة نحو الجبل، فبـدا جميلًا بنباتاتـه الخضراء والبيوت الملونة المبنية على سـفحه. نسـمة الصباح المنعشـة، والرائحة المنتشرة في الهواء، والضجة الخفيفة لفتح المحلات والمقاهي في شارع «هيدالجو» سـرَّبت بهجة غامضة إلى حواسها، وأضفت لمسة سحر على الجبـل الذي يكاد اللـون الأخضر يغطيه، لولا أن ألـوان البيوت الموزعة بيـن الأحمـر والزهري والأرجوانـي والأزرق، أصرّت علـى منازعته في إضفاء حضورها اللوني.

ضحكتْ مندهشـة من اللقب، سـألت عن سبب التسـمية، فرّد بوجود تفسيرات عديدة، أشدها غرابة هو اعتقاد قديم بأن قمته يتوقف فيها الزمن الأرضي كما نعرفه.

نظـرت إلى القمـة، كأنها سـتمنحها سـرها بمجرد النظـر، وأحكمت وضـع الكوفية حول رقبتها اتقاءً للبرد. شـعرت فجـأة بغرابة موقفها. هي هنا في مدينة تبعد عن مسـقط رأسـها بآلاف الأميال، تسير مع رجل تعرفه بالكاد، يكبرها بقرابة العشـرين سنة، ورغم هذا تشعر بألفة تفتقدها أغلب الوقت.

ليـس مـن الحكمـة أن ننفتح هكذا علـى غرباء، هذا ما قـد تقوله نادية بنظـرة مؤنبـة لو كانت تشـاهد ابنتها عبر شاشـة ما من بيتها فـي كندا. غير أن شـيرويت، كانت سـتبادل حفيدتهـا نظرة متواطئة، مشـجعة إياها على المغامـرة. «سـافري، جربـي، وارجعـي»، قالت لهـا وهي تهديهـا تذكرة السفر. فلَمَّا سألتها هدير: وليه أرجع؟ أجابت: «عشان هنا مكانك».

كان لا يـزال يتحدث عن الجبـل، ولم يفطن لشـرودها. «رائع» قالت بحماسـة كي تعطيه انطباعًا بأنها تتابعه. ضحك ملتفتًا إليها: إيه الرائع في معركة قضت على مئات البشر؟

-معركة؟

-آه معركة. واضح إنك كنتِ في عالم تاني.

ابتسمت مُحرَجة ولم ترد، فأخبرها أنه لاحظ أن الشرود سمة أساسية عندها. وأنها قادرة على أن تكون وحدها وسط الضجيج. «العزلة في قلب الصخب» كانت تلك كلماته التي عكست تفكيره فيها وخروجه بملاحظة صائبة عنها منذ لقائهما الأول.

تجولا في المدينة حتى حلّ المساء. كانا يسيران تحت مطر خفيف حين مرّا بمطعم خافت الإضاءة تنبعث منه موسيقى شجية. دونما كلمات سحبها من يدها متجهًا نحو المطعم لتناول «مشروب سريع»، فلم تمانع.

جذبتها «بورتريهات» نجمات السينما الإيطالية في الخمسينيات والستينيات، المعلقة على الجدران: جينا لولو بريجيدا المتباهية بانحناءات جسدها الباذخ، وصوفيا لورين بملامحها ذات الشراسة البدائية الفاتنة، وآنا مانياني وهي تحاول كبح جماح غموضها كما كانت تكبح نيران غيرتها من إنجريد برجمان.

تاهت بين نسوة من زمن آخر قبل أن تسأل:

-المطعم إيطالي؟

-تقريبًا!

صور الجميلات القديمات جلبت لها هواءً متوسطيًا محببًا. رأت بعيني خيالها شوارع صاعدة هابطة شاهدتها في فيلم إيطالي قديم، وشرفات واسعة وبحرًا هائجًا وأليفًا في آن. تذكرت شقتهم القديمة في منطقة رشدي بالإسكندرية، حيث اعتادت في الماضي أن تقضي مع والديها شهرًا كل صيف.

-رحتِ فين؟

سـألها مسـتعيدًا إياها إلى أجـواء المكان. اقترب النـادل بزجاجة نبيذ أحمر لم تنتبه إلى كريم وهو يطلبها. صبّ له النادل قليلًا من النبيذ فقرّب الكأس من أنفه يشـمّه قبل تذوّقه، وهو يهز رأسـه في رضا، فصب الرجل المزيد، ثم استدار نحو هدير وملأ كأسها هي الأخرى.

تحفَّـزت حدقتـا كريم، وهو يحتسـي السـائل القاني بتلـذذ، وللحظة عابـرة، ارتسـمت ابتسـامة غامضـة في عينيـه. التفـت إلى هديـر، لاحظ اهتمامهـا بالـ«بورتريهـات» على حوائط المطعم، ثـم واصل الغوص في عالمه النائي عنها.

كانت عيناه تلمعان، وهو يضحك على أبسط كلمة أو لفتة منها. بدا لها سـعيدًا بصحبتها. كان يجلس أمامها باسـترخاء مضطجعًا قليلًا للخلف. يتأملهـا تتحـدث ويـرد باهتمـام. يـده لا تكف عن الـرّج الدائـري الناعم لكأس النبيذ، يرتشف رشفة ويعاود الرّج من جديد.

بـدأت تتوتر بسـبب خجـل مفاجئ ألمَّ بهـا. تزايد حضـور كريم وملأ الفضاء حولها. هدوؤه واسـترخاؤه ونظراته المفعمة بالحنو أشـعرتها أنه كأنما يعانقها، لا يجلس فقط إلى الكرسي المقابل.

لا تعـرف الكثيـر عن لغـة الجسـد، وإلاّ لكانت فهمـت أن كريم خان كان يرغـب فيها بشـدة فـي تلك اللحظة. سـاقاه المنفرجتـان تقولان هذا بوضـوح، وكذلك تحريكه لكأس النبيذ بهذا الشـكل الدائري، واحتضان يديه لاستدارة الكأس.

لكن جهلها بلغة الجسـد لم يمنعها من ملاحظة أن الجنس يسـيل من عينيـه وتصرفاته كلهـا. أربكها هذا لاكتشـافها بداخلها رغبـة مماثلة فيه، ردتها لتأثير النبيذ، ودفء كريم المباغت في التعامل معها.

مـد يده فجأة، ومـسّ خصلة من شـعرها. ثبّتها خلف أذنهـا، وبحركة

عفويـة لمـس وجنتها بسـبابته، ثم عاد لتجرّع كأسـه. أبعـدت وجهها عنه بانزعـاج ظاهـري. شـحنتها لمسـته بإثارة منعشـة. فكرت في سـؤاله عن صديقته ثم قررت أن الوقت غير ملائم.

كأنما قرأ أفكارها، قال بصوت حازم، بعيد عن مزاجه السابق:

-بوسي أكيد قلقت بسبب غيابي، لازم نمشي.

-أوكي. أنا كمان محتاجة أرتاح.

ردت بآليـة. دَفَـعَ الحسـاب، وأمسـك بيدهـا إلى الخـارج. كان الجو باردًا، فخلع سـترته الصوفيـة ووضعها على كتفيها. أدخلـت ذراعيها في الكمّين، وضمت السـترة على جسـدها النحيل. ظلت صامتة حتى وصلا إلـى الفندق. في بهو الاسـتقبال ودّعها بقبلتين محايدتيـن على وجنتيها، وطلب منها الاحتفاظ بالسترة حتى الصباح كي لا تصاب بالبرد.

فـي غرفتها، علقت الجاكـت بعناية في الدولاب، وألقت بنفسـها فوق الفراش، واستغرقت في نوم عميق. صباحًا، استعادت كل تفاصيل لقائهما بالأمـس: نظراتـه، لمسـته لوجههـا، سـترته وهـي تحتضن جسـدها، رغم الصداع والإرهاق، فضلت تناول فطورها في مطعم الفندق على أمل رؤيته.

لـم يظهر حتى انتهت من تناول الطعام. ظلت جالسـة، تشـرب قهوتها وهي تتصفح كتيبًا سياحيًا عن المدينة. أخيرًا، دخل مطعم الفندق بصحبة بوسـي. كان يضمهـا بذراعـه اليمنـى، ويضحـك بينمـا يقـول لهـا جملة أضحكتها هي الأخرى.

لمـح هديـر تجلس إلى طاولتها، فهزّ رأسـه محييًا إياهـا. اختار طاولة بعيـدة، في آخر صالة الطعام، وجلس معطيًـا ظهره لها، ومواصلًا مناغاته الحميمة مع رفيقته. انتهت هدير من قهوتها وغادرت.

أرسلت إليه الجاكت مع عاملة خدمة الغرف، مع قرار بتفادي مقابلته.

آخر ما تبحث عنه توريط نفسـها في مشـاعر من طرف واحد مع شـخص يكبرهـا، لديه صديقة، وفوق هذا لا تكاد تعرف عنه شـيئًا. تعلم رأيَ أمها مقدمًـا في هذا، أما ما يمكن أن تراه شـيرويت في موقف مماثل، فلا علم لها به.

قالت لها: «جربي، وغامري، واكتشفي الحياة بنفسك». غير أن هذا لا يتضمن بالضرورة الوقوع في هوى «دون جوان» غامض.

خرجـت للتسـكع. بـدأت من شـارع «هيدالجـو»، حيث يقـع فندقها مواجهًـا للكاتدرائية التي تعد أهم معالـم «ثاكاتيكاس»، دارت حولها أكثر من مـرة، تأملت الزخـارف والمنمنمات علـى واجهتها منبهـرة بالباروك المكسيكي المبهرج والمبهج بفطريته.

مـن خلـف الكاتدرائيـة واصلت سـيرها فـي شـارع «تاكوبـا». مرت بساحة «خينارو كوردينا» والسوق الذي يحمل الاسم نفسه، عبرت بائعي مكعبات الفواكه المقطعة في كؤوس زجاجية وبلاستيكية: مانجو، خوخ، كوكتيل. اشـتهت كأسًـا مـن المانجو البـاردة. وقفت أمـام البائعة وطلبته بإسـبانية ركيكـة. كانت البائعـة بدينة بحاجبيـن كثيفين، ويدين خشـنتين مشققتين وترتدي على رأسـها قبعة «سومبريرو». قطّعت المانجو بسرعة ووضعتها في الكأس. وقبل أن تنتبه هدير رشّت فوقها مسحوقًا أبيض تلته برشة من مسحوق أحمر وقطرات من عصير الليمون.

التقطـت هدير الكأس والشـوكة وغـادرت وهي تُمنِّي نفسـها بالتهام المانجو الشـهي فـي السـاحة القريبة، لكنها حين جلسـت هنـاك وبدأت في الأكل اكتشـفت أن المسـحوقين المرشوشـين ما هما إلاّ ملحًا وشطة حـوَّلا، بمسـاعدة عصيـر الليمـون، مكعبـات المانجو إلى مـذاق غريب أصابها بالغثيان.

جرَّبت البحث بالشوكة في أسفل الكأس عن قطع مانجو لم يصلها المزيج، لكن كل القطع كانت مشبعة بالمسحوق الحارّ. رمت الكأس بكاملها في صندوق القمامة المجاور، وعادت لجلستها وهي تلعن البائعة، وكريم وصباحها السخيف هذا.

عادت إلى الفندق بعد ساعتين. من غرفتها هاتفت كريم فلم يرد. اتصلت بموظف الاستقبال لتسأل عنه فأخبرها أنه في نزهة بالجبل. خلعت ملابسها ببطء أمام المرآة الطولية، تركتها ملقاة فوق أرضية الغرفة، ودخلت لتغتسل، ثم لفّت جسدها في منشفة كبيرة وتمددت في الفراش تشاهد التلفاز.

في الخامسة تقريبًا استسلمت لنوم لم تفق منه إلاّ منتصف الليل على إحساس مؤلم بالوحدة. مرّت رفيقة كريم ببالها فرددت اسمها بسخرية. «بوسي! بوسي! اسم مناسب لقطّة. بوسي كات!».

قضت هدير يومها التالي أيضًا في التعرف على معالم المدينة. كررت جولتها السابقة، مرّت بالشوارع والميادين نفسها آملةً أن يمدها التكرار بزوايا جديدة للرؤية. وبالفعل مع كل جولة كانت تكتشف ملمحًا كان متواريًا عنها، انتبهت لطرافة أسماء المحال والأماكن التي تقابلها: الكناري السعيد، صالة الفردوس، ومنجم عدن. فهمت لماذا يصف الأهالي مدينتهم بأنها بـ»وجه وردي وقلب من فضة»: المباني الأثرية مطلية كلها بلون وردي هادئ، ومناجم الفضة ظلت مصدر الدخل على مدى قرون.

في المساء، هاتفها كريم يدعوها إلى العشاء في مطعم بالجبل. أردف كأنما يقرأ أفكارها: بوسي فضّلت تروح حفلة مع ناس تعرفنا عليهم النهارده، ويمكن تلحقنا لو انتهت الحفلة بدري.

«أوكي» ردت بلا حماس. وجدته ينتظرها في ردهة الفندق، كان متأنقًا أكثر من المعتاد، وفي عينيه لمعة سعادة لم تخطئها.

المطعم كأنه محفور في الجبل. كهف لا يدل مدخله المتقشف على أناقة الداخل. الطاولات والمقاعد منحوتة من الصخور، والمصابيح الموضوعة في كوىً على مسافات متساوية بالحائط، لوَّنت المكان بإضاءة حمراء دافئة، وأضفت عليه لمسة عتيقة.

لم تغامر بطلب أطباق لا تعرفها بعد «مقلب» المانجو بالشطة والليمون، واكتفت بسلطة خضراء وقطعة «ستيك»، في حين طلب هو طبقًا تقليديًا.

تناولت طعامها مستمتعة. فاجأها رقي المطعم وفرادته. طلب كريم ويسكي، واكتفت هي بصودا. بعد الكأس الثالثة بدا مرتاحًا أكثر. أصرّ عليها أن تشاركه الشراب، فوافقت مترددة. بدأ يتحدث عن الأحجار الكريمة. قال إنه خبير بها. سألته إن كان هذا مجال عمله، فرّد بأنها مجرد هواية. تفحّص حُليها الفضية: قرطين على شكل هلالين، وخاتمًا يعلوه مستطيل خُطّت عليه كلمات بخط كوفي لم يتبين ما هي، وقلادة تنتهي بهلال أكبر من هلالي القرطين. خلت حُليها من أي أحجار باستثناء السوار المطَّعم بفصوص فيروز بيضاوية.

كانت عيناها مكحولتين بكحل كثيف، فيما تركت شعرها مموجًا على طبيعته ليكمل مع «مكياجها» الخفيف بألوانه النحاسية مظهرها كابنة للطبيعة.

تأملها كريم وفي باله أن ملامحها فرعونية بدرجة ملفتة، وأنها لا تفهم، إلاّ أقل القليل، في المجوهرات والأحجار الكريمة، ورغم انطباعه الأخير هذا سألها عن الحجر المفضل لديها.

فكرّت قبل أن تجيب:

-بحب الفيروز.

ثم هزّت رأسها يمينًا ويسارًا نافيةً جملتها السابقة:

-لأ، ممكن تقول إني بحب الزمرد أكتر!

-ذوقك حلو، بس اشمعنى الزمرد؟

-لسبب غريب. ماما كان عندها خاتم بفص زمرد وأنا صغيرة، وكنت بحبه كتير.

***

وحيدة ومعزولة عن العالم جلست هدير في الصباح التالي في حديقة «إنريكي سترادا». الشمس مشرقة والجو معتدل مع «لطشة» برد منعشة وهي ملتصقة بمقعد حجري، والصداع يكاد يقتلها. ليتها لم تدخن سيجارة الحشيش التي لفتها قبل خروجها، ووضعتها في جيب حقيبة يدها، أو بالأحرى، ليتها لم تجامل كريم بمشاركته في شرب الويسكي. جاهدت لاستعادة ما حدث بعد عشاء أمس، تتذكر تفصيليًا حوارها معه على الطعام، لكن ما تلا هذا ملفوف بغمامة.

الخروج المفاجئ من المطعم، التلال المزروعة بنباتات لا تعرفها، أشجار الذهب والفضة، مرتفعات الزمرد، والبشر المتحركون بهمة وحبور والمرحبون بكريم بحرارة كأنما يعرفونه من قبل. كان ثمة عجوز بجسد طيفي، رتّل تعاويذه وهو يمسِّد شعر هدير وجبهتها: »باسم الأميرة الغائبة. باسم الملك ياقوت. باسم السر المكنون في حجر الزمرد السحري. باسم جبل قاف والجبال الأربعة تتوسطها البحيرة المسحورة، باسم جزيرة الأبنوس ومدينة النحاس، باسم الحروف الحافظة لتناغم الوجود وتوازنه. ابعث أميرتنا من رماد احتراقها».

أبخـرة بروائـح عطرية مميـزة تكاثفت في الجو وموَّهـت زمرد التلال البـراق بالأبيـض الخفيف، وبدأت هديـر تغيب عن الوعـي، تبتعد رويدًا عـن حياتها وذكرياتهـا القديمة، عن العالم كما تعرفـه، وتقترب من هلام غامض لجمـاع ذكريات لا تخصها. رأت: قصرًا باذخًا من الزمرد المزين بالياقـوت والمـاس، صالاتـه كل منهـا مصنـوع من حجر كريـم مختلف وإيوانـه مـن الذهب. أبصـرت: أميرة طاغية الحسـن تركـض في ممرات حديقة على هيئة متاهة، وطيور رخ محلِّقة، وعفاريت سابحة في السماء، ومسـافرًا تقبـض على ثيابـه مخالب طائـر عملاق، ومدينة مـن النحاس، وممالك البحار الغامضة.

حاولت المقاومة لإبطال أثر سـحر يمارسـه مرتل التعاويذ عليها، فلم تفلـح، لـم تعرف أصـلًا كيف فهمـت الكلمـات المنطوقة بلغـة تجهلها. جاهـدت للنظر نحو كريم خـان. كان متهلل الوجه مشـيرًا نحوها براحته اليسـرى، أن تهدأ وتستسـلم لحركة اليد فوق رأسها. بقيت هذه التفاصيل فـي ذاكرتهـا، لكنهـا لا تـدري هـل حدثـت فعـلًا أم أنهـا هلاوس سُـكر وحشيش.

غـادرت الحديقة وفي نيتها أن تسـأل كريم عمَّـا جرى بالأمس؟ كيف صعـدا إلى هذا المكان الغريب حيث مرتفعات الزمرد والقصر الباذخ من الأحجار الكريمة؟ وهل فعلا حقًا؟

السـؤال الأخير جعلها تتردد، ماذا سـيظن بهـا إذا كان ما «رأته» مجرد أوهام؟ قررت أن ما يهمها هو معرفة الحقيقة.

هاتفتـه من اسـتقبال الفندق، أخبرته أنها تريـده لأمر مهم. كان صوتها حاسـمًا وكلماتهـا مقتضبة. نـزل بسـرعة، اصطحبها إلى مقهـى مجاور. تكلمت كأنها واثقة من كنه ما اختبرته وسألته أن يفسره لها. صمت لبرهة

ثـم أخبرها أن المسـألة شـرحها يطول. طلـب منها أن تبحث عنـي: «لَمَّا ترجعي القاهرة، دوَّري على بستان البحر، دي صديقة عزيزة جدًا».

-مين بستان البحر؟ وإيه علاقتها بسؤالي؟

-هتفهمي في الوقت المناسب، مش هقدر أنا أشرح لك.

-طيب، عاوزة عنوانها أو رقم تليفونها.

-الاسم هيدلك على صاحبته.

لمح نظرة غيظ تحتل عينيها، فأضاف:

-مـا تسـأليهاش عن أي حاجة بشـكل مباشـر، لو عملـتِ ده هتتهرب منك. قولي لها إنك من طرفي وسـيبي الأمـور تتطور على مهلها! صدقيني مش هتندمي.

بلوقيا يطأ قاف

أكتب لأُحكم الخناق حول ذاتي. بالكلمات
أقيم جدرانًا تحمي عزلتي وترعاها.

وجدوه ملقى على قارعة طريق مهجور!

أو على نحو أدقّ، عثر عليه راعٍ كان يتجول سابحًا في ملكوت ذكرياته البعيدة مستعيدًا تفاصيل تأبى أن تفارق ذهنه، دافعةً إياه للاستغراق فيها بدلًا من عيش لحظته الحاضرة.

كان الناجي ممزّق الثياب مُدَمَّى الوجه، على يديه وعلى جلده آثار سحل لا تخطئها العين.

ظنَّه الراعي جثة هامدة بسبب سكون جسده. اقترب منه بحذر، قلَّب الجسد المستسلم لغيبوبته. جسّ نبضه فاكتشف أنه لا يزال متشبثًا ببقايا حياة لم تغادره بعد. رفعه بصعوبة، وحمله على دابته متجهًا به إلى كوخه البسيط. هناك، أرقده، ومسّ شفاهه بقطرات ماء بارد، قبل أن يمسح وجهه ورقبته.

فكّر أن ضيفه الغائب عن الوعي سيحتاج لا بد إلى شيء يأكله حين يفيق، فخرج الراعي للصيد ولجمع بعض الثمار والأعشاب كي يوفر له ما يسد رمقه.

في المساء فتح الناجي عينيه.

كان مذهولًا، يحملق في ما حوله، لم يرفع رأسـه، أو يحاول النهوض، بـدا قانعًا برقدته متوائمًـا معها. اكتفى فقط بالتجول بعينيـه بين في الكوخ. حين أبصر الراعي يراقبه، لم تتغير نظرته ولم تكتس بتعبيرات امتنان لمضيفه القلِق، لأنه لم يفهم أين هو، ولا ما علاقة هذا الجالس قبالته بإنقاذه.

اقترب منه الراعي بابتسـامة مرحّبة، مسـح على رأسـه، وسـاعده على الجلوس ممدِّدًا ساقيه أمامه. أحضر له قدحًا من الأعشاب المغلية وتابعه وهو يشـربه بنهم. اختفى للحظات، وعاد ببضع ثمرات بيضاوية في وعاء خشـبي، اختـار أكبرها وقدّمها له، لكـنّ الأخير نظر إليها بفزع وتحسـس بطنه. احتار الراعي، ولم يعرف كيف يقنعه بأكلها.

-كُلها! كُلها!

قال برجاء، فردَّ الناجي بهزة رأس رافضة. اسـتراح الراعي لأن الرجل فهم كلماته. نظر له باسـتعطاف مشـفق، ثم خطر له أن يأكل هو من الثمرة كي يطمئن ضيفه أنها غير ضارة. قضم قضمة صغيرة ومضغها بشهية وهو ينظر في عيني الجالس أمامه الذي سـرعان ما خطف الثمرة والتهمها، ثم استلقى على ظهره، وبعد دقائق أخذه النوم بعيدًا.

لـم يخطر في بـال الناجي أنه في جبل الزمرد، ولج أرض النُعاس وهو يظن نفسـه في كوخ قريب من جبل المغناطيس. خمّن أن طائر الرخ – لا بد – قد ألقاه بعد وقت قليل من التقاطه له.

صحا ليجد الراعي جالسًا إلى جواره ناظرًا إليه بفضول.

«أيهـا الغريـب، احكِ لي حكايتك، منها نأخذ عبرة، ومنها نسـرِّي عن أنفسنا»!

أحـسّ الناجي بنوع مـن المودة والثقة تجاه مضيفـه. وفكّر أنه ربّما إن حكى له حكايته قد يساعده.

بدأ حكايته وفي ذهنه البوح بما سبق وأخفاه عن إيليا، برغبته المُحرقة في لمس ما لا يُلمَس، والإمساك بما لا يمكن الإمساك به، وقلقه الموجع بلا سبب جلي:

منذ صباي كان ثمة هاجس يلح عليّ أن أرحل وأتيه!

هاجس لئيم كسوسة تنخر في رأسي وتنغِّص عليّ تواصلي مع الناس حولي ومع الواقع المحيط بي، في البداية تجاهلت وساوس شيطاني الخفي، انغمست في اللهو مع أقراني والتسكع في الأسواق بعد الانتهاء من عملي في ورشة الصائغ نيروز الفارسي، حصّنت نفسي بملاحقة الظلال الهاربة لشموس لا يراها ولا يشعر بها سواي، إلى أن حلّ السكون - ذات ظهيرة - على العالم. كنت في وسط سوق حافل بأصوات صاخبة متقاطعة: مساومات، مشاحنات، هتافات لتسويق بضائع كاسدة. ثم ران صمت تام بدون سابق إنذار.

شعرتُ لحظتها بأني وحيد في عالم أخرس، لم أعد أرى من كانوا يجاورونني أو أحس بهم، لم يبق أي وشيش أو أدنى صوت، خطر لي أن الحياة انتهت، والزمن توقف، لكنّ مشهدًا، بدأ في التشكل أمامي مبددًا هذا الموات. اختفى السوق بروَّاده ونبع من العدم جبل من الزمرد المتلألئ بفعل انعكاس أشعة الشمس عليه، استحوذ عليّ منظر الجبل الباذخ، وقفتُ حائرًا غير واثق إن كان حقيقيًا أم محض أوهام، تابعت دخانًا أبيض وهو يغطي قاعدة الجبل الزمردي صاعدًا لأعلى حتى ابتلعه، ولم يبق في مواجهتي سوى فضاء أبيض أشبه بضباب كثيف سرعان ما انقشع كاشفًا لي عن مشهد جديد لحديقة غنّاء؛ زهور ونباتات مألوفة لي وأخرى لم أتخيل وجودها على الأرض، طرقات الحديقة كانت متشعّبة على هيئة متاهة نباتية. جداول ماء عذب ونوافير أضفى خرير مائها على

المشهد حيوية مضاعفة، وطيور ملونة يتناغم تغريدها ليعزف لحنًا ملهمًا.

من بين خميلة أشجار جانبية خرجت أميرة بعينين خضراوين لامعتين وأنف دقيق وشعر أشقر طويل يتطاير خلفها، سارت في ممرات الحديقة وهي تتغنَّى بكلمات مبهمة، ثم تلاشى المشهد بأميرته التي ملكت قلبي، وعاد وسواسي للسيطرة عليّ من جديد، واختزل وسوساتي الماضية في خاطر مهيمِن: هناك مكاني!

في تلك اللحظة قررت عدم مقاومة وَلَعي، المقموع، بالرحيل أكثر من هذا، أحصيت مدَّخَراتي فوجدتها أقل من أن تساعدني على تحقيق حلمي، أعطيتها لجدتي وحسمت أمري أن أسافر خلسة، كنت موقنًا أنني لن أحتمل لوعتها إذا عرفتْ بما عزمتُ عليه، الأفضل أن تُفاجَأ باختفائي.

خلال يومي الأخير في ورشة نيروز الفارسي كنت مطيعًا على غير عادتي، نفّذت تعليماته بلا إبطاء أو مجادلة، رحت أتحيّن فرصة يسهو فيها كي أسرق منه خاتمًا بفصّ من الزمرد الذبابي صاغه بتفانٍ لابنة شهبندر تجار مدينتنا، ولم يسلمه لها بعد.

عملنا حتى غابت الشمس، وحين تعب أقنعته بالذهاب إلى بيته، على أن أمرّ عليه لإعطائه المفتاح بعد أن أغلق الورشة، وعندما قال لي إنه يمكنني الاحتفاظ بالمفتاح حتى الصباح، تحجّجت بأني ربما أتأخر في صباح الغد إذ أنوي أن أسهر الليلة في العمل.

كنت مرتبكًا، وأحسّ بتأنيب ضمير. وعندما خيّم الظلام، أطفأتُ النار، والتقطتُ الخاتم، ودسسته بحرص بين ملابسي، قبل أن أغلق المحل وأتجه إلى بيت نيروز الفارسي لأعطيه المفتاح محاولًا مداراة ارتباكي.

لم أرغب في المبيت مع جدتي، ذهبت مباشرة إلى الميناء حيث يلتقي

النهـر بالبحر، تكوَّمت كيفمـا اتفق في ركن منزوٍ انتظـارًا لانبلاج الفجر. كان الظلام دامسًـا، فحرصت على عدم إصدار أدنى جلبة قد تلفت النظر إليّ، كانت القطط المتخمة من أكل بقايا سـمك يتركها الصيادون تمر من فوق جسدي المكوم فلا أهشها بعيدًا، وكائنات تشبه الفئران تحوم حولي من دون أن أراها، فقط أشـعر بحركتها إذ تلمس أطرافي، فلا أتحركُ رغم اشمئزازي.

مع أول خيوط الضوء انطلقتُ بحثًا عن سفينة يقبل ربَّانها بحملي معه إلـى أبعد مـكان ممكن مقابل الخاتم المسـروق. كنت أعـرف أن لا أحد سيرفض لي طلبًا مقابل ذلك الخاتم الثمين. لم أختر لنفسي وجهة محددة كوني أعرف أقل القليل عن البلدان والممالك البعيدة.

قلت لربان أكبر سفن الميناء إني أرغب في السفر إلى حيث لم يذهب أحـد قبلـي، إلى آخر الدنيا حيث كل شـيء مختلف عمّـا عرفته وتعلمته، ضحك الربان من حماسـتي، سـألني عن الأجـرة فأعطيتـه الخاتم، انبهر بـه، وتفحّص جوهرته عميقـة الخضرة بفضول، فأخبرته أنـه أغلى بما لا يقـارن من الأجـرة المطلوبة، وأنـي أتوقع أن يمنحنـي بضائع أو عملات ذهبيـة مقابل الفارق، قلت هذا خوفًا مـن أن يظن أني أجهل قيمة الخاتم، فيتهمني بسرقته.

رحـب بي الربـان على متن سـفينته الموشـكة على الإبحار. أسـرّ لي بأن اندفاعي راقه، إذ لمس فيه شـيئًا من خصـال الرّحالة الأُصَلاء وميلهم للمقامـرة. لم ألتفت إلى الخلـف، كانت عيناي متشـبثتين بالأمام، كأنني أسـتعجل وجهتي التالية وأستبق الوصول إليها. حتى عندما غابت مدينتي فـي الضباب، وباتت على وشـك التلاشـي في سـديم لا نهائـي، لم أَحْنُ عليها بنظرة وداع أخيرة.

بعد أسـابيع من الإبحار سـألتُ الربان إن كان سـمع بجبل من الزمرد، وإن كان يعرف السبيل إليه؟

-تقصـد جبـل قاف؟ لم يسـبق لأحد أن بلغـه. يُقـال إن الأمر يتطلب سنوات وسنوات.

-.......................

-إنني حتى أشـكّ في وجوده. كل ما يُشـاع عنه أقاويل منقولة عن من لم يروه.

-يجب أن يكون موجودًا، وإلاّ من أين نبعت هذه الأقاويل؟

-لم أسـمع عـن بحّار وصـل إليه. يُحكـى أن الطيور وحدهـا يمكنها ذلك.

لم أخبره بأن قاف وجهتي المرغوبة، فقط همست:

-جبل كامل من الزمرد! ما أجمل هذا وأغربه!

تركني الربان لأحلامي، وانغمس في النقاش مع طاقم سفينته. انشغل عنـي في الأيـام التاليـة. فرحت أتعرَّف إلـى المسـافرين الآخرين؛ خليط عجيب من بشر لا يجمع بينهم سوى تسليم كل منهم أمره للبحر وأمواجه، حين كان أحدهم يسـألني عن غايتي من السـفر، أقـول التجارة، خفت أن أكشـف لهم دافعي الحقيقي لأنه عصيٌّ على التصديق، بل سـاورني الندم لسؤالي الربان عن جبل قاف، غير أن ندمي سرعان ما غادرني ليحل محله شـعور جـارف بالرهبة، منبعه ضباب بدأ يخيِّم علـى البحر بكامله لدرجة لم أعد معها قادرًا على رؤية كفي. عماء مطلق سـيطر علينا. كنت محاطًا بعويـل ولطـم ركاب انهـار بعضهـم، مع تكاثـف الضباب لأيـام متصلة، وألقى بعضهم بنفسـه في البحـر. كان البحّارة يصرخون والربان يحاول- عبثًـا - شـد أزرهم. فكـرت أن أقفز في الماء بدوري لكني جبُنت بسـبب

هدير الموج المتلاطم. توسلت إلى الربان باكيًا أن نتوقف في عرض البحر حتى ينقشع الضباب. صرخ فيّ الرجل بأن أملنا الوحيد هو الإبحار بعيدًا عن هذه البقعة الضبابية.

كنا كالعميان في سفينة ضريرة يقودها طاقم فقد عقله، وفوق هذا اشتدت الريح فجأة وطوّحت المركب على نحو مرعب. بعد مدة اتضحت الرؤية، فبان جبل عملاق بالغ السواد، يسد الأفق. صرخ البحارة بهلع: «جبل المغناطيس»! وحاولوا نزولًا على أوامر قائدهم الانحراف بسفينتهم كي يبتعدوا عن الطَّوْد المخيف بدلاً من الاصطدام به، غير أن طاقة هائلة غير مفهومة كانت تجذبنا نحوه. المحاولات اليائسة للابتعاد تبددت في الهواء. تفككت أوصال السفينة بلا سابق إنذار. تحطمت على صخرة جبل المغناطيس الذي جذب إليه مساميرها وحديدها وتركها ألواحًا خشبية متناثرة في لجَّة بحر غاضب.

صارعتُ الأمواج متشبثًا بلوح عريض، ثم غبت عن الوعي وأفقت لأجدني مرميًا فوق إحدى صخور السفح، وإلى جواري الربان لا يزال مغشيًا عليه، وما إن انتبه وأدرك حقيقة ما حدث حتى راح يندب حظه وينتف لحيته حزنًا.

بدا كشخص آخر، سكنه الذهول، وكسرته الصدمة، شرع يهذي بكلمات غير مترابطة عن هيكل المغناطيس العملاق، والأساطير المنسوجة حوله، من بين هذيانه فهمت أن للجبل درجًا صاعدًا إلى قمته، سحبته من يده وخطونا فوق الصخور الملاصقة للبحر بحذر إلى أن عثرنا على الدَرَج. أثناء تسلقنا قص عليّ ما سمعه عن وجود أحجار فضية تسبب جنونًا يفضي إلى الموت. ولسخرية القدر وقع هو في فخها ونجوت أنا منها.

واصـل الناجي سـرد حكايته من لحظـة صعوده مع الربـان حتى إنقاذ طائـر الـرخ لـه مـن مصير بائـس في قـاع الصـدع. وأنصـت الراعي بكل حواسه، مندهشًا من غرابة ما سمع.

التفت الناجي حوله وسأل: أين أنا الآن؟

فأجاب الراعي: في مملكة الجبال والأحجار الكريمة.

لم يعن اسـم المملكة شـيئًا للضيف المتعب، اعتبرها مكانًا يشـبه أي محطـة أخـرى فـي رحلة ضياعـه. تعمّد الراعـي ألاّ يخبره أنـه وصل إلى قـاف، خشـية أن يغادر كوخه من فوره لاستكشـاف المـكان الحلم الذي خاطر بحياته لبلوغه. تمنى الرجل الذي يعيش وحيدًا أن يؤنسه هذا القادم من بعيد لأطول فترة ممكنة.

تذكر أن ضيفه لم يذكر اسـمه مع أنه أفشـى الكثير من أسـراره، فسـأله عن اسمه.

فوجئ الناجي بنفسه يجيب:

-أنا هو، بلوقيا التائه في سديم الزمن، الباحث عن المستحيل!

أطـرق الراعي، ثم أعان بلوقيا على النهوض، وسـنده حتى وصلا إلى خارج الكوخ حيث أجلسه وراح يجمع حطبًا كوّمه أمامه، تشاغل بإشعال النـار، ثم تقليبها، والتحديق فيها متحاشـيًا الجالس في مواجهته، لم يكن ثمـة نباح لكلاب هائجة، أو عواء لذئاب بعيدة كما اعتاد بلوقيا أن يسـمع فـي ليل مدينته الأم، فقط هسـيس خافـت لهوام وحشـرات مضيئة تحلِّق علـى مقربة من النار. كان القمر بـدرًا، وخُيِّل له أنه يختلف عن القمر كما يألفـه فـي بلاده. بدا القمر تلـك الليلة مكتملًا ومتألقًـا على نحو مدهش. اسـتغرق في تأملـه فرآه دائـرة من الفضـة اللامعة تخالطها مسـحة وردية خفيفة. لاحظ ارتباكًا سـكن عينيّ الراعي منذ أخبره باسـمه، لا يدري أي

شـيطان دفعه للنطق بالاسـم بالطريقة التي نطقه بها، كما لا يدري سـبب شرود مضيفه منذ سمع به.

بعد صمت ثقيل تساءل الراعي بطريقة من لا ينتظر جوابًا:

-بلوقيا التائه في سديم الزمن؟

تأمل الشاب الجالس في مواجهته قبل أن يسأله:

-أتعلم من هو سميُّك؟

أجاب بلوقيا بالنفي، فبدأ الراعي الحكي وهو يقرِّب كفيه من النار:

بلغني أن ملكًا من ملوك بني إسـرائيل في مصر كان له ابن يدعى بلوقيا، ولمَّـا مات الملك تولى ابنه الحكم، وفتـح خزائن أبيه فوجد بابًا خفيًا يقود إلى خلوة صغيرة، عثر فيها على كتاب عرف منه صفة محمد نبي الإسـلام، فتعلق بحبه، وقرر أن يسـيح في البلاد على أمل مسـتحيل بلقائه. في جزيرة قابـل حيّات جهنم، وفي أخرى التقـى «ملكة الحيات»، وبوصوله إلى بيت المقـدس تعـرف إلى عفّان – قـارئ التوراة والإنجيل وصحـف إبراهيم – السـاعي لبلـوغ تابـوت الملك سـليمان القابع في مـكان أبعد مـن البحور السـبعة، طمعًا فـي الحصول على «خاتم سـليمان» الذي يتيـح لمن يضعه فـي إصبعـه التحكم في كل الكائنـات. أخبر عفان بلوقيا بغايته وسـمع منه حكايتـه، ثم قال له إن زمن نبي الإسـلام هو آخر الزمان، والسـبيل الوحيد لبلوغه أن يصطحبه بلوقيا إلى ملكة الحيّات ثم يأخذانها معهما كي تدلهما على العشب الذي إذا عُصِر ودُهنت به القدمان يتمكن صاحبهما من السير فـوق الماء. وهكذا يسـتطيعان عبـور البحار مشـيًا حتى الوصـول لتابوت سليمان، وبلوغ بحر الظلمات حيث «ماء الحياة» سر الخلود الذي سيمكِّن بلوقيـا من البقاء حتى يلتقي نبي الإسـلام. «سـاعدني فـي الوصول لملكة الحيات، أساعدك في الاجتماع بنبي آخر الزمان!». قال عفان لبلوقيا.

وصـلا لملكـة الحيّـات، وحبسـاها في صنـدوق حمـلاه معهما حتى دلتهمـا على العشـب وعصراه في زجاجتين، ولَمّـا عرفت غرضهما، بعد أن أعاداها إلى الجزيرة التي أخذاها منها، أخبرتهما أن نيْل خاتم سـليمان مسـتحيل، لأن مُلك سـليمان لا ينبغي أن ينتقل لأحد بعده، وأنه كان من الأجدى لهما أخذ عشـب الخلـود. ندما ندمًا شـديدًا وواصلا طريقهما، عبـرا مـن بحر لآخر حتى وصلا إلـى تابوت النبي سـليمان المحفوظ في مغـارة بجبـل، وحين حاول عفـان الاقتراب لخلـع الخاتـم، أحرقته حيّة تحـرس التابوت، فصار كومة مـن تراب، فيما نجا بلوقيا، واسـتمر هائمًا في بلاد الله من جزيرة تشـبه الجنة، إلى أرض لم يصلها إنسي قبله. التقى ملوكًا وملائكة، طيورًا ووحوشًـا، وفي نهاية ترحاله قابل نبي الله الخِضر الذي أعاده إلى مصر في غمضة عين.

انبهـر بلوقيا بحكاية الراعي، سـرح بخياله مـع ذلك الهائم على وجهه راغبًـا فـي بلوغ آخر الزمان. لم ينتبه إلـى أن الراعي لم يخبره بأي معلومة عن نفسـه، أو عن أسـباب عيشـه في هذا المكان المهجور. لم يسـأل عن السـبب لأنه لم يتصور أن مضيفه كانت له حياة أخرى مختلفة، أو كان له خيار بخصوص مكان عيشه.

تمدّد الراعي على ظهره بجوار النار، متأملًا نجم «الشـعرى اليمانية»، والبـدر الفضـي، ثم أطبق جفنيه على حلم قديم. تناسـى الجالس بجواره وحفيف أوراق الأشجار، وغرق في ذكرياته حين كان يعيش في بيت فخم علـى مقربة من قصـر الزمرد ببسـاتينه الغنّاء. رافقه وجـه زوجته «مروج» المُزيَّن بابتسامة ذكية أوجعته، ففتح عينيه وعاد لتأمل السماء.

***

اسـتمر القمر بدرًا لأسـبوعين متتاليين، تصاعدت أبخرة سـاخنة من

بحيـرات الفضة السـائلة الموزعـة بين أرجاء المدينـة، توقفت الطيور في حدائق قصر الزمرد عن التغريد، غمر الخوف الأهالي وقد بدأوا يسمعون أصواتًا غريبة تنطق بجمل لا يفقهون كنهها، ذبلت الورود وتسـاقطت عن أغصانها، ووقعت زمردة في براثن الصمت من جديد رغم توسلات أبيها إليها كي تعاود الكلام.

كانـت تنظـر إليـه كالتائهة، بـدت عيناها كما لـو كانتا قد انسـحبتا من الواقع، وغرقتا في عالم قصيّ.

اجتمـع ياقوت بحكمـاء الجبل ونُسّـاكه، عـلّ أحدهم يملك تفسـيرًا للتغيرات الطارئة. أنصت مهتاجًا نافد الصبر لنقاشـات بدت له سفسـطة. انتظر كلمات كبير الحكماء، معلم ابنته ومُخرِجها قبل سـنوات من سجن الخـرس، غيـر أن الرجـل تريّث حتـى فرغ زمـلاؤه من جدَلهـم، ثم نطق بجملـة واحدة مفادها أن ما يحدث معناه تعكّر صفو الجبل بقدوم غريب وطأ أرضهم المقدسة في غفلة منهم.

استبعد الملك هذا الاحتمال لأن من شبه المستحيل بلوغ قاف من دون مساعدة العنقاء، كما أن زوجته الغائبة نورسين عاشت لسنوات فوق قاف وهـي غريبة عنه، ومع هذا وعلى سـبيل الاحتياط، أمر الحراس بتمشـيط المملكـة بحثًـا عن أي دخيل. قسَّـم الحراس أنفسـهم إلـى مجموعات، وقـرروا البدء بالأحياء المحيطة بالقصر، على أن يبتعدوا عنها رويدًا حتى يصلوا إلى الأطراف وأكثر الأماكن عزلة.

فـي الأحياء الغنيـة، لم يجدوا صعوبة في التعـرّف إلى معظم قاطنيها، فحتى الأشـخاص غير المعروفين للجنود، كان من السـهل عليهم إثبات معرفتهم بأحد كبار المملكة.

أما في الأطراف فكانت الأسئلة عن تاريخ المملكة وخباياها وأحداثها

البارزة خلال السنوات المنصرمة، وسيلة التأكد من الهوية والانتماء.

بعد أيام، بدأ الملل يتسرب إلى نفوس كثير من الحراس ممن شعروا بأنهم يطاردون اللا شيء. باستثناء الملكة نورسين التي أحضرها ملكهم على متن العنقاء، لم يسمع أي منهم باستقبال أرضهم الزمردية لغريب، غير أنهم كانوا يعاودون التفتيش بهمة كلما طالعهم القمر بدرًا دائمًا، أو أبصروا الورود الذابلة ملقاة في الأرجاء، أو تذكروا خرس أميرتهم المحبوبة وتوقف الطيور عن التغريد. أنبأهم حدسهم أن كارثة غامضة وشيكة الحلول لو لم يتحركوا سريعًا لوأدها في المهد.

كان كوخ الراعي على أطراف المملكة آخر مكان بحثوا فيه. عندما وصل إليه فريق منهم خُيِّل لهم أنه يقع خارج الوجود، واندهشوا كيف يختار أحد سكان الجبل هذه البقعة المنعزلة المطلة مباشرة على الهاوية، للعيش فيها منقطعًا عن الجميع مع توافر أماكن كثيرة صالحة للسكنى وسط العمران.

تأملوا الحرش القريب بحشائشه الغزيرة، والأشجار المثمرة، والأعشاب ذات الروائح العطرية الفوّاحة، وتوقفوا لبرهة أمام الجرف الخطر على بعد خطوات من الكوخ المتقشف المبني من عروق الخشب الجافة، والمعرّش بالغاب المغطى بأغصان غزيرة الأوراق كأنما قُطِعت بالأمس فقط.

اقتحموا الكوخ ليجدوا بلوقيا ممددًا فوق الفراش المبسوط على الأرض. كان وحده، إذ غادر الراعي قبل مدة لرعي قطيعه من الماعز البري. ارتابوا فيه بسبب ملابسه المقطَّعة في أكثر من موضع، وآثار خفيفة لكدمات على وجهه. نظراته المندهشة كانت لا تكاد تستقر على شيء بدت لهم كأنما تحمل غربة الدنيا بأسرها.

-من أنت؟ ومن أين أتيت؟

سألوه بخشونة.

-أنا بلوقيا، جئت من الطرف الآخر للعالم.

جـرّوه إلـى الخارج بعنف غيـر متنبّهين أن للكوخ مالـكًا عليهم أخذه هو الآخر لاستجوابه، وبلوقيا الغارق في خوفه وارتباكه خشي أن يطلب منهم انتظار الراعي.

***

بالقبـض علـى بلوقيا عاد القمـر لدورتـه المعتادة، وواصلـت الطيور تغريدهـا، وتوقفت الورود عن السقوط ذابلة عـن أغصانها، لكنّ الأميرة لم تعد للكلام. استمرت في صمتها وتحديقها نصف الواعي، كأنما تنظر إلى الواقع من حولها من دون أن تراه.

اعتادت في تلك الفترة السير بلا انقطاع. كانت تخطو، طوال الوقت، فـي أروقة وطرقـات القصـر وحدائقه الممتـدة، ترهف السـمع إلى ما لا يدركه سواها، وتواصل تجوالًا لا نهائيًا دءوبًا، ثم امتد تسكّعها إلى خارج حـدود القصر، صـار النـاس يصادفونها تخطو كالمسـرنمة في الشـوارع والأزقة، لا تلتفت خلفها ولا تتطلع نحو أحد أو شـيء. تسـير حتى يهدّها التعـب، فتتكوَّم على نفسـها فـي أحـد الأركان، حينها يظهر الحارسـان، المكلفـان بمتابعتهـا خلسـة، ويحملانهـا إلـى القصر. خلال مشـاويرها المرهقة، يتحاشـى الآخرون اعتراض طريقها، أو حتى المرور بجوارها: يغلـق التجـار أبواب دكاكينهم مختبئين داخلها إلـى أن تمر، ويقف الباعة الجوالون كأنهم طوبة في جدار إذا فاجأتهم في طريقها إلى لا مكان.

الطريق إلى بستان البحر

الأسود هو الجوهر المعرِّف لوجودي، هو أنا
وقد استحلْت لونًا!

احتاجت هدير - بعد عودتها من المكسيك - ثلاثة أيام، قضت معظمها في النوم، لتتأقلم ساعتها البيولوجية على فارق التوقيت. هناك كان الجو مائلًا للبرودة، أما في مدينتها فرطوبة وحرّ الصيف أضفيا بصمتهما على مشهد صاخب أصلًا. فالقاهرة بحرٌ هائجٌ تتلاطم أمواجه كل لحظة بملايين البشر، مدينة الفرص الضائعة والأحلام الموءودة هي مدن عدة في واحدة، مرور مزدحم، إيقاع فوضوي، وجنون لا ينتهي.

بعد الراحة في البيت لأسبوع، مرّت بميدان التحرير في الحادية عشرة صباحًا، فشعرت كأنها في ثكنة عسكرية: عساكر الأمن المركزي كانوا متمترسين خلف دروعهم بتحفُّز، ومدرعات الجيش وقفت قرب مداخل الميدان، الضباط ينظمون المرور بأداء مبالغ فيه، ويرفعون أصواتهم بخشونة متحمسة. الجميع يتصرف كالمنتصر في حرب شرسة.

نظر سائق التاكسي حوله حانقًا: «واضح إن العساكر هُمّا اللي هيعتصموا في الميدان».

أفاقت على واقع كانت قد نسيته في ثاكاتيكاس. فهمت من الرجل أن الجيش أخلى الميدان بالقوة أمس. على واجهة مجمَّع التحرير بدا جرافيتي «ياللي أنتِ حبك حرية» غريبًا وخارجًا عن السياق.

خطـر ببالها ما عايشـته في مطعـم الجبل، تمنَّت لـو أن حياتها تمضي هكذا؛ لو أنها تسـبح في فضاء من تلال زمردية، وسـحب بيضاء، وعوالم عجائبية. شـملتها سـكينة انتشـلتها من محيطها. قررت، لحظتها، البحث عنـي. كانت تعرف أنه فـي زحام القاهرة وفوضاها يشـبه هذا البحث عن نقطـة ماء في محيط. قالت لنفسـها، إنها لن تخسـر شـيئًا، سـيكون الأمر تسلية جديدة تهجرها حين تمل منها.

فكـرت بوسـط البلـد كنقطـة انطـلاق لتصوّرهـا أن امرأة باسـم موحٍ كاسمي لن تسكن إلاّ هناك، في شارع عدلي أو شريف، أو طلعت حرب، وفي بناية عتيقة بسقف مرتفع، وزخارف وتماثيل صغيرة على الواجهات، ومصعد من الحديد المشـغول. بناية شُـيِّدت في عهد الخديوي إسماعيل أو بدايات القرن العشـرين مما يتيح للسيدة المبَجَّلة، التي هي أنا، تصديع رؤوس زائريها القلائل بالشكوى، على عادة شيرويت، من الخراب الذي أحاق بكل شـيء بعد سـقوط الملَكيـة، وبتعداد أفضـال الخديوي، الذي تولَّه في حب الإمبراطورة أوجيني، على مصر الحديثة.

بالنسـبة لهدير، لا بد لامرأة تُدعى «بسـتان البحر» من أن تكون قاربت الثمانيـن، وتحفـظ عـن ظهر قلـب حكايـات كثيرة عـن تاريـخ المدينة: عمارتهـا، شـوارعها، وسـكانها البارزيـن. تخيّلـت الشـابة النزقة شـقتي كمكان شحيح الإضاءة، يعج بمقتنيات ثمينة تراكم عليها غبار يبدو للزائر كأنما يتراكم على جسدي وملامحي أيضًا.

أضحت هدير لا تكاد تغادر وسط البلد. تسير في شوارعها بالساعات يوميًا. في رحلة تفتيشـها عني، صارت تتطلـع بحرص إلى اللافتات فوق واجهات البنايات المختلفة، تقرأ أسـماء الشـوارع باهتمام، لكنّ شـيئًا لـم يقدها إليّ.

في شـقة جَدّتهـا، جلسـت علـى الأرض متربعة، وأضاعت سـاعات وهـي تبحث عني على الإنترنت، وجدت أكثر من بسـتان، لكن لا وجود لـ»بسـتان البحر» تحديدًا. هناك بسـتان سـليم، بسـتان المصري، وبستان الحلبي. لم تعرف قبلًا بوجود كل هذه «البساتين» في المدينة الإسمنتية.

وسّـعت من نطاق بحثها ليشمل «جاردن سيتي»، والمنيل، والزمالك. سـألت عددًا كبيرًا من أصحاب المحلات والمقاهـي، مخترعة حكايات متنوعـة. مرة تسـأل عن الطبيبة بسـتان البحـر الموجـودة عيادتها في هذا الشارع، وأخرى تسأل عن المحامية بستان البحر، وثالثة عن بستان البحر قريبتها من بعيد التي قيل لها إنها تسكن هنا.

«مفيش بساتين بحر. كريم خان معتوه وأنا مجنونة إني بأضيّع وقتي». قالت في نهاية شـهر من البحث الدءوب. فكرت في شـغل نفسـها بتعلم لغة أجنبية جديدة، كما نصحتها شـيرويت، كي تجد وظيفة ملائمة بعد أن تخرجت في الجامعة، بدلًا من أن تصبح رقمًا مضافًا إلى ملايين العاطلين عـن العمل. انتوت التوجه في أقرب فرصة إلى معهد «ثربانتس» للسـؤال عن موعد بدء دورات اللغة الإسـبانية. ومكافأةً لنفسـها على عدم ترددها في اتخاذ قرار مصيري كهذا، اشترت فستانًا جديدًا وباقة قرنفل.

في المسـاء وصلتها رسـالة إلكترونية من كريم، يخبرهـا فيها أن تزور مشـتل «بسـتان البحر» في شـارع أبو الفدا، إن كانت مهتمة بالوصول لي، طلـب منهـا ألاّ تسـأل عني هنـاك، عليها فقـط تفحّص تفاصيـل المكان. اسـتغربت رسـالته لأنه أخبرها في السابق أن الاسـم الغريب سوف يدلها على صاحبته، ورفض مَدَّها بعنوان أو رقم تليفون. استنتجت أن له مصلحة في أن تعثر عليّ، وخاف أن تكون أهملت الأمر، فحاول معاونتها.

توجّهَـتْ في اليوم التالي للزمالك وقطعت شـارع «أبو الفدا» من أوله

لآخره، فلم تجد المشتل. دخلت مقهى «سيلانترو» للراحة قليلًا في جو مكيَّف. طلبت «كافيه لاتيه» بنكهة الفانيليا، وجلست تفكر في كريم ورحلة الجبل. «هل توجد بساتين في البحر؟ المسألة كلها نكتة سمجة ما كان عليّ التورط في تصديقها». لامت نفسها على سذاجة مفرطة دفعت كريم خان للسخرية منها على هذا النحو. حاولت تقليل اهتمامها بالأمر، لكن فضولها كان جارفًا.

وضع النادل المشروب أمامها، وابتسم متلطفًا. سألته عن المشتل وهي لا تتوقع نتيجة، لكنه وصف لها مكانه. قال إنه الأفضل في القاهرة. انتهت من مشروبها بسرعة، وخرجت. على بعد عشرات الأمتار وجدته. كان لا يكاد يُرى إلاّ لمن يعرفون بوجوده مسبقًا. لافتة صغيرة، وباب ضيق يقود إلى سلالم هابطة نحو الشتلات المزروعة في حضن النيل مباشرة.

لاحظت أن الممرات بين النباتات مصممة في أشكال هندسية. كان هناك عامل واحد في قرابة الستين من عمره. بدا هادئًا، غير مكترث إن كانت ترغب في الشراء أم مجرد الفرجة. تشاغل عنها بتنقية التربة حول نبتة زهرتها متوهجة البياض.

أجالت بصرها في المكان فلمحت لافتة مكتوبًا عليها اسم المشتل بخط جميل، وأسفله رقم هاتف أرضي. اندهشت من وجود لافتة كبيرة هكذا بالداخل، في حين أن اللافتة الخارجية صغيرة ولا تلفت النظر. تأملتها مرة أخرى فانتبهت إلى أن رقم الهاتف ليس من أرقام منطقة الزمالك. سألت العامل العجوز:

-عندكم فروع تانية؟

فهز رأسه بالنفي من غير أن ينظر إليها.

دوَّنت الرقم في دفترها الوردي الصغير، وخرجت بهدوء.

في غرفتها جلست تتأمل الرقم حائرة. هل تتصل للسؤال عني أم لا؟ ماذا لو لم يكن لي وجود؟ ثم الأهم: ماذا لو كنت حقيقية؟ أي حكاية غامضة ستتورط فيها ما إن تفتح هذا الباب؟

تربّعت فوق فراشها، وحاسوبها المحمول مفتوح أمامها. من الصالة أتاها صوت نينا سيمون تغني:

«I put a spell on you» فخمنت أن شيرويت تشرب قهوتها صامتة في رحاب صوت تعشقه.

تخيلت هدير أن الدفتر يتراقص أمامها للفت انتباهها. تحول إلى سرداب قد يقودها إلى عالم مخالف لما حولها من ضجيج.

«اتصلي بالرقم. ماذا سيضيرك إن فعلتِ؟ سيقول لك المجيب: هذا رقم مشتل لا منزل سيدة، وسينتهي الأمر بدلًا من أن تعيشي بوهم أنكِ أدرتِ ظهركِ لسر خطير». هكذا ألح عليها وسواسها الداخلي.

جرّبت الانشغال بتصفح الإنترنت. انتقلت من «الفيسبوك» إلى «تويتر» بلا حماس، ثم فجأة مدَّت يدها نحو الهاتف الموضوع فوق «الكومود» المجاور. رفعت السماعة وطلبت الرقم. بصوت متردد سألت عني. قالت إنها تحمل لي رسالة من كريم خان ويجب أن تقابلني. صمت الطرف الآخر ما إن أنهت جملتها. ثوانٍ مرت كأنها دقائق طويلة قبل أن تسمع تساؤلًا مندهشًا:

-رسالة من مين؟

اعتبرت هذا علامة على أنها على الطريق الصحيح، فخرج صوتها واثقًا:

-من كريييييم خاااااان!

-طيب. سجلي العنوان ده وتعالي بكره 01 الصبح.

دَوَّنَتْ العنوان بسرعة. كان في وسط البلد كما توقعت في البداية. بناية عتيقة في شارع عدلي على مقربة من المعبد اليهودي. ضايقها أنها مرت أمامها عشرات المرات في رحلة بحثها السابقة عني، لكن كيف كان لها أن تعرف أن هدفها على بُعد خطوات منها؟

أغلقت الحاسوب ونحّته جانبًا، تمددت في الفراش، أغمضت عينيها فقفز كريم إلى ذهنها، أين هو الآن؟ وماذا يفعل؟

اندهشت لإحساس بالغيرة تسلل إليها عندما تذكرت رفيقته، تساءلت هل ما زالا معًا؟

«يا خبر بفلوس بكره يبقى ببلاش»! شدَّت الغطاء فوق جسدها لتنام.

حلمت أنها تزرع نبته صغيرة. كانت تحفر الأرض بصعوبة بيديها، انكسرت أظافرها، ثم وجدت بجوارها كوبًا من الماء، سكبته في موضع الحفر فطاوعها التراب، واحتضن نبتتها. انتابها فرح شديد وهي ترقب براعم زاهية اللون تنمو بسرعة. تبدَّل المشهد المحيط ليستحيل فضاءً صافيًا، ثم خيم ليل زَيَّنه بدر فضي تشوبه مسحة من وردي خفيف. وتسبح حوله تلال زمرد تشبه ما رأته فوق «سيرو دي لا بوفا».

في العاشرة دقَّت جرس الشقة الموصوفة لها. لم يفتح أحد فكبست زر الجرس مجددًا. أحسّت بحركة مرتبكة في الداخل. انتظرت هادئة تنصت لوقع الخطوات المقتربة، انتبهت لمظروف أبيض صغير دفعه أحدهم من عُقب الباب، التقطتْه لتجد بداخله ورقة مكتوبًا عليها عنوان آخر في الزمالك.

وضعتها في حقيبة يدها وظلت لبعض الوقت واقفةً على أمل أن يخرج لها أحد، ولمّا لم يحدث غادرت متجهة إلى العنوان الجديد، حيث شقتي القريبة من مشتل «بستان البحر».

عندمـا وصلـت، كنت فـي انتظارها. كان البـاب مواربًـا. طرقته طرقة خفيفـة، ودخلـت لتُفَاجـأ بـي أجلـس في عمـق الصالـة أضع سـاقًا فوق الأخرى وعلى شـفتي ابتسـامة هادئـة. بينما تقترب منـي، تعلقت نظرتها بعينيّ المكحولتين بكحل كثيف.

-أهلًا وسهلًا.

قلت، وأشرت لها أن تجلس في مواجهتي.

امتثلت، وسألت بتوجس:

-مدام بستان؟

-أيوة.. أنا!

خمنَّـتْ أني في نهاية الأربعينيات. إحسـاس بالرهبة تسـلل إلى قلبها، وهـي فـي حضرتـي، ترجمته نظـرة تهيُّب لـم تفُتْنـي. تفحصتُهـا بفضول مقصود، بينما أقمع ابتسامة ساخرة كادت تظلل وجهي.

بدورها تأملتني بتمعن. السواد العميق المنسحب على شعري ومقلتيّ وردائي القصير في تناقضه، مع البياض الحليبي لبشـرتي و«الفوتيه» الذي أجلس إليه، جعلني أشبه بمشهد في فيلم بالأبيض والأسود. انتبهت هدير إلى أن الصالة بكامل أثاثها وديكوراتها تقتصر على هذين اللونين. جالت بعينيهـا فأبصـرت باقة زهور بيضاء في مزهرية سـوداء فوق طاولة صغيرة تجـاور البيانـو الفخـم. كان أخضر الأوراق هو الاسـتثناء الوحيـد لثنائية الأسود والأبيض.

قمـت بنشـاط، أوليتْهـا ظهـري، واتجهـت نحـو الشـرفة المفتوحـة. اسـتندت بيديّ علـى الدرابزيـن رافعةً كتفي كأنما أسـتعد للقفـز. وقفتُ أتأمـل النيـل والبنايـات على الضفـة الأخرى منه، السـماء صافيـة، وثمة سرب طيور بيضاء يُحلِّق في الأفق، فيما المدينة تواصل مهنتها المفضلة: اختراع الضجيج.

شـعرت هدير أني أشبه كريم خان في غموضه. تبعتني. وقفتْ خلفي، وقالت:

-لطيف المنظر من «بلكونتك».

ابتعـدتُ قليـلًا وتأملـتُ المشـتل وقد بـدا مـن أعلى كمتاهـة صغيرة بأشكاله الهندسـية المتداخلة. كان البستاني منكفئًا على تنقية التربة حول النباتات، كأنما بقيَ ثابتًا على الوضعية التي تركتْه عليها هدير بالأمس.

استدرتُ إليها أخيرًا، ونطقت بجملة واحدة:

-بالظبط زي ما وصفك كريم. مبادرة وواثقة من نفسك.

-يا ترى أنا مضيّعة وقتي في التدوير عليكِ عشان تجودي عليَّ بكلمة كل خمسين سنة؟

-ودمك خفيف كمان؟

صمتـت هدير وقد شـعرت بسـخافة المسـألة برمتها. انجلى السـحر المحيـط بانطباعها الأول عني، وحل محله ضجر. رأت فيّ صورة أخرى مـن أمهـا، ومن كل الناضجيـن الممتلكيـن لـ«الحقيقة» بحسـب رؤيتهم لأنفسهم.

حدَّقتُ فيها بصمت فتوترتْ. شيء ما في عينيّ أورثها شعورًا بالغرق. بدت لها عيناي الواسـعتان كما لو كانتا تبصران ما خلف الأشياء، وما في الضمائر، وأربكها هذا.

مع تكرار زياراتها لي، ومع جلسـاتنا الممتدة في الشـرفة المُطلة على النيل والمشتل الغافي في حضنه، تجرأت، وسألتني عن سبب عدم وجود ألـوان أخرى في الشـقة وديكوراتها، وعـن الدافع وراء تمسـكي بارتداء الملابس السوداء.

سرحتُ لوهلة قبل أن أقول:

-مش شايفة إن كده أشيك؟

-شيك، بس غريب إن مفيش أي ألوان تانية!

-ممكن تقولي إنها مسألة تعوُّد!

قلتُ باقتضاب، ثم التقطتُ سيجارة رفيعة من العلبة الفضية فوق طاولة الرخام المستديرة أمامي. أشعلتُها وسحبتُ نفسًا عميقًا منها، ثم نفثتُ الدخان إلى الناحية الأخرى، وعدتُ لأنظر نحو هدير:

«ولدتُ في إيران في بداية الستينات، وغادرتها في الثامنة عشر من عمري، عشت لفترة طويلة في أمريكا وأحمل جنسيتها. لم تعد تربطني بمسقط رأسي إلاّ ذكريات وحنين متقطع لشيراز وأصفهان وجبل «ألَموت». في سن السابعة تقريبًا فقدتُ البصر. قبلها مباشرةً كنت أرتدي فستانًا أخضر، وكانت جدران حجرتي مطلية باللون نفسه. في محبس عماي كان هو كل ما تستحضره ذاكرتي من ألوان. تلاشت الألوان الأخرى ولم يبق إلاّ أخضر فستاني وجدران غرفتي. للهرب من أسود الظلام الذي حاصرني لسنوات خمس، كنت أستحضر اللون الوحيد الذي استحوذ على ذاكرتي. عشت حياة موزعة بين الأسود والأخضر. وحين استعدتُ بصري بعد عمليات جراحية عدة، كان تعدد الألوان مفاجأتي المتجددة. اصطحبني أبي في رحلة إلى شيراز لزيارة ضريح سعدي الشيرازي. أوقفني أمام شجرة الحياة المرسومة فوق واجهته، والفسيفساء الملونة بداخله. سرت وسط السعدية وتأملت أزهارها وأشجارها. على مقربة من الينابيع، رقدت على ظهري فوق العشب بينما أحدق في سماء تعد بالكثير».

التزمتُ الصمت فجأة، واختبأتُ خلف ابتسامة، لم تفلح في محو مسحة الحزن الساكنة في نظرتي، ثم تشاغلت بنفض رماد سيجارتي في

المنفضـة. لم تفهـم هدير ما علاقة هذه الإجابة بسـؤالها، وهـو ما أردتُه. ودّتْ لـو تلقي تعليقًا سـاخرًا، لكنّ الأسـى المخيِّم علـيّ منعها، فوجئت بنفسها تمد يدها لتربت على كفي.

اقتدتها إلى غرفة مكتبي، حيث تكاد الكتب المرتبة فوق الأرفف تغطي الجدران الأربعة. عناوين بلغات مختلفة، مصنّفة وفقًا لموضوعها، ومنوعة بيـن مخطوطـات قديمة، ومجلـدات، ورقوق لم ترَ هدير ما يماثلها سـوى فـي الأفـلام التاريخية. ركن كبير من الكتب كان عـن الجبال، وآخر لا يقل عنه عن الحواديت الشـعبية، لكنّ الغلبة كانت لـ«ألف ليلة وليلة»: طبعاتها المختلفة، ترجماتها للغات عديدة، ومؤلفات تتناولها بالشرح والتحليل.

أحسّـت بدوار وعيناهـا تتجولان بين العناويـن المختلفة. على الرغم مـن عـدم ولعهـا بالقـراءة، أدركـت أن مقتنيـات مكتبتي ثمينة بـلا ريب. تمتلـك جدتها مكتبـة عامرة بكتب تتناول حقولًا معرفية شـتى، لكن هنا، الأمـر مختلف. الكتب القديمة صفـراء الأوراق، ورائحـة العتق المنبعثة منها، وحنو لمسـاتي على الصفحات شبه المصفرة، كل هذا أَسَرَّ لها بأنها في مواجهة تُحف ثمينة.

كانت الأجواء في المكتب مغايرة عنها في باقي أرجاء الشقة الفخمة، فبمجـرد ولوج مخزن الكتب هذا ينتقل المـرء في عمق الزمن، إلى عصر الوراقين القدامى. تحسست هدير المجلدات بحذر فيما تابعتُها بفخر من يملك كنزًا يعرف قدره جيدًا.

جلسـتُ إلى المكتب، وأشـرتُ لها بالجلوس إلى الكرسـي المقابل. تخللتُ خصلات شـعري بأصابعي، ثم أشعلتُ سيجارة جديدة. أسندت رأسي إلى ظهر الكرسي مغمضة عيني لثوانٍ وأنا أنفث الدخان لأعلى.

اعتدلتُ في جلستي وقلت لهدير:

-عايزاكِ تشتغلي معايا.
-أشتغل إيه؟
-بأعمل دراسة موسعة ومحتاجة مساعدة في تفريغ المادة المجموعة.
لم ترد هدير، فواصلتُ:
-هتساعديني في تفريغ وتحليل تسجيلات لحواديت شعبية شفوية جمعتها من ناس عاديين. هأدربك إزاي تعملي ده وهتاخدي 1000 دولار في الشهر. قلتِ إيه؟
-أوكي.. أجرّب. بس دراستك عن إيه بالظبط؟
-عن بطلات ألف ليلة في الحكايات الشعبية.
بانت مسحة سخرية في عينيّ هدير، التقطتُها على الفور فبادرتُ:
-صدقيني الموضوع مش ممل زي ما يبدو، بالعكس.
قلتها بطريقة من يطلق نبوءة يثق من تحققها. أحبّت هدير الطريقة التي تفوَّهت بها بجملتي. بدت لها وعدًا بمغامرة ما، والأهم أنها شعرت أن هذا قد يقودها لكشف غموض ما اختبرته مع كريم. أكملتُ تدخين سيجارتي، فيما راحت عيناها تسرحان بين العناوين المرصوصة بعناية فوق الأرفف. لفت نظرها كتاب بعنوان: «الطريق إلى جبل الزمرد».

الغرق في مرآة

أما أنا فلن أسير على دربهم. سيكون التجديف
وسيلتي لبلوغكِ والإيمان بكِ مجددًا.

أمر الملك ياقوت بحبس بلوقيا في زنزانة مظلمة تحت الأرض، على أن يُعرَض عليه بعد أسبوعين. كانت تلك أصعب أيام مرت عليه. تحطم السفينة ومقاومة الغرق في البحر واحتمالية الموت فوق جبل المغناطيس، لم تكن على هذا القدر من السوء. مر الوقت عليه بطيئًا. لم يعرف ليله من نهاره. كان يغمض عينيه ويسرح بين ثنايا طفولته، يستحضر أجواء مدينته القصيَّة، ويفكر في جدته العجوز متسائلًا عن حالها. لم يندم على ارتحاله، لإيمانه بأن طريقه مرسوم قبل مولده، وما كان عليه سوى الامتثال لأقداره.

حدس أن مرحلة من حياته على وشك الانتهاء. أرهف حواسه غير المشوَّشة بالضوء أو الصوت، كي يستبين هل الموشك على الانتهاء محض مرحلة أم حياته نفسها، غير أنه عاد ليتخوف من مجرد التفكير في هذا الخاطر، أبعده عن ذهنه وكأنما بهذا يتقي المصير المشئوم.

تناهى إليه، صوت خطوات ثقيلة تقترب. أصاخ السمع إلى الوقع العنيف المتصاعد أمام زنزانته، فتناهت إليه همهمات لم يفلح في فك شِفرتها، ثم انفتح الباب. اقتاده الحراس معصوب العينين ومقيد اليدين

إلى الملك المتربع على عرش من الزمرد البرّاق، وإلى جواره ابنته الهائمة في ملكوت الصمت. فكوا وثاق يديه، وأزاحوا العصابة عن عينيه فصعقه نـور القاعة. غطـى وجهه لبرهة حتـى يعتـاد التعامل معه. انتظـره الملك بصبر، لم يرغب في استعجاله أو الضغط عليه. كان يعرف أن بقاءه وحيدًا في زنزانة ضيقة ومظلمة لمدة جهَّزه لاسـتجواب مثمر، وبالتالي لا حاجة إلى مزيد من الإرهاب.

كان وجـه الأميرة أول مـا صافح عيني بلوقيا حين فتحهما. تعرّف فيها إلى جميلة رؤياه بالسوق المزدحم.

سأله الملك:

-كيف بلغت قاف؟

ذُهِـل بلوقيـا، فحتى تلك اللحظة لم يكن يعـرف أنه وصل إلى وجهته المشـتهاة. أيامـه لدى الراعـي كانت فترة نقاهـة، لم يكد يخـرج فيها من الكـوخ، ولـم يبصر صخـور الزمرد أو ينتبـه إلى تراب المسـك والحناء. تسارعت دقات قلبه وهو يرنو إلى وجه الملك برجاء، ثم قال:

جئـت إلـى قـاف مـن جبـل المغناطيس. أتذكـر أنـي كنـت مرميًا في جب عميـق، أفتح عيني بالـكاد فأواجه ظلامًا مقيمًا، جسـدي كان مثخنًا بالجـراح، والألم يعتصرنـي. كان ثمة وحوش تسـتعد للانقضاض عليّ، ثـم حط كيان ضخـم فوقي، ورفعني للأعلى. خمنـت أنه طائر لأني كنت محمـولًا بمخالب ضخمة تقبض على ملابسـي. غبت عـن الوعي، ومع هذا كنت أشـعر بتأرجحـي المخيف. تحول العالم كلـه إلى دوار، وحين أفقـت ظننـت أن الطائـر رماني في بقعـة أخرى من جبـل المغناطيس، أو على مقربة منه.

لم يشـر بلوقيا إلى الراعي الذي استضافه خوفًا عليه من بطش الملك. عاد الأخير ليقول:

-لم أسمع قبلًا بإنسي نجا من لعنة جبل المغناطيس!

فحكى بلوقيا قصته من أولها، لم يغفل حتى أكثر تفاصيلها عصيانًا على التصديق، حدثه عن هاجس السفر المستحوذ عليه منذ الصغر، والمشهد الذي تشكل أمامه في السوق، ورؤيته للأميرة زمردة تتجول في حديقة على هيئة متاهة.

لم يكن الملك ليصدقه لولاّ أنه وصف حديقة المتاهة النباتية بكل دقة. كان بلوقيا يختلس النظر، بينما يحكي، إلى الأميرة الصامتة. لم يبد عليها أنها تراه أو تسمع ما يقول. كان عقلها في مكان آخر خارج القاعة، بل خارج حدود قاف.

سأله الملك: ما معنى أن تكون صائغًا؟

شرح أنه يتعامل مع الجواهر والمعادن النفيسة، أشار إلى الزمرد الذي يغطي جدران القاعة، وقُدّ منه كرسي العرش، وإلى أحجار ماس، وياقوت، وفيروز تزين الحوائط والسقف. قال إنه لم يرَ في صفاء ونقاء جواهر المملكة، فقطعة صغيرة من هذا الزمرد شديد النقاء تشكِّل ثروة هائلة في بلاده.

اندهش الملك، يعرف أن الزمرد حجر جميل، بل هو الأجمل من وجهة نظره، لكن توافره هكذا في المملكة، في الصخور وجسد الجبل والأحجار، يجعله متاحًا لدرجة لا يفكر معها أحد سكان قاف فيه كسلعة تُباع وتُشترى. لم يخبر بلوقيا بهذا، فقط أنصت إليه حتى انتهى من كلامه، ثم سأله على سبيل الاختبار عمّا يعرفه عن الزمرد.

أجاب بلوقيا بأن الحجر الأخضر الشفاف يدخل في تركيب أدوية تعالج تأثير السم، ويبطل السحر، ويقوي الذاكرة، ويزيد الذكاء، ويقطع النزيف، ووضعه في الفم يروي العطش. ومن أنواعه: الذبابي، المسمّى بهذا لأن

حاملـه لا يقـع عليـه الذباب، وهو أرقـى أنواع الزمـرد. والريحانـي، بلونه القريب من لون أوراق الريحان. والسـلقي، المنسـوب لونه لنبات السـلق. والصابونـي، وهو أردأ الأنواع. وأضاف أن هنـاك نوعًا نادرًا إذا نظرت إليه الأفاعي سالت أحداقها على خدودها وفقدت بصرها في الحال.

هز الملك رأسـه بغموض، لم يُفهَم منه هل صفح عن بلوقيا أم لا، ثم قال بصوت بين الوعيد والطمأنة:

-سـتبقى في غرفتين على الحدود القصية لحدائق القصر. مهمتك أن تحيـل أحجـار الزمرد إلى حلي، كما أخبرتنـي أنك كنت تفعل في بلادك. وإذا لم تعد ابنتي إلى سـيرتها الأولى سـريعًا، سـيكون لي معك شأن آخر.

***

حوّل بلوقيا مقره الجديد إلى نسـخة من ورشة معلمه نيروز الفارسي. وضع المصابيح في الأماكن نفسـها، وجعل النار تتوسط المكان، وفرش بُسـطًا وأرائك تذكـره بماضيه هناك. فـي أحد الأركان جهّز لنفسـه مكانًا للنوم يشبه فراشه المبسوط في بيت جدته.

عكـف على صقل الزمرد وتشـكيله في صورة حلـي فريدة من خواتم وتيجان وأسـاور وقلائـد من الذهب والفضـة والبلاتين مزينـة بالجواهر الخضـراء. مـا إن ينتهي مـن قطعة حتى يَصُفّها في صندوق خشـبي مبطن بالقطيفـة، ويبـدأ العمل فـي غيرها. لم يتخيـل أن العودة لممارسـة مهنته سـوف تسـعده هكذا، كان يبث الجواهر والمعادن النفيسـة حنينه لمدينته ومعلمـه وجدتـه وأماكن صبـاه. تخطر الأميـرة في باله فيبتسـم ثم تعقب ابتسـامته سـحابة تجهم تعكر صفو ملامحه، إذ يتذكـر أن الملك قد يقتله إن لـم تُشف.

كان الطعـام يصلـه مع خادمـة مرتين يوميًا، في الصبـاح وقرب حلول الظـلام، اعتادت أن تتلـكأ، وتجيل بصرهـا في أرجاء الورشـة، تتفحص بلوقيا وهو منهمك في عمله غير منتبه إليها، ثم تغادر.

جاءته في يوم بالطعام قبل موعدها، كان الباب مواربًا كالعادة، وبلوقيا راقـدًا فـي فراشـه يفكر في أنه أشـبه بالسـجين في أبعد مـكان ممكن عن موطنـه. أغلقت البـاب بهدوء ووضعت الوجبة خلفه، وتسـحبت صوب بلوقيـا. أفغمتـه رائحتها مـا إن اقتربت منه، مسـت كتفه، اسـتدار ليجدها تتأملـه بنظرة داعية. تخففت من ثيابها وجلسـت بجـواره فاعتدل مأخوذًا بالمفاجأة. كانت جميلة بشعر بني طويل وعينين مسحوبتين لأعلى وأنف مسـتقيم وشفاه مكتنزة. دنت أكثر وهي تتحسـس صدره، فجذبها إليه في قبلة نهمة، بينما يجوس تضاريس جسدها بيديه.

ارتمـت فوقـه وأغرقته في موجة من القبـل المتتالية فيما أغمض عينيه متخيلًا زمردة، صعدت به إلى ذرى لم يبلغها قبلًا، شعر أنه يتقلب في عالم مفعم بالروائح والرغبات والعواطف، استسـلم لها وهي تقوده في دهاليز لذة جديدة عليه، حين انتهيا، لملمت ملابسـها وارتدتها على مهل، ألقت نظرة أخيرة عليه وهو ممدد في فراشه عاريًا مغمض العينين، وخرجت.

انتظرها في المسـاء، لكنها لم تأت. نابت عنها خادمة أخرى في حمل الطعام إليه. خاف أن يسـأل عنها كي لا ينكشف أمره. بدأ في الخروج من ورشته للتجول في حديقة القصر علّه يراها.

بـدلاً منهـا صادف زمـردة سـاهية علـى حافة بحيـرة تطالـع صورتها المنعكسـة فيها باسـتغراق، عاد إلى ورشته وفي باله أن يصنع لها مرآة من الفضـة مزينة بالزمـرد والياقوت والمـاس كتلك التـي كان يصنعها نيروز الفارسـي لأثريـاء مدينتـه. رغب فـي صياغة تحفـة ترقى إلـى جمال من

خلبت لبَّه، على مدى أسـبوع أجهد نفسـه في صقلها وتزيينها بالجواهر، ثم انتظر ظهور الأميرة.

بعد أيـام ثلاثة رآها تدخل خميلة مجاورة للبحيـرة، فتبعها محاذرًا أن يـراه أحـد. كانت تجلس إلـى أريكة محاطة بورود متعـددة الألوان، حين اقتـرب منها وأعطاها المرآة دونما كلام. اسـتحوذت عليهـا تمامًا، ظلت تحـدق فيهـا وهي تبتسـم أو تعبـس أو تتظاهر بالدهشـة. اسـتمرت تبدِّل تعبيـرات وجههـا وبلوقيـا يتابعها حائرًا. بعـد قليل قالـت موجهة كلامها لانعكاسها: «أنا زمردة أميرة قاف. من أنتِ؟».

لم يصدق بلوقيا أنها نطقت أخيرًا. ودّ لو يخبر الملك في الحال لإنقاذ نفسـه من العقوبة المسلطة على رأسه، لكنه خاف من أن يكون في اقترابه من زمردة ما يسـتدعي عقابًـا لا يقل خطورة. ظل سـاكنًا حتى انتبهت له. سألته: من أنت؟ وكيف صنعت هذه التحفة الرائعة؟

أعاد سرد حكايته فيما أنصتت باهتمام تضاعف حين عرَّج على الزمرد وأنواعه. عندما أخبرها بأمر النوع المسـيل لأحداق الحيات، فكرت على الفـور في أمها المفقودة وملكة الحيّات. شـعرت أن اختراق هذا الغريب لعزلـة قاف لـم يحدث عبثًا، بـدا لها كعلامـة على صواب سـعيها، أمرته بالبحـث بين صخـور قاف عن هذا الزمرد. لم يفهم سـر حاجتها له، ومع هذا انهمك في التفتيش عنه طلبًا لودِّها، منشـغلًا في الوقت نفسه بتشكيل المزيد من الحلي. شـعر أنه وصل لأقصى ما يسـتطيعه في مهنته، تمنى لو يشـهد نيروز الفارسـي هذا. قال لنفسـه، إنه لـو قُدِّر له العـودة إلى مدينته سـتكون ورشـة معلمه هي وجهته الأولى، سـيحمل له نماذج من الحلي التي صاغها، وأحجارًا من زمرد قاف الفريد. سـيكون هذا تعويضًا مناسبًا عن خاتم ابنة شهبندر التجار الذي سرقه عند رحيله.

انبهر الملك حين أبصر الحلي والتيجان التي انتهى بلوقيا من تشكيلها، وزاد انبهاره حين طالع المرآة الفضية المزينة بالزمرد والماس والياقوت. ضاعف هذا من محبته لمن شفى زمردة وأعادها لسابق عهدها. باتت ثقته فيه مطلقة.

لم تكن المرايا شائعة في قاف، كانوا يطالعون وجوههم على صفحة الماء، أو الأسطح المعدنية المصقولة، ولم يتخيلوا أبدًا إمكانية امتلاك مرآة على هذا القدر من الصفاء، بدت للملك اختراعًا معجزًا، أراد أن يقصره عليه هو وابنته فقط. «سأقطع رأسك إذا صنعت مثلها لآخرين»! قال لبلوقيا بصوت يمزج المداعبة بالوعيد.

بعد أسابيع أحضر بلوقيا للأميرة أحجارًا عديدة من الزمرد المسيل لأحداق الحيّات، وترجاها أن تخبره بالغرض منها، فحكت له عن الحية المحيطة بقاف. وصفت له حجمها فارتعب وباح لها بخشيته من أن هذا الزمرد قد لا يكون كافيًا مع حيّة بهذه الخطورة، وقد يزيد من شراستها بدلًا من القضاء عليها.

حدَّثها عن جبل المغناطيس، وعن صديقه القابع هناك، وأحجار الجنون الفضية وكيف يمكنها أن تتحد مع تأثير الزمرد لإحداث الأثر المرجو. قال هذا بفتور كونه يدرك استحالة السفر إلى هناك. لمعت عيناها حين تذكرت ما سبق أن تناهى إليها عبر الوصيفات من أن ملكة الحيّات ضللت أمها وتركتها في غياهب جبل المغناطيس. رأت في المبادرة بالذهاب إلى هناك فائدة مزدوجة ممثَّلة في محاولة البحث عن أقرب مخلوقة لقلبها، وجلبِ ما قد يساعد على التخلص من ملكة الحيّات مما يُخرِج قاف من عزلته.

لطالما اقترن جبل المغناطيس في ذهنها باللعنات والأساطير المخيفة،

ومنـذ اختفت والدتها صار مرادفًا للموت فـي مخيلتها. طمأنها أن بلوقيا سبق له أن غادره سالمًا، وأن هناك إنسيًا يقيم هناك. منحها هذا أملًا في أن أمها قد تكون نجت بطريقة أو بأخرى.

استوقفها لوهلـة أنهـا ممنوعة مـن امتطاء العنقـاء، قبل سـن الحادية والعشـرين، حذرهـا والدها من لعنة سـوف تحيـق بالمملكـة إن فعلت. لكن سـرعان ما خطر ببالها أنه حتى سـنوات مضت كان التدوين ممنوعًا في قاف بحجة خرقه للناموس المقدس، ثم سـمح به والدها حفاظًا على ذاكرة الجبل وتاريخه دون أن يجلب هذا أي لعنة، سـخرت في سـريرتها من هذه الأفكار البالية.

تذكـرت أمهـا وكـم كانـت مختلفـة عـن كل سـكان قـاف، لـم تكـن تؤمـن بمعتقداتهـم وخرافاتهـم، ولطالما حكـت لها عن مدينتهـا البعيدة «جولسـتان» وشوقها إليها. قالت زمردة لنفسها إنها تشبهها أكثر مما تشبه أباها. تذكرت أنها طلبت منه – حين اختفت أمها – البحث عنها في مسقط رأسـها، فأخبرها أن «جولسـتان» سُـوِّيت بالأرض قبل مـدة، لم تصدقه، ظنّت أنه يخدعها كي تكف عن توسلاتها له بأن يأخذها إلى هناك.

اسـتغلت زمردة عكوف والدها في خلوة لمدة شهر في الجانب الآخر من قاف، وغادرت على متن العنقاء بصحبة بلوقيا.

مدينة مبللة بالمطر

الأسمى من الجبال فكرة الجبال: أن ترمق العالم من علٍ، أن تصير أنت الجبل وهو أنت!

في «ساوث شيلدز» المدينة البريطانية المنعزلة على بحر الشمال، وقفتُ - قبل سنوات على لقائي الأول بهدير - وسط غابة صغيرة ينفتح عليها فندق «Little Haven». الهواء كان مُشَبَّعًا برائحة اليود، والطقس شديد البرودة لدرجة شعرتُ معها أن دمي على وشك التجمد.

كان ثمة فنار ونوارس يزدحم بها الشاطئ الملاصق للفندق الصغير، وضجة محببة لعرس يجري الإعداد له في الساحة أمامه، لكنّي غرقت داخل الغابة وانفصلت عمّا حولي. في ذهني كانت هناك طفلة صغيرة تتعثر في خطوتها وهي تركض خلف أبيها على مقربة من أطلال قلعة «ألَموت»؛ طفلة نُذِرت منذ مولدها لهدف بعيد المنال، وباتت قاب قوسين أو أدنى من إنجازه.

تملكتني رغبة قوية في ترك بصمة وحفر أثر في مكان اخترقني منذ اللحظة الأولى، وأحدس أني لن أزوره مجددًا. ولأني أعشق الأشجار فكَّرتُ في أن حفر اسمي على جذع إحداها عمل بشع، كأنما أجرح إنسانًا. بخطوات بطيئة تستلذ بلمساتها للأرض، اتجهتُ نحو الفنار على

الشـاطئ، أخرجت قلمًا أسود من حقيبتي، وكتبتُ على الهيكل الخشبي: «اسـمي بسـتان البحر، أو بوستان دَريا، أو باغ دَريا، لا فارق! أغادر العالـم علـى أطراف أصابعي في طريقي إلى جبل الزمرد. إن لـم تُبعَث أميرتنا من جديد سـأفنى في رمادي الخاص، سـتتبخر كلماتي كأنها لـم تكن. من له أن يؤبِّد الحكاية؟ من سينقيها من آثار التحريف بحيث تبطل اللعنة وينفك السحر!».

المدينـة التي اسـتقبلتني بمطر غزير وجو عاصف، وودعتني بشـمس دافئـة، جعلتني بين الاسـتقبال والـوداع أتمنى لو أفقـد ذاكرتي لأولد من جديـد في هـذا المكان المنسـيّ على أطـراف العالـم. تمنيـت، وأنا فيها، لو كنت امرأة عادية كملايين النسـاء، أحب وأتزوج لأنجب، أو أتمسـك باسـتقلاليتي وأنتقـل من حـب لآخر بلا نـدم أو تردد. امـرأة تحمل أعباءً عادية لا حمل ثقيل يجعل روحها رهينة له.

حيـن وصلت إلى «سـاوث شـيلدز»، كانت الشـوارع خاويـة والمطر غزيـرًا، شـعرت أني بداخل فيلم لـ»هيتشـكوك»، شـخصية فنيـة تنتظر ما سيفاجئها به خالقها.

رطوبة البحر. رائحـة المطر. أصوات النوارس. تماثيل طيور البطريق في السـاحة أمـام الفنـدق، والغابـة الصغيرة فـي مواجهته، كلهـا لا تزال محفورة في ذاكرتي كأني غادرتها بالأمس.

شـيء واحد نَغَّـصَ عليَّ إقامتي الهانئة في المدينـة الهادئة: كانت خالية من الجبال. منبسطة ومسطحة. تختال بجمالها وصمودها الطويل في وجه العواصـف الثلجية وأمـواج البحر، غافلةً عن أن انبسـاطها هذا، ليس نقطة إيجابية تُحسَب لها في عرفي، لأنها على هذه الصورة، بلا عِرق خفي يربطها بجبل قاف، وبالتالي تفتقر إلى ما يساعد على استعادة أميرتي الغائبة.

وَدَّعَتُ المدينة متألمة من أني لن أستطيع المكوث فيها أكثر. بحقيبة صغيرة وملابس شتوية ثقيلة وصلتُ إلى مدينة أخرى هي «إنسبروك» الواقعة في منطقة الألب النمساوية. حين خطوت خارج محطة القطار الرئيسية صافحتْ عيناي جبلًا بدا أشبه بجدار صلب تتكئ عليه المدينة الوادعة.

منظر قد لا يروق للكثيرين، إذ يشعرهم بأنهم في مواجهة حاجز قاهر يحاصرهم ويقف حائلًا بينهم وبين الأفق، لكنه بالنسبة لي كان قَبَسًا من نور الوطن الموغل في القدم، كما سمعت عنه في حكايا أبي التي نقلها بدوره عن أسلاف كانوا يتبادلون حكيها في جلساتهم حول النار الموقدة طلبًا للدفء فوق قمم جبال لجأوا إليها بديلًا عن جبلهم المفقود.

لم أحتج إلى عربة أجرة تقلّني إلى الفندق، كونه يبعد خطوات قليلة عن المحطة. سرتُ ببطء في الطقس بالغ البرودة، والجبل في مواجهتي حتى وصلتُ إلى محل إقامتي في Adamgasse.

كان فندقًا بسيطًا، موظف الاستقبال فيه أربعيني دائم التجهم بلا مبرر واضح، ورأسه متوّج بشعر أشقر غزير. دخلتُ غرفتي، وقبل أن أفرغ حقيبتي من الملابس، فتحت الستائر، كي أتأكد من أن الغرفة تُشرف على الجبل، كما طلبت من الرجل. تغاضيت عن انقطاع الإنترنت معظم الوقت، وعن تواضع الخدمة في الفندق مقابل هذه الإطلالة.

جلستُ على إفريز النافذة الداخلي العريض أرقب الجبل - كأنما سيمدني بمبتغاي - وأنتظر رسالة إلكترونية من تاجر مخطوطات يعيش في فيينا وأحاول منذ سنة الوصول إليه، وأظنني اقتربت من هدفي، وعلامتي عودة الأفق الداكن لمخايلتي منذ وصلتُ إنسبروك.

طوال عمري تقريبًا عشت مطارَدة بأفق أسود يتراءى لي، يهجرني

لفترات، ليعود أشـد عزمًا على ملاحقتـي! حينئذ أجده أمامي أينما كنت. يرافقني كأنه مرآة تعكس جوهري، تعكسني وقد استحلت لونًا.

يهجرنـي فـلا أعرفني ويغيـب عني مغـزى وجودي. يحـدث هذا في لحظـات ضعفـي وابتعادي عـن روح الأميـرة الغائبة، وغرقي فـي ابتذال اليومـي والمعـاش. لا بد مـن أن روحها تكـون ناقمة عليّ، لـذا تحرمني ممّا يذكِّرني بها، من اللون الذي خيّم على فضاء جبل الزمرد بعد تفحمها وتحولها إلى حفنة رماد.

فـي الأوقـات المماثلـة، أعتكـف منعزلـة عـن العالم، وأسـتغرق في ابتهالاتـي الخاصـة. أول مرة اصطدمـت بهذا الحاجز الأسـود كانت في سـنوات عمـاي؛ فـي الواقـع لم أكن أواجه شـيئًا غيـره، وبعـد أن عاد لي بصـري، صـرت أراه بـلا مقدمـات، أغمض عينـيّ ثم أفتحهمـا على أفق حالـك، أدقق فيه ويخطر لي أني فقدت البصر ثانية، قبل أن يختفي ويعود العالم لطبيعته.

هنـا فـي إنسـبروك تراءى لـي مرارًا، لـذا صـرتُ متأكدة مـن أن تاجر المخطوطـات هذا سـيرد على رسـالتي قريبًا، وصلني أن لديـه مخطوطًا يُفصِّل رحلة نزوح أسلافي وتيههم ويشرح أيضًا بداية انتقالهم من الشفاهة إلى التدوين. مخطوط بالغ القدم، كان بحوزة ناسك جبل «دماوند».

اسـتغرقني منظـر الجبـل وشـردتُ فيـه، بدا أشـبه بمسـتطيل عملاق منحوت بيد نحّات مثابر لا من صنع الطبيعة. نظرتُ إلى الشارع بالأسفل فقابلتنـي واجهـة محل للتحف والأقنعـة الإفريقية، وبجـواره مقهى على زجاجـه الخارجـي إعـلان عن توفـر الإنترنـت. نزلت من فـوق الإفريز، بدّلت ملابسي، واصطحبت حاسوبي المحمول متوجهة إلى المقهى.

هناك تصفحت بريدي الإلكتروني فلم أجد الرسالة المنتظَرة. اتخذت

مـن المكان مقرًا لـي في المدينة، أتجول في الشـوارع بالسـاعات، مولية وجهي نحو الجبل قدر اسـتطاعتي، أختار مطاعم صغيرة عشـوائيًا لتناول طعامـي فيهـا، وأعود إلـى المقهى للاطمئنان هـل ردّ علـيّ الرجل أم لا. أحتسي قهوتي المُرَّة، وأقرأ بنهم، وأعيد فك وتركيب قصة الأميرة الغائبة فـي خيالي محاولةً وضع يدي علـى تناقضاتها وأجزائها المُحَرَّفة، قبل أن يهدني التعب فألجأ إلى غرفتي طلبًا للراحة.

ظللـت علـى حالتـي هـذه لأيـام ثلاثة، وفـي الرابـع وصلتني رسـالة إلكترونية مختصرة يبلغني فيها تاجر المخطوطات أن أقابله في الخامسـة من مسـاء الغد بفيينا. كلماته التي بدأت بـ«أهلاً بسـتان» كأنما يعرفني منذ زمـن، انتهـتْ بعنوان تفصيلـي، على مقربة مـن متحف «ألبرتينـا»، دوَّنته بحرص في دفتري، وحجزتُ تذكرة في القطار المتجه إلى فيينا صباحًا.

***

المدينة مبللة بالمطر.

الأرصفة مرايـا ممتدة بفضل اللون الفضي للمياه. إعلانات الشـوارع طافحة بالشـهوة: فتيات شـبه عاريات بنظرات داعية ورجال يستعرضون أجسـادهم الرياضيـة. محلات الجنس أو ملصقـات الدعاية لها تلوح هنا وهناك. حسـية ما تجعل الشـبق كأنما يسـيل في الهـواء، ويُغلِّف الفضاء، ويمنح حتى للمطر رمزية أخرى، فتبدو «فيينا» - رغم أسـاها - قطة شبقة تلعق الماء عن فروها وتستسلم لكسل صباحي.

وهو لـم يكن خارجًا عن سـياق مدينته، كأنـه تماهى معه وتبناه وجعله لصيقًـا بـه. حين دخلـت القاعـة الفخمة، كان هناك، بجسـده الممشـوق وملابسـه الأنيقـة، في ركن منزوٍ يتحـدث ضاحكًا مع ثلاث نسـاء. يبتعد قليلًا ممسـكًا بكأس النبيذ الأبيض، ثم يعود ليلقي جملة تضحكهن. كان كأنما يضبط إيقاعهن الداخلي بكلماته.

اقتربـت منه بعـد أن خلعت معطفي المبتل، رمقنـي بنظرة خاطفة وإن كانـت متفحصة، ثم عاد ليكمل حديثـه. ظننت لوهلة أنه لم يرني كونه لم يرد على ابتسامتي المحيِّية وعاد لمواصلة نكاته.

كنت سـأتوقف على بعد خطوات في انتظـار أن ينتهي، غير أنه انحنى ليهمـس في أذن إحدى السـيدات، ثـم توجه نحوي مرحبًـا بوجه متهلل. بحركة مسرحية فتح ذراعيه عن آخرهما من دون التخلي عن كأس النبيذ. أحنى رأسه وركبتيه قليلًا ثم قبّل يدي: أهلًا سيدتي الغامضة!

قال بصوت مبحوح وبإنجليزية رصينة، فشـعرت بأني أصبحت محط انتباه نسائه الضاحكات.

«غامضـة! يا له من وصف. من منا الغامـض؟»، كان هذا أول ما خطر ببالي لأنه اسـتعصى على قدراتي كما لو كان عرف بسـعيي خلفه، وتعمد مراوغتـي، ونصـب بيننـا حاجزًا منعنـي من قـراءة أفـكاره. رددت تحيته بحـرارة، بينما أفكـر في أن المعلومات التي جمعتها عنه، كانت شـحيحة للغايـة رغم مسـاعدة معارفي، بـدا لي كرجل يعيش فـي الظلال، يلاعبها ويرقص معها متحاشيًا الضوء والوضوح.

اصطحبنـي إلـى ممر طويـل ينتهـي بغرفة مكتـب معزولة عـن القاعة الخارجية. أغلق الباب بحرص وجلس إلى مكتبه طالبًا مني الجلوس في مواجهته.

-عن أي مخطوط تبحثين؟

-أنـا مؤرخـة. أحتاج المخطـوط المعـروف بـ»النزوح إلـى العالم». اقتفيـت أثـره طويلًا بلا طائل، هناك نسـخ مفبركة عثـرت عليها لا علاقة لها بما أفتش عنه، وفي النهاية وصلني أن المخطوط الأقرب إلى الصيغة الأصلية لديك.

ابتسم وهو يشعل سيجارًا التقطه من علبة أمامه، ثم قال:

-الإجابات الطويلة تخفي أسرارًا!

-أو تموِّه على الارتباك والخجل. أجبت مع ضحكة أردتها أن تبدو جذابة.

-أوكي سيدتي المرتبكة. قلتِ «المخطوط الأقرب إلى الصيغة الأصلية»، وليس «المخطوط الأصلي» وهذا مثير للاهتمام!

تفحص ملابسي السوداء، فيما قلت وأنا أضغط على مخارج حروفي:

-لا أرغب في إضاعة المزيد من الوقت. مستعدة لدفع ما تريد من مال مقابل المخطوط. بل حتى يمكنك الاحتفاظ به، ما أريده هو نسخ محتواه. صفقة رائعة لا يرفضها عاقل.

-ولا يقبلها فضولي قبل معرفة السر الكامن وراءها!

رد ببرود، ثم سأل وهو ينظر في عينيّ:

-تفتشين خلف حكاية ابنة ملك قاف؟ أنتِ بوستان دَريا، ابنة ناسك جبال الديلم، أليس كذلك؟

لم أجبه، فواصل بفارسية سليمة هذه المرة:

-اسمي الأصلي كريم خان. أنحدر من المجموعة التي استوطنت جبل دماوند في إيران بعد النزوح من قاف. والدي هو ناسك «دماوند»، وبحوزتي إرثه كاملًا، أنتظر ظهورك منذ مدة لكنكِ أخذتِ وقتًا أطول مما توقعت، كي تعثري عليّ، المعلومات المسربة إليكِ عني وعن وجود «النزوح إلى العالم» معي لم تكن مجرد مصادفة. ما إن وصلتني رسالتك الإلكترونية، حتى أدركت أن اللحظة المناسبة حانت. ننتمي للأصل نفسه، ونسعى خلف الهدف ذاته. تقول النبوءات التي معي إن امرأة هي التي ستتمكن من استعادة زمردة. قد تكون أنتِ أو أخرى، علينا معًا البحث عنها.

-لماذا تأخرت في الرد على رسالتي إذن؟ سألتُه محتدة.

-مجرد تكنيك! كما كان عليّ مراجعة ما لديّ من مخطوطات ووثائق.

***

فـي طريق عودتي إلـى القاهرة استعدت كلمات كريم خـان، فكرت في النقاشـات الطويلة بيننا عن أرض الأسلاف. على مدى أسبوعين قمنا بتمحيص مـا لدينا، حصرنا قائمـة بالتحريفات المحتملـة لحكاية أميرتنا الغائبـة، وأخـرى بتفاصيـل منها موزعة علـى حكايات أخرى. مـا توقفنا أمامـه كان تلـك النبوءة الغامضـة عن خاتم زمرد ضائـع وفتاة جامحة في مدينة ترتجف، وامرأة تضحك لها المرايا.

تناقشـنا مطـولًا بينمـا يصطحبنـي فـي جـولات ممتـدة بيـن متحفـي «بلفيديـر» و«ألبرتينـا» وقصـر «شـونبرون» بحدائقه المبهـرة، والمقاهي القديمة الشـهيرة. جعلني أدرك أن ثمة ما هو مأسـاوي في فيينا! فشيء ما في المدينة العريقة يثير الأسى ويدفع زائرها نحوه. أناقة العمارة وفخامتها العتيقـة تجعلانها تبدو كطلـل مجد غابر، كأنما تخبـر الآخرين أن هذا ما تبقى من إمبراطورية كادت تحكم أوربا كلها يومًا.

ذكَّرني هذا بالأسـى المغلَّف لذكرى أرض أسـلافنا، والموشوم على أرواحنا، نحن المتحدرين منها، حتى لو لم نعترف به.

مـن الطائرة بدت جبال الألب، كمرتفعات من آيس كريم الشـيكولاتة المغطى بالكريمة البيضاء. تابعتها عبر زجاج النافذة. حدقت في التناقض بين بياض القمم الثلجية وبُنيّ السـفوح، فسـاورتني رغبة حارقة في رمي نفسي فوقها.

تمنيت لو كنت منار السـنا، المرأة ذات ثوب الريش، في حكاية حسن البصري كي أجلس على جناح الطائرة مسـتمتعة بمنظر ثلوج قمم الألب من أعلى، ثم أطير لأهبط فوقها.

يومًا ما سأكون المرأة ذات ثوب الريش، سأصير منار السنا. أكاد أؤمن بهذا!

تقول الأسطورة إن الكاهنة المقدر لها أن تستعيد أميرة قاف ستصير ما تشاء! سيكون لها ما تتمنى من قدرات. لا أرغب إلاّ في أن أكون مثل منار السنا، لن أستخدم ثوب الريش سوى مرة واحدة في العام. أحلق به نحو الممالك والبلدان البعيدة. أحوِّم فوق جزر الواق واق، وجبلي الماس والمغناطيس، ووادي الحيّات.

أما بقية العام فسأقبع في قاف، الوطن المراوغ الذي لطالما سمعت عنه وحلمت به، سأختار لنفسي مكانًا قريبًا من عش العنقاء، لا بد لبيتي من أن يكون حميميًا تحوطه حدائق شاسعة وتحجبه عن المتطفلين، بحيث يمرون بها دون الانتباه لوجود البيت بداخلها.

حضر في ذهني فجأة مكان قاحل على حافة جرف خطر؛ أرض محروقة تخايلني في اليقظة كما في الأحلام. غادرتُ خيالاتي وعدت للتحديق عبر زجاج الطائرة. بالأسفل، كانت ثمة سحب منخفضة، تشبه زهورًا بيضاء هائلة، تغفو مطمئنة فوق قمم الألب، تخفيها لدقائق قبل أن تعاود القمم انبثاقها.

أرض الجنيات

فلتكن كلماتي منذورة لإساءة الفهم وأخطاء
التأويل!

يـوم إلقـاء القبض على بلوقيا، عـاد الراعي بقطيعه مـن الماعز البري، ليجد كوخه خاليًا: الفراش مشـدود ناحية البـاب، والأواني القليلة مرمية في الأركان وقد تكسـرَّ الفخاري منها وبقيَ الخشبي مبعثرًا. خطر بباله أن بلوقيا سـرقه وهرب، إلاّ أنه سـرعان ما سخر من هذا الخاطر، إذ ليس في كوخه ما يغري بالسرقة.

شعر بأنه منذور للخذلان والهجر من الأحبة والغرباء على حد سواء. غلبتـه الكآبـة. اسـتعاد هجـر زوجتـه «مـروج» لـه. وقتهـا كان يخرج في رحـلات صيد للمتعة لا ليعتـاش على ما يصيده كحالـه الآن. كان ينطلق في حاشـية صغيرة من خدمه ويخيِّم في الخلاء ليومين مستمتعًا بالقنص، يلاحق الصقور والجوارح ويتحاشـى إزعـاج طيور الرخ العملاقة – التي تعتبر قاف محطة أساسـية في ترحالها الأبدي – لأنه يعلم أن لا أحد يقدر على تحمل انتقامها المروِّع.

عاد من إحدى رحلاته تلك ليفاجأ ببيته مقلوبًا، وبزوجته وقد اختفت. لـم تأخذ أيًا من ملابسـها أو أدوات زينتها، فقط مخطوطات جدها حكيم المملكـة السـابق، ومحتويـات الخزانـة الموروثة عن أمهـا. عندما وجد

أشـياءها في أماكنها ظنها سـتعود، لكن الخادمة أخبرته بالرسالة الشفوية المتروكة له: «لا تبحث عني، لقد وجدت علامتي»!

لم يفهم ماذا تقصد، وإن كان أدرك أن قصتهما معًا انتهت، وأنها تركته مـن دون وداع أو شـرح. خلفته وراءها كبضاعة اسـتنفدْت الغرض منها. أعيـاه البحث عنهـا، هام على وجهه في الطرقات وفي ذهنه سـؤال واحد يرغب في أن تجيبه عليه: «لماذا؟».

قال لنفسه إنه، إن وجدها، سينصت إلى جوابها ولن يعلِّق عليه. سوف يسـتدير مغـادرًا وقـد أهداها بعضًـا من حيرتـه. أهمل تجارتـه، هجر بيته الفخـم، ولجأ إلـى الخلاء. اختار أكثر المناطق عزلـة على أطراف الجبل وأسـس كوخًا من جذوع الأشـجار، على حافة جـرف خطر، وعاش فيه. روّض قطيعًـا من الماعز البري وجاب به المراعي القريبة. ائتنس بصحبته ووجد فيه عزاءً مؤقتًا، وإن لم ينس جرحه.

في ليالٍ بعينها كان يصحو من نومه وهو واثق أن زوجته موجودة على مقربة، يكاد يسـمع صوت تنفسـها ويشـم رائحتها، بل حسب مرة – وهو بين اليقظة والنوم – أنه شعر بلمساتها تداعب جسده، فتح عينيه فلم يقابله إلا فراغ الكوخ.

لـم يتخيل يومًا أن «مـروج» قادرة على تركه على هـذا النحو المهين، صحيح أنـه لاحظ تغييرات جوهرية طرأت عليها في السـنتين الأخيرتين مـن عمـر زواجهما، لكنـه عزاها إلـى اهتمامها الطارئ بالسـحر، لم ينتبه إلـى أن هـذه التغيرات يمكنها تبديل مشـاعرها نحوه، وهـو واثق من أنها لم تفعل، ودليله أن الشهر الأخير من حياتهما معًا كان الفترة الأكثر إمتاعا وشـهوانية فـي عمـر زواجهمـا، إذ راحت زوجتـه تتفنن في فنـون الحب والجنس، كأنما تعوِّض ما فاتها منه.

سـعيدًا بحسـيتها المتفجرة الجديـدة عليه، امتنع عـن رحلات الصيد الأسـبوعية، لكنه في نهاية الشـهر اسـتجاب لغواية القنـص والتخييم في البريـة مـن جديد، وخـرج وفي ذهنـه العودة في اليـوم التالـي، ولمّا فعل فوجـئ بزوجتـه وقد تلاشـت من حياتـه. لطالما لام نفسـه، في سـاعات الحنين بكوخه المنعزل، على خروجه في ذلك اليوم المشئوم.

بعـد مـرور قرابـة العام على قبـض حراس الملـك علـى بلوقيا، حدد الراعـي موعده مـع فوهة العدم الجاذبـة. يومها، بدت السـماء قريبة أكثر من المعتاد، والسـحب منخفضة لدرجة خُيل له معها أن بإمكانه لمسـها. النسـيم الخفيـف داعب وجهـه، وأريج الزهور والأعشـاب البرية تسـلل إلـى أنفه ورئتيه فمـده بانتعاش رفعه بضعة سـنتيمترات عن الأرض. أكل ثمرتي فاكهة وشرب قدحًا من حليب الماعز وفي ذهنه أن هذا هو الصباح المثالي لتنفيذ قرار أضمره طوال سنوات ثلاث.

خرج من الكوخ، تجاوز الحرش المواجه له، داعب أوراق الأشجار، ثم اتجه إلى حافـة الجرف، وقف هناك متأملًا الهاوية والنباتات العملاقة تكاد تخفيها، دوّخه النظر إلى الأسـفل، فتراجع لخطوات وقد بانت على وجهه علامات الحيرة، خايله الوجه الأليف لـ»مروج»، شـعر كما لو كان يرى عينيها عميقتي السواد. تذكر بلوقيا فتمنَّى أن يكون قد عاد إلى مدينته بسلام.

اطمـأن علـى حيواناته، وأطلقها لترعى في أعشـاب الحـرش، ثم عاد إلـى الكوخ، وأغلق الباب خلفه بإحكام. جمع أوانيه وأشـياءه القليلة في أحد الأركان، أشـعل النار في فراشه الموضوع على الأرضية، ورقد فوقه باستسـلام. جفـل قطيع الماعـز، حين علـت صرخة أخيرة، واسـتطالت ألسنة لهب ساعد النسيم على تأجيجها.

كانـت السـماء لا تزال قريبة حيـن تحوَّل الكوخ إلى أطـلال متفحِّمة، كانـت قريبـة ونقية الزرقة، وظلت السـحب منخفضة يُهيأ لمـن يراها أنها تُطـال باليـد، ارتفع لهـب برتقالي وتصاعـد دخان غطى السـحب، لكنها سرعان ما عاودت الظهور لتزين زرقة السماء بلونها الأبيض الشاحب.

***

كانـت مروج تعيش مـع زوجها، على مقربة من قصـر الزمرد، في بيت فخـم يمكن لمن يتسـلق البـرج الصغير فوق سـطحه أن يلتقـط بعضًا مما يجري في حديقة المتاهة النباتية. كانت حفيدة حكيم الجبل السابق، تلقت العلم على غير عادة نساء قاف، عن أمها التي أحسن أبوها الحكيم تثقيفها. كثيرًا ما رآها زوجها منكبّة على قراءة مخطوطات لا يعرف ما فيها، ولا من أين جلبتها، كان هذا يشعره بهلع، سرعان ما يتناساه لعشقه لها.

اعتادت التسـلل إلى البرج فوق السـطح لتأمُّل ما يبين لها من الحديقة الملحقـة بالقصـر. أسَـرتها بحيـرة اللجين الملكيـة وقد تراقصت أشـعة الشمس فوقها لتنعكس أضواءً باهرة تخطف البصر.

انبهـرت بنباتات لم ترَ لهـا مثيلًا، كل يوم تقريبًا كانت تختبئ في البرج ناظرة إلى ما يجود به من مشـاهد فريدة. مرّة تتابع الوصيفات وهن يلعبن ويركضـن، وأخرى تركز بصرها على شـجرة بعينها حتى تكاد تشـعر أنها والشجرة شيء واحد.

غير أن أكثر ما هز كيانها كان مرأى الأميرة، وهي تتريَّض بين حاشيتها. بدت لها كما لو كانت مخلوقة من ضوء، بشـرتها بيضاء مشـربة بالوردي، وثمة سحر ينبعث منها وينسج حولها هالة تجذب القلوب لها، استدارت يمينًا ويسـارًا ثم خلعت ملابسـها ونزلت لتسـبح في البحيرة فيما سيَّجَت الوصيفات بأجسادهن المياه ومن فيها.

انقلبت حال مروج، وصارت لا تمل من مراقبة المتاهة النباتية، التبس الأمر عليها، لم تفهم سر ولعها بزمردة، كأنها مدفوعة إليها لسبب غامض. الأميـرة محبوبة من كل سـكان المملكة؛ لطالما تغنـوا بجمالها، وازدهار مملكتهـم بمجرد مولدهـا، غير أن «مروج» كانت واثقة مـن أن ما يربطها بزمردة أمر مختلف، شيء ما أسرّ لها بأن مصيريهما مجدولان معًا.

كثيـرًا ما تابعت موكبهـا من دون أن تراها عن قـرب، من مكمنها فوق سـطح بيتهـا، عرفـت الكثيـر عـن زمـردة: مواعيد تنزههـا فـي الحديقة، وصيفاتهـا المفضـلات، وحبهـا لنافورة المـاء على هيئة طـاووس ألوانه زاهية.

بعـد ترك مروج لزوجها بفترة، وعندما تأكدت من هجره التام لبيتهما، راحت تتسـلل إلى البيت الخالي بشـكل يومي. كانت تصعد مباشـرة إلى السطح، لمراقبة حديقة القصر.

رصدت كيف منعت الأميرة وصيفاتها من مرافقتها في تنزهها اليومي، إذ باتت الشخص الوحيد المتردد على المكان، كانت تتسحّب إلى خميلة في طرف منزوٍ فتختفي بداخلها قبل أن تخرج منها لاحقًا بخطوات سريعة مرتبكة محروسة بتغريد الطيور.

اكتشـفت مروج فيما بعـد أن ثمة صحبة جديدة للأميـرة في خميلتها، حين لمحت من يتجول معها يومًا على شاطئ البحيرة في لحظة تخلٍ عن الحذر. كان شـابًا وسيمًا تعرفت فيه إلى الغريب الذي دار به الحراس في شـوارع المدينة مكبلًا فـي قيوده، قبل مدة، معلنين أنـه الذي أخلَّ بتوازن المملكة.

تابعت مثل الآخرين أنباء عفو الملك عنه وإلحاقه بحاشـيته، لكنها لم تسـمع أبدًا عمّا يربط بينه وبين أميرة البلاد، ووريثة عرش قاف الزمردي،

لاحظـت أنه يخـرج من الخميلـة كل مرة بعـد الأميرة. يتلفـت حوله، ثم يختفـي فـي ممـرات المتاهة. سـألت نفسـها: «هـل الأميرة علـى علاقة جسـدية به؟». توجسـت ممّا يمكـن أن يجلبه هذا على قـاف من لعنات، زمردة ممنوعة من هذا قبل تسـلمها الحكم، فكيف إن تورطت مع غريب عابر؟ بحثًا عن حل، عادت مروج إلى أوراق جدها السـرية، التي سـجل فيها نواميس قاف وقوانينه. قرأت نبوءة عن غريب يطأ قاف وتلي وصوله لعنات كفيلة بتصدع الجبل الزمردي، فشعرت بثقل يطبق على صدرها.

تمنـت لو بقيت تلك الطفلـة الصغيرة، القابضة علـى كف أمها، وهما تسـيران بين شـعاب أرض الجنيـات، حيث اعتـادت أمهـا أن تصطحبها أسبوعيًا في زيارات ظلت سرهما المشترك.

ودّت لـو تسـتعيد الغفلـة ذاتهـا: غفلتها عن كنـه المـكان وخطورته، وعن سـبب ترددهما عليه. لو ظلت تلك الصغيرة لغابت عنها آلام كثيرة، ولاستمرت تمرح في خدر طفولتها، لسهوها عن أن كل ما يحيط بها، سِرٌّ مستغلقٌ على فهمها.

اسـتدعت الرهبـة التـي كانـت تسـيطر عليهـا فـي الطريـق الموحش المنحـدر إلـى هناك. لـم تكن تـدرك ماهية المـكان، لكن توجـس الأم، وحرصها على سـلوك أكثـر الطرق عزلة، والتفاتها الدائـم خلفها، لطالما سرّب إلى «مروج» شعورًا مقبضًا.

منذ وعت على الدنيا، كانت والدتها تغيب بالساعات مرة واحدة على الأقل أسـبوعيًا، مسـتغلة انشـغال زوجها في سـفرات لا تنتهي بين أقاليم قـاف المتعـددة. لم تكن تـدرك أين تذهـب أمها، غير أنهـا كانت تلاحظ إحساس الراحة الذي يهيمن عليها عقب عودتها.

وحين بدأت تصطحبها معها، لاحظت مروج أنها تتخلى عن حذرها،

وتصيـر أكثر طمأنينة ما إن تصل إلى أرض الجنيات، تبدو كمن يتمدد في غرفـة نومـه. مع الوقـت اعتادت الابنة على سـكون المكان، وتشـكيلاته من الأحجار الكريمة في هيئة مجسـمات عشـوائية، ونباتاتـه بألوانها غير المألوفـة، لكنهـا ظلت على خوفها مـن قهقهات وأصوات حادة، تكسـر السكون فجأة، أصوات تنشغل عنها الأم بقطع أعشاب برية بعينها، وجمع ثمار بيضاوية صلبة، تنهمك، حين تعود إلى البيت، في كسـرها وحفظ ما بداخلها من سوائل في قوارير تخفيها في خزانة خاصة بعيدًا عن المتناول.

اعتـادت أن تُجلِـس ابنتها فوق صخرة بازلتية بجوار مسـاحة شاسـعة مزروعة بالصبار، ثم تختفي لفترة في مغارة بالجبل، تخرج بعدها مسرعة وهي تعدل رداءها، وتسحب «مروج» خلفها حاملةً غنيمتها من الأعشاب والثمار.

كان ثمة أطيافٌ تتقافز هنا وهناك، قبل أن تختفي كأنها لم تكن. تخايل الأطياف الابنة، فتأمرها الأم أن تتصرف كأن لا شـيء يحدث. «لا تنظري إليهـا، ثبتي نظرتك فـي الفراغ أمامك». كانت تقـول، وتبالغ الصغيرة في تنفيـذ الوصية، من غير الانتباه إلى أن والدتهـا لا تلتزم بما توصيها به، بل تنظر للأطياف المتجسدة وتبتسم لبعضها كما يبتسم المرء لصديق عزيز.

لـم تحك «مروج» لأحد قط عن سِرّهما الدفين، وتمنت أن تجود أمها عليها بتفسـير يدلهّا على سبب التردد المستمر على هذه البقعة الموحشة، لكنها ماتت قبل أن تفعل. أطلعتها فقط على التأثيرات السحرية لأعشابها والسـوائل المسـتخرجة من ثمارها البيضاوية. أجهدت الابنة نفسـها في تدويـن ذكرياتها عن زياراتهما المشـتركة لأرض الجنيات، وخروج أمها المرتبك من مغارة يكاد مدخلها يختفي خلف شـجرة معمِّرة، غير أن هذا لـم يزد «مروج» إلاّ تشويشًا.

بعد رحيل أمها، اكتشفت أنها ورثت هوسها بأرض الجنيات. ترددت عليها في البداية لجلب الأعشاب وعصارة الثمار التي تشرّبت أسرارها، ثم بدأ المكان ينفتح أمامها ويمنحها نفسه على مهل. صارت رفيقة لأطيافه وأصواته الغامضة. كانت تخطو حيث اعتادت خطوة أمها أن تأخذها، كأنما تقتفي أثرها، أو كأن الدوْس على آثار أقدام متخيلة سيدل «مروج» على ما فاتها.

وحدها المغارة ظلت عصية عليها. اعتادت أن تحوم حولها وقلبها يرتجف. تجلس لفترات لا تعرف مداها فوق الصخرة البازلتية المواجهة لها، فتعود طفلة تخنقها الرهبة، ويقتلها الفضول لمعرفة ما تفعله والدتها بالداخل. الرهبة والفضول ذاتهما، كانا دافعها في النهاية للاقتراب. خطت مغمضة العينين. أمام الشجرة التي تكاد تحجب المدخل عن الأنظار ترددت قليلًا، ثم واصلت سيرها. ما إن عبرت العتبة، حتى فتحت عينيها على عتمة خفيفة. وجدت نفسها في وسط ممر طويل يقود إلى عمق المكان. خُيِّل إليها أن الجدران المصمتة تُعملق دقات قلبها وصوت تنفسها. كان ثمة هسيس ينبعث من الداخل، وثمة رائحة ثقيلة تُعبِّقه؛ رائحة نقلت إلى مروج إحساسًا بالخدر.

بزغت من القلب المظلم للمغارة أصوات مُنَغَّمة، تبعت مروج وقعها مسلوبة الإرادة وهي لا تكاد ترى أمامها. أضحى ثوبها الفضفاض عبئًا عليها، ودّت لو تتخفف منه. رغبت في السير عارية، علّها تتخلص من الثقل الرازح على صدرها. مفاصلها المرتعشة منعتها إلاّ من الخطو الحثيث نحو الغناء المتصاعد بنعومة موحيًا بأنه نبع الحياة.

في عمق المكان كانت ثمة شموع قليلة، مهتزة الإضاءة، كسرت العتمة إلى حين. وفي صدره أبصرت مروج طيفًا، ميزته بصعوبة عن غيمة من ضباب كثيف كادت تخفيه.

شـملها حضـوره بطمأنينـة غيـر متوقعة، اقتربـت من مجلسـه، وحيّته بانحناءة مترددة. مسـح بيده على شـعرها ومسّ وجنتيها وشفتيها بسبابته. سـمعته يقـول إنها نسـخة من أمهـا. رغبت في سـؤاله عنها، وعن سـبب ترددهـا الدائـم، قبل رحيلها، عليه. ابتلعت سـؤالها وانتظرت ما سـيجود عليها به.

«تنتمين إلى هنا»! قال لها قبل أن يغرق في صمت طال لبرهة. انقشـع الضباب باقترابها لتبصر تختًا منحوتًا من الصخر يجلس إليه الطيف الشبيه بالأطيـاف المتجوِّلـة بالخارج. أفسـح لهـا مكانًا، فانضمـت إليه صامتة، تنظـر إلى جدران الكهـف تتراقص فوقها ظلال مرتجفة لضوء الشـموع. راح يدقـق في ملامحها بعطـف، ثم قال: «تأخرتِ كثيرًا. أنتظرك منذ وفاة والدتك. كنتُ واثقًا من أنك سـوف تأتين». لم تعرف كيف ترد. واصلت مراقبتها للظلال الراقصة.

صحبها في جولة داخل ممرات ودهاليز تقود إلى عوالم أخرى. حكى لها عمّا لن تجده في مخطوطات جدها من أسـرار ومعارف، أطلعها على المزيد من التأثيرات العجيبة للأعشـاب والنباتات، وعلَّمها ما لم تسـتطع أمها تعليمها إياه من حيل السحر وخباياه.

أصبحـت زياراتهـا السـرية للكهف طقسًـا أسـبوعيًا ليـس بمقدورها التخلـي عنـه. كان الطيف معبـرًا يقودها إلى أمهـا، ويعرِّفهـا عليها. ومع الوقـت أصبح وسـيلتها للتعـرف على المخفـي من تاريخ قـاف والخطر المحدق به، وفي النهاية بات دليلها للتوغل داخل سرائرها ورغباتها.

في المقابل كانت هي عينه على العالم الخارجي. حكت له عن الأميرة ووصيفاتهـا، ثم عن بلوقيا عندما ظهر، عن حديقة المتاهة النباتية وبحيرة اللُجيـن. كان ينصـت باهتمام مـن غير أن يخبرها أنه طـاف بهذه الأماكن

كلها من قبل، حلَّق فوق قاف ويعرف مداخله ومخارجه، وسافر منه إلى جبال السحاب، والماس، والمغناطيس، قبل أن ينطوي على نفسه في كهفه بأرض الجنيات.

كان هو من شرح لها نبوءة جدها عن القدر المشئوم لقاف، حدثها عن الزلزلة المتوقعة وتلاشي الجبل، واختفاء العنقاء، وغياب زمردة لقرون وتحريف حكايتها. كان شحيحًا في مدها بالمعلومات، يختار الغموض بدلًا من الوضوح، والتلميح بدلًا من التصريح. سقاها نبوءاته مذابة في شراب الإبهام، مُسَيَّجة بضباب قاتم كالذي كان يغلِّفه أول مرة رأته فيها، كانت على هيئة أحجيات ملغزة عليها أن تجتهد لفك شِفراتها، والخروج منها بنتائج فيها من الشك والسؤال أكثر مما فيها من اليقين والجواب.

كان قد مرّ على هجرها لزوجها قرابة ثلاثة أعوام، حين ارتمت تمامًا في أحضان الطيف. بدا لها أن هذا هو السبيل الوحيدة للتوحد به بعد زيارات أسبوعية امتدت لسنوات. وكان هو يترقّب هذه اللحظة متيقنًا من قدومها. لم يستعجلها، ولم يقم بما يحث عليها، فقط انتظر بين ظلال كهفه المتراقصة أن تسقط التفاحة في حجره من تلقاء نفسها.

يومها تسللت مروج إلى الكهف كعادتها، مستسلمة للروائح التي تعبق في الأجواء، والهسيس المنبعث من الداخل، حتى بدأت تقترب من مكان الطيف. شعرت بالرغبة نفسها في التخفف مما عليها من أردية، غير أنها خرجت برغبتها من حيز التمني إلى الفعل.

خلعت ثيابها وخطت عارية، ودّت لو تتخلص من جلدها نفسه، وتتحول إلى كائن طيفي شبيه بأطياف أرض الجنيات. كان يتابعها بلا تعبيرات تستشف منها ما يفكر فيه. خُيِّل لها أنه تنازل عن طيفيته واكتسب جسدًا آدميًا. ببطء شديد، وعلى أطراف أصابعها اقتربت أكثر من التخت

حيث يتربع. التحم الجسدان كأنما ينتظران هذه اللحظة منذ بداية الخلق. للحظـة، وقبل أن تغرق في النشـوة، خطـر زوجها ببالها، وتسـاءلت عمّا يكون قد حدث له.

الفتاة التي أضاعت خاتم الزمرد

لم تكن الكتابة يومًا قنطرة وصل، بل خنجر قطع، غير أن رومانسيتنا هي ما أوهمتنا بالعكس.

في غرفة مكتبي، جلست هدير تسوِّد حكايات شعبية جُمِعت بأصوات رواتها الأصليين. كانت قد أفرغت الأشرطة المسجلة، وجاءت هنا لتعيد كتابتها وتنظيمها. استأذنتها، وذهبتُ لأحظى بقيلولتي المقدسة. طلبتُ منها أن تتصرَّف كما لو كانت في بيتها. وبالفعل أعدّتْ لنفسها كوبًا من الشاي بالحليب، وعادت لمواصلة عملها. بعد ما يقرب من ساعة، شعرتْ بالتعب، فقررتْ أن ترتاح قليلًا.

جلستْ في الشرفة محاولةً تصفية ذهنها، ثم عادت إلى أوراقها مجددًا. خطر ببالها أن تتصفح محتويات المكتبة. مررت أصابعها على عناوين: «منطق الطير» لفريد الدين العطار، «الفتوحات المكية» لابن عربي، «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» للعمري، «خريدة العجائب في فريدة الغرائب» لابن الوردي، وعناوين أخرى لم تسمع بها من قبل.

انتبهت إلى أن كل رف به صف ثانٍ يختبئ وراء الأول. دفعها الفضول لاستعراض الكتب المخبوءة، حتى خطف بصرها عنوان جاذب: «حكاية الفتاة التي أضاعت خاتم الزمرد»!

سـألت نفسـها: فتـاة أضاعت خاتمًـا من الزمـرد؟ ذكَّرها هـذا بحادثة طفولتهـا، مـا دفعها لالتقـاط المجلد بلهفة. فتحته فاكتشـفت أنه مسـودة مكتوبة بخط معتنى بجماله. تمددت فوق الكنبة السوداء تلتهم السطور.

تحت عنوان «الميلاد» قرأت:

«وُلِـدت هدير وهـي تعرف ما عليهـا فعله في هذه الحيـاة، بل وكيف تفعله أيضًا.

رقدت أمها نادية متألمة في فراش محايد بمستشفى الولادة، ثم عدلت نفسـها على مضض، وهي تتسـلم وليدتها من الممرضـة البدينة. أزعجها أن نتـوء بطنها لـم يختف تمامًا بعد الولادة، كانـت تتخيل أنها ما إن تضع حملها، سيعود بطنها مسطحًا ومشدودًا كسابق عهدها به قبل الحمل، إلاَّ أنها عرفت الآن أن هذا يحتاج لبذل الجهد.

شعرت بألم بين سـاقيها، تجاهلته وتأملت وليدتها المغمضة العينين، وخصلة الشـعر السـوداء في مقدمة رأسـها. بدت تلك الخصلة الوحيدة، والملتصقـة بالـرأس المغطـى بالقشـور الداكنـة مضحكـة، غيـر أن نادية لا تضحـك على مثـل هذه الأمـور. تجاهلت الوجع فـي مفاصلها وتأثير المسـكن الآخذ في التلاشـي، وعـادت تتفحص صغيرتها كمـا تفعل ربة منـزل مـع أرنب ستشـتريه لطهوه مع وجبـة ملوخيـة وأرز. قطبَّت جبينها وضيّقـت عينيهـا، قبل أن تقول لزوجها الواقف بجوار السـرير: «شـبهك أنت»!.

قالتها بالطريقة نفسـها التي تخاطبه بها حين ترغب في لومه على خطأ ارتكبه. هز رأسـه مبتسـمًا، ولم يدر مـاذا يقول فاكتفى بعبـارة «حمد الله على سلامتك».

«قربِّيهـا مـن صـدرك» قالت الممرضـة البدينة قبـل أن تضيف «حطي

الحلمـة فـي بُقهـا عشـان تعلميهـا إزاي ترضـع، وإلا هيتجمـد اللبن في صـدرك، وتنقلب الحلمات». لم تعـرف نادية ماذا عليها أن تفعل. نظرت إلى كمال، تسـتنجد به، فهز رأسـه مشـجعًا إياها على تنفيذ ما طلبته منها الممرضة. أخرجت ثديها الأيسـر، وقربّت هدير منه، فإذا بها تمد رأسها، وهي مغمضة العينين لا تزال، نحو الثدي. كانت كأنما تبحث عنه وتعرف بوجوده. شـعرت نادية بحَرَقـان في حلمتها وكادت تبعـد الرضيعة عنها، إلا أن تشـبث الأخيـرة بالصدر كان أقـوى، مصّت لدقائـق، ثم انخرطت في البكاء. لم يكن هناك لبن بعد، إنما ذلك السرسـوب الأوَّلي الشـفاف. أخذتهـا الممرضـة بعيـدًا، حيـن لاحظـت أن ناديـة لا تعـرف حتى كيف تحملهـا على الوجه الصحيـح. وجهت الحديث إلـى الأب «لبن الصدر مـش هيبـدأ ينزل بجـد غير في اليوم التانـي، مؤقتًا لما تجـوع هترضع من السرسوب القليل في الصدر عشان تسرّع نزول اللبن، زائد شوية جلوكوز من الببرونة». هز رأسـه متفهمًا. هدهدتْ الممرضة هدير حتى نامت، ثم وضعتها في سريرها الصغير بجوار سرير الأم وغادرت.

حيـن راح تأثير المُسَـكِّن، بـدأت نادية في النحيب. كانت تشـعر بألم لا قِبـل لها به ويصعـب تحمّله. تذكَّرت وجع الولادة الـذي بدأ معها منذ الأمـس، وظل يتصاعد حتى لحظة دخولهـا حجرة العمليات في الواحدة صباحًـا. جاءهـا الطَّلق متسـارعًا، لدرجة دفعت الطبيب للدهشـة، «مش بيكون قوي وسريع كده مع الطفل الأول، بنضطر كتير لتسريعه بالحقن».

لم تسمع كلماته بوضوح، كانت تصرخ كي يخدرها.

قـال ببرود: «هتولدي بشـكل طبيعي وبسـهولة. فتحة الرحم مناسـبة، ووضـع الجنين كويس، و....». بدا كأنما سـيظل يتكلـم إلى الأبد فقالت من بين تأوهاتها «اتفقنا الولادة تكون من غير ألم. أرجوك خدرني فورًا».

«مش قبل خروج راس الجنين» رد بحزم. وكان هذا آخر ما سمعته منه.

حين أفاقت وجدته لا يزال في الحجرة ومعه مساعده، كانت أول جملة نطقت بها هي: «الساعة كام؟»، سألها ضاحكًا: «ليه وراكِ ميعاد؟». أرادت معرفة توقيت ولادة طفلتها، غير أنها صمتت أمام ضحكاته المجلجلة.

في النهاية أجاب: «الساعة اتنين صباحًا. تعرفي إنك عندك قدرة رهيبة على تحمل الألم». ودّت لو تسأله كيف يقول هذا رغم أنها صدّعت رأسه بصراخها وتأوهاتها، غير أن جسمها المتكسر منعها. وضعت يدها على بطنها كي تتأكد من أنها ولدت ابنتها بالفعل.

نُقِلت بعد قليل إلى غرفة هادئة، وجدت كمال ينتظرها فيها. بدَّل الطبيب ملابسه ومرّ لزيارتها قبل العودة لبيته. بدا مختلفًا قليلًا بسرواله الجينز وقميصه الأبيض المقلم بالأزرق، كان لا يزال محتفظًا بهدوئه الشديد، لكنه أصبح أكثر ودًا. اقترب منها، وضع يده على بطنها، دعكها وضغط عليها بقوة كي يسهّل نزول بقايا الدم من رحمها. طلب منها أن تنام عليها بهدوء كي لا ينقلب الرحم. فحص هدير، وخرج بعد تبادل حوار خافت مع كمال.

غادرت نادية المستشفى مع طفلتها وزوجها عصرًا. قاد كمال السيارة مرهقًا بعد سهره طوال الليل، ثُم سعيه لإنهاء أوراق المستشفى وتسجيل هدير واستخراج شهادة ميلادها في الصباح. كان الجو بالغ الحرارة، تركوا المهندسين - حيث تَقع المستشفى - خلفهم، متجهين إلى شارع السودان المزدحم، لاحظت نادية ثمار المانجو بأنواعها المختلفة فوق عربات بيع الفاكهة على امتداد شارع السودان. تحب اللون الأصفر المتوهج للمانجو السكري، وسعدت حين رأتها تملأ الشوارع لأول

مـرة، ذاك العـام فـي اليـوم الأول لابنتها في الحيـاة. ركن كمال السـيارة أمام شـقتهم في الهرم وحمل حقيبة ملابس المستشـفى، فيما حملت هي الصغيـرة ملفوفـة في غطاء أبيـض. بمجرد خروجها من السـيارة، خافت عليها من لفح حر يوليو.

أسـرعت نحـو المصعـد ولحق بها زوجهـا. دخلت الشـقة، وأرقدت هديـر في مهدها. أخرجت ملابس المستشـفى من الحقيبة. تجنبت النظر إلى بقع الدم عليها، وضعتها كلها في الغسّالة، وأدارت زر التشغيل. تحت «الدوش»، استسلمت للماء تمامًا كأنما سيزيل دبيب الوجع من جسدها. ارتـدت ملابس قطنية نظيفة، جففت شـعرها بالفوطة، لمته بيدها لأعلى، ثم تركته منسدلًا من جديد دون تمشيطه، وذهبت للنوم.

فكّـرت في أنها قد لا تسـتيقظ أبدًا من فرط إرهاقها وشـوقها للراحة، غير أنها أفاقت بعد سـاعتين فقط، لتجد كمال جالسًـا على أرضية الغرفة متأملًا هدير النائمة في فراشـها كملاك. كانت تنام بطريقته نفسها، ممددة على ظهرها، وقد رفعت ركبتها اليسرى، فيما يدها اليمنى فوق جبهتها».

وضعت هدير المخطـوط بجوارها حائرة، نظرت إلى غلافه فوجدتْ اسـمي مكتوبًـا عليه باعتباري مؤلفته. لم تدرِ كيـف عرفتُ هذه التفاصيل عـن ميلادهـا، وعن أمها وأبيها. ثمة أحـداث مكتوبة لا تعرف هل وقعت بالفعـل أم لا، لكـن هناك أشـياء أخـرى حكتها لها أمها، مثل سـؤالها عن السـاعة لحظـة أفاقت من المخدر، وعربـات الفاكهة المحمّلـة بالمانجو الأصفر المتوهج في الطريق إلى البيت.

التقطـت المخطـوط مرّة أخرى، وبـدأت تقرأ في فصـل جديد عنوانه «خاتم زمرد»:

«كان خاتمًا من الزمرد!».

هـذا مـا سـتعرفه هدير فيمـا بعـد. بالأحـرى، كان خاتمًا مـن الذهب يزينـه فص رائـع من الزمـرد الذبابي. وقتـذاك، وهي طفلة في السادسـة، لم تعرف سـوى أنه أجمل ما رأت، خاصة حين يكون في البنصر الرشـيق لأمهـا الحريصـة علـى التَّحَلِّي بـه دائمًا. على عكـس تعاملها مـع حليها الأخـرى المتروكة هنا وهناك، كانت تضع خاتم الزمرد، حين تخلعه، في «الشكمجية»، حتى لو كانت ستعود لارتدائه بعد دقائق.

يومهـا كانت هدير مع ناديـة في زيارة لبيت عائلتها فـي الريف. خلعت ناديـة الخاتم ووضعته في درج التسـريحة، وخرجت للجلوس مع أبيها في الشـرفة، فأخـذت ابنتها الخاتـم للّعب به فـي الحديقة. أطبقـت عليه كفها الصغيرة، ونزلـت سلالم البيت نحو الركن النائي المزروع بأشجار البرقوق.

جلسـت بهدوء فوق قش الأرزّ المُكَوَّم بين الأشجار بحيث لا يراه من يجلسـون في الشرفة، أو من يمرون بمدخل الحديقة. تأملت فص الزمرد بشـغف وهو يتألق تحت أشـعة شـمس الصبـاح. وضعته فـي بنصر يدها اليمنى فسـقط علـى حجرها بمجرد أن حركت يدها. أمسـكته من جديد. ركـزت بصرهـا عليـه. تماهت مع لونـه للحظات وودّت لو يتسـع الفص ويتمدد ليغطي الفضاء أمام عينيها فلا تبصر غيره.

انزلـق الخاتـم منهـا فجـأة إلى كومـة القـش، لمحت اللـون الأخضر المتوهـج بين القـش، فقامت مسـرعة لالتقاطه، لكنها فـي نهضتها دفعته للاختفـاء. أزاحـت – عبثًا – بعضًا من قش الأرزّ الموجود على السـطح. قضـت قرابة السـاعة تقلِّـب في الكومـة دونما جدوى. كانـت تبكي بكاءً صامتاً، وهي تتخيل رد فعل أمها، حين تكتشـف اختفاء خاتمها المفضل. في النهاية، قررت الهرب. تسـللت خارج الحديقة، وسـارت وحدها في الطريق الموصل للبيوت والحقول المجاورة.

بفستانٍ زهري قصير بحمَّالات رفيعة وورود بيضاء ولبنية اللون. سارت وحدها، متحاشية مواجهة نظرات فضولية تتابعها. كانت تلك أول مرة تمشي فيها في بلدة أمها. خلال ست سنوات هي كل عمرها حتى تلك اللحظة، كانت قد زارت بيت جدها أقل من عشر مرات، لم يُسمَح لها من قبل أن تتجاوز بوابته، المرات القليلة التي تنزهت فيها في المَزَارع القريبة كانت على كتف جدها يحملها عاليًا كي تطول أغصان الأشجار الزاهية الخضرة.

وعلى الرغم من عدم ابتعادها إلا لمائتي متر تقريبًا، شعرت هدير أنها تائهة في عالم بالغ الضخامة. ظنّت أنها لن ترى أمها ثانيةً، وستفتقد اللعب بألعابها المتروكة في شقتهم بالقاهرة، وأن أباها قد يتوقف عن حبها إذا عرف ما فعلته. لم ترغب في مواصلة السير، جلست في ظل شجرة كافور خلف بيت قريب لساعتين، حتى وصل جدها لها بعد أن انتبه لغيابها، وراح يبحث عنها. في البيت وجدت أمها تبكي بحرقة. احتضنتها وأمطرتها بالقُبل.

لم يأت أحد على ذكر الخاتم أمامها، وخافت أن تسأل. اكتشفت نادية ضياعه في المساء، وطبعًا ابتلعت هدير لسانها، كما لم تشك نادية للحظة أن لابنتها علاقة بالأمر».

هذا تقريبًا ما حدث ولم تحكه هدير لأمها. لم تعترف لها أبدًا أنها من أضاع الخاتم. «ما حكاية بستان البحر؟ وكيف عرفت كل هذا؟». سألت هدير نفسها، وقد بلغ توترها أقصاه. تجاوزت بضعة فصول وفتحت عشوائيًا على صفحة في المنتصف تقريبًا، وجدت مقطعًا مرويًا على لسانها في اليوم التالي على انتقال أمها إلى كندا:

«سافرت أمي أمس، كنت أفكر في كتابة «ماتت أمي أمس». إلاّ أن

قلبـي لـم يطاوعنـي. رحيلها مـوت مؤقت لها فـي نظـري. لا أعرف هل ستهاتفني أسبوعيًا كما وعدتني أم لا؟ وهل سألحق بها بعد سنة بالفعل؟ لا أشعر بحماسة كبيرة للهجرة إلى كندا، العيش مع أمي الجميلة وزوجها المتأنق لا يناسبني. أؤمن بأن مشكلتي بداخلي، سأحملها معي كجرثومة تنخـر فـيّ أينما توجهت. أُفضِّـل أن أتأبط جرثومتي إلـى حيث لا يعرفني أحد ولا أعرف أحدًا، إلى ستوكهولم، مدينة أحلامي الباردة.

ما أرغب فيه حقًا هو نسيان أمي ولو مؤقتًا. أتذكرها، فأتلاشى.

كانـت تسـير بجـواري فأختفـي، أُصبح غيـر مرئيـة. يقف المـارة في الشـارع انتباهًـا لمرورها. تنطلق عبارات المغازلـة وتتبعها أينما اتجهت، بينما تخطو هي منتشية بثقة غير المبالي.

مـن طفولتي لا أزال أحتفظ بذلك الشـعور المـدوِّخ من الإعجاب بها، والرغبة في أن أكون إياها. لطالما ظننت أن السر يكمن في السن، وأني حين أبلغ عمرها نفسه سوف أشبهها. سأكون نادية الجميلة بملامحها المتناسقة وابتسامتها المضيئة، وجسدها الممشوق الشبيه بالجيتار في منحنياته اللينة المرسومة بيد فنان. «هي مسألة وقت لا أكثر»، كنت أقول لنفسي.

لا أنتبـه إلـى أنفـي الطويـل أكثر ممـا يجـب، ولا إلى الفـك العريض القاسـي الذي ورثته عن أبي، ولا إلى عينيّ الخرزيتين، وشعري المهوّش باسـتمرار. أجلـس فـي المقعد الخلفي لسـيارة أبي، فيمـا تجلس هي في المقعـد الأمامي بجواره. أراقبها مـن الخلف، منتظرة لحظة الوصول إلى وجهتنا، حيث ستقدم عرضها المحبب لي وهي تخرج من السيارة كأميرة حقيقية.

يركـن أبـي العربة، ويخـرج منها ليفتح لهـا الباب. تُنزِل سـاقيها أولًا. سـاقاها الجميلتـان المكشـوفتان حتى الركبـة، تصبحان بـؤرة الاهتمام.

يقـف مـن في الشـارع متابعين إياها بشـغف. ثـم تخرج بجسـدها كاملًا، وتقف مبتسـمة لأبي بينما تنتقل عيناي بينهما وبين الذين يوجّهون نحوها نظراتهم الشغوفة.

بجسدي الصبياني النحيل أحتمي بها. تضع يدها على كتفي، وتقودني إلـى الداخـل، وهي تتبـادل حديثًا خافتًا مـع أبي. نادرًا مـا كانت ترد على نظرات المعجبين العابرين. دومًا ساهية عن وجودهم، أو غير مهتمة بهم، كأنها وُلِدت لتحظى بمثل هذا الاهتمام دون مجهود أو حتى امتنان.

تبـدو أكثر هـدوءًا في بيت غمرته بمرايا من كل شـكل لتبصر صورتها أينما ولَّت. تتأمل وجهها مبتسمة، وحين تظنني لاهية عنها، تروح تُجَرِّب تعبيـرات مختلفـة، ترفع حاجبيهـا متعجبة، تبتسـم بطرق مختلفـة، ترفع شـعرها لأعلـى، أو تغطي جبهتها بـه، وتتفحص الخطوط الرفيعة أسـفل عينيها، لكنها دومًا، تبدو سعيدة بما تراه، فخورة به.

أتخيلهـا الآن فـي تورنتـو؛ في بيـت مرايا جديـد، مع عاشـقها المتيَّم بها. منزل صممته على طريقة الـ«فينج شـوي»: مرايا، وأحواض سـمك، وشـتلات زرع، ولوحات لجبال وشلالات ماء، كي تحقق التناغم الأمثل بينها وبين الكون. تطرد الطاقة السلبية وتجذب الإيجابية. هناك، في بيت لا يجمعنا معًا.

لا أعرف كيف انتهت علاقتها بأبي ولا لماذا؟

لـم يخبرني أي منهما كيف اعترت البرودة ما بينهما. لاحظتُ فقط أن زواجهمـا انتهى بأناقة. بدوَا كصديقين فرقتهما السـنوات، لكنهما ما زالا قادرين على إيجاد مشـتركات تدفع أحاديثهمـا قدمًا. لم يكن هذا مفهومًا لأعوامي الخمسـة عشـر، إذ ما داما لم يتحولا للعداوة، فلماذا لم يحافظا على زواجهما من أجلي على الأقل؟

فـي غمرة التغييـرات الطارئة لـم ينتبها لـي. ثم ظهرت أُخـرى عرّفها أبي إليّ. حقدتُ عليه وقتها أكثر من حقد أمي نفسـها. لسـت واثقة أصلًا مـن أنها غضبت منه ولو قليلًا. بـدت كأن ما يحدث في حياته الجديدة لا يعنيها، في حين شعرتُ أنه خانني بشكل ما، رغم أني لم أتيقن أبدًا من أنه بـدأ علاقته بالأخرى أثناء زواجه بأمي. لم يشـرح لي قـط. أذكر فقط أنه، أخبرنـي بعدهـا باقتضاب، أن والدتي هـي من قرر الانفصـال، وأنه تَفَهَّم رغبتها، رغم عدم تقديمها لأي مبررات.

لم يستفض فـي الحديث ولـم أسـتوضحه طلبًا للمزيـد. صدقته حين بـدأتُ أنتبـه إلـى أن معنوياتهـا باتـت أفضـل. لم ألحـظ عليها مـا يمكن ملاحظته على النساء المهجورات. بدت أقوى وأكثر انتعاشًا من أي وقت مضى. استمرت في الابتسام لوجهها في المرايا، والاعتناء بجمالها. خُيِّل لي أنها صارت أجمل وأصغر.

ثمـة يـوم كامل كانـت تقضيه أسـبوعيًا في تدليل نفسـها. تسـتيقظ فيه متأخـرة، تُجهز إفطارًا سـريعًا لي ولهـا، ترد على كلماتي بالكاد، تشـرب قهوتهـا بهدوء، ثم تدخل للاسـتحمام. تحرق البخـور ذا الرائحة النفاذة. تمـلأ «البانيو» بالمـاء الدافئ. تضيف الزيوت العطرية والـ»شـاور باث». تشغِّل الموسيقى الكلاسيك، وتظل بالداخل لأكثر من ساعة.

حيـن أقصـد الحمـام بعدها أجده محجوبًـا خلف غيمة مـن بخار ماء يتكاثف على المرايا والبورسلين. ترتدي ثوبًا قطنيًا قصيرًا وتدهن بشرتها بالكريمات المرطبة، ثم تجلس معي لمشـاهدة التليفزيون. آتي على ذكر أبي فترد ببسـاطة، أو تحكي ضاحكة طُرفة عنه. أندهش كيف لا تتصرف كالأخريـات؟ لمـاذا لا تحكي عنه بغضـب أو حتى ببـرود؟ أكاد ألومها، أحسُ أنها لم تقدره التقدير الكافي، ولم تندم قط على فشل زواجهما».

هـذا الجـزء تحديدًا صعق هدير، شـعرت كأني تسـللت إلى لا وعيها وقبضت على مشـاعر لا تجرؤ على الاعتراف بها حتى لنفسـها، وصغتها بأسـلوب لا تقدر هي عليه، خافت مني، وشعرت أنها عارية أمامي. خطر لها أني أقرأ أفكارها وأسخر منها.

سـمعت هدير باب غرفتي يُفتَح، فأسرعتْ لإعادة المجلد إلى مكانه. خبأتـه كمـا كان، وعـادت للجلـوس إلـى المكتـب مواصلةً إعـادة كتابة الحواديت الشعبية التي فرَّغتها.

طرقـتُ البـاب، قبل أن أفتحـه. «إيه الاجتهاد ده؟ برافـو!»، قلت، فلم ترَ في الجملة إلاّ اسـتهزاء بها. ارتعش قلبها، لم تقو سـوى على ابتسـامة مفتعلـة، وهـي تتابعني أجلس إلى الأريكة باسـترخاء، ثـم تتوقف نظرتي علـى حيث يقبـع «الفتاة التي أضاعت خاتم الزمـرد» بالمكتبة متواريًا عن الأعين، قبل أن أسـتدير لها بابتسامة عريضة لم تفهمها. أرادت أن تسألني بغضـب عن هذا اللغـز، غير أنها أحجمـت. بدوت لها لحظتها كسـاحرة شريرة خارجة لتوّها من حكاية مخيفة. فوجئتْ بنفسها تقول:

-مش هتعرَّفيني ليه بتجمعي الحكايات دي؟

أجبتها بغموض:

-كل شيء في وقته حلو!

أخفـت تبرمها، جمعـت أوراقها، وغادرت مع وعـد بالعودة غدًا وقد أنجـزت بقية العمل. اسـتحوذ عليها إحسـاس مُر بالانزعـاج، تعرفها إليّ كان هدفه حل لغز ما اختبرته مع كريم في المطعم الجبلي بـ»ثاكاتيكاس»، فإذا بي أزج بها في متاهة محكمة.

طريق التيه

الكتابة ليست جسرًا نعبره، بل حفرة نقع فيها!

قبل مغادرة بلوقيا إلى جبل المغناطيس مع زمردة، استأذنها في الذهاب لتوديع الراعي الذي أنقذ حياته حين وصل «قاف» فطلبت منه ألاّ يتأخر عليها. توجه بلوقيا إلى حيث كوخ الراعي لشكره وتوديعه، فلم يجد إلاّ أرضًا محروقة. كانت النيران قد أتت على الكوخ والحرش بأعشابه ونباتاته. وقف بلوقيا لفترة متشككًا. ظن أنه أخطأ المكان، خطا هنا وهناك بحثًا عن دليل يثبت أنه في مأواه السابق، فلم يجد.

ابتعد بينما تغص ذاكرته بمشهد رجلين يتسامران حول النار في ليلة بدرها كامل التألق؛ رجلين تمدد أحدهما على ظهره متأملًا «الشِّعرَى اليمانية» يتوسط السماء، قبل أن يغمض عينيه على حلم قديم؛ على ذكرى امرأة لم يفهمها قط.

ظل المشهد يطارد بلوقيا حتى وصل إلى جبل المغناطيس، بصحبة ابنة ياقوت. هناك، أحس بأنه في مكان آخر لم يره من قبل. أرجع السبب لبلوغه الطَّوْد الأسود عبر السماء، على العكس من المرة السابقة حين رمته الأمواج هو والربان على صخرة في سفح الجبل، وجاهدا معًا لارتقاء دَرَجه مهدودي الجسد يكادان أن يفقدا وعيهما.

على الرغم من بعد المسافة بين المغناطيس وقاف لدرجة يبدوان معها كما لو كانا في عالمين مختلفين، قطعت العنقاء الرحلة في لمح البصر. لم يكن ثمة شبه بينها وبين رحلته إلى قاف معلقًا في مخالب طائر الرخ.

نظر من أعلى إلى منحدرات الجبل، وتأمل ما يبين له من صدوعه وصخوره شديدة الدكنة، ثم رنا للأميرة فوجدها مبهورة الأنفاس بما ترى. استعاد ذكرى لحظاته الصعبة داخل الصدع العميق، فاقشعر بدنه، أمده وجود زمردة إلى جانبه بطمأنينة أبعدت عنه طيف الذكريات السيئة، سحب يدها في طريقهما إلى مقر إيليا، سعيدًا بانطلاقها وتحررها من كل ما يقيدها.

حذرها من التحديق المباشر في مغناطيس الأجساد، وأعاد حكْي ما فعله ربان السفينة التي نقلته من مدينته البعيدة، فأخبرته أن والدها حصَّنها ضد لعنة الأحجار الفضية ما إن اختفت أمها. رمقها بعدم فهم، فشرحت:

انشقت الأرض وابتلعت أمي وأنا في الخامسة عشر، قبلها مباشرة كانت كأنما لا تعيش معنا، دائمًا ساهمة وتتكلم بالكاد. ظننتُ أن موجة حنين لمدينتها ضربتها ودفعتها للاختلاء بنفسها في غرفتها بالأيام، لكنها تلاشت بلا أثر خلفها. كدت أجن، وفعل أبي المستحيل كي يعيدها، ثم استسلم فجأة وارتكن للحزن. هرب من أسئلتي وإلحاحي عليه كي يخبرني بما يعرفه.

كانت الوصيفات يتهامسن بضياع ملكتهن في ظلمات هذا الطَّوْد المحاط بالخرافات، أخبرت الوصيفة الأولى أبي أن أمي رأت حجر الجنون الفضي في مناماتها، ووقعت في براثن سحره الأسود وغادرت قاف - بمساعدة ملكة الحيّات - بحثًا عنه. لم يصدقها لإيمانه بأن الحيّة الحارسة، كما يطلق عليها بتبجيل، لا تسمح لمخلوق بمغادرة قاف مهما

حـدث، وأنـه هـو والطيور والجـان لا يفعلون هـذا إلاّ عبر السـماء لعدم سـيطرة الحية عليها. رغم تشـككه في هذه الرواية، حرص على تحصيني ضد لعنة مغناطيس الأجسـاد بتعويذة تبطل أثره، وحين سـألته لماذا يفعل هـذا، لم يـرد. كان الجميع يتواطأ لإخفاء كل ما يخـص رحيل أمي عني، لكنني كنت أجيد التقاط الهمسات واستنطاق الصمت.

لـم تنتظر رده على كلامها، وأردفت ساخرة: «الخُلاصة أنه عليك أنت الحذر»!

لـم تطلعـه علـى أن معلمهـا درَّس لهـا كل صغيـرة وكبيـرة عـن جبل المغناطيـس باسـتثناء دور مغناطيـس الأجسـاد فـي القضـاء علـى ملكة الحيّات، إما لأنه يجهله، أو لأنه خاف مما قد تفعله بهذه المعرفة.

سار بلوقيا بجوارها، مركّزًا بصره على نقطة محددة أمام عينيه، محاذرًا التحديـق في الصخور الفضيـة، أما هي فأمعنت النظر فـي كل ما يقابلها. شـعرت أن خيال أمها يرافقها، يحنو عليها ويحتضنها، سـألت نفسـها إن كانـت مرّت بهذه البقعة قبلهـا، وهل لا تزال حية؟ تعرف زمردة أن أجوبة كثيـرة مخبـأة لدى ملكة الحيّات، تمنت لو تنجح في إسـالة حدقتيها فقط مـن دون أن تضطـر لقتلهـا، خطر لها أن حيّـة عمياء لن يكـون بمقدورها الاسـتمرار في عـزل قاف عن العالم وتحويله إلى سـجن من زمرد ثمين، كما أنها - تجنبًا للموت - ستبوح بما تعرفه عن مصير الملكة نورسين.

اسـتفاقت من خواطرها، وندمت لأنها لم تحضِر مرآتها معها، منذ أن صنعها بلوقيا لها، باتت تدمن مطالعة وجهها فيها ليل نهار.

مدّت خطاها كي تلحق ببلوقيا، لاحظت حيرته وانشغاله، بدا لها تائهًا كأنمـا لم يطأ المكان مـن قبل، كان ضائعًا بالفعـل، وعاجزًا عن الوصول إلى مقر إيليا. جال بخاطره أن صديقه قد يكون غادر إلى كوخه القديم في

الغابة على أطراف مدينته، غير أنه سرعان ما نفض الفكرة عن رأسه بدافع التمني أكثر منه بدافع اليقين.

تخبط مع زمردة بين الشِعاب والدروب، قطعا آلاف الخطوات صعودًا وهبوطًا، جلسا ليرتاحا لبعض الوقت قبل أن يعاودا البحث من جديد، خيَّم الليل فجأة مسلمًا الكون إلى عتمة شاملة. في جبل الزمرد ألفتْ الأميرة ليلًا يتسحب رويدًا كلون خجول يلقي، على مهل، بظلاله على لون آخر، أما هنا ففوجئت بليل قاسٍ عجول بلا قمر يخفف من ظُلمته أو نجوم تُرقِّش سماءه.

جلستْ ممددة ساقيها ومستندة بظهرها إلى صخرة ضخمة، أحست ببرودة الجو تتضاعف، حضر بلوقيا فقط عبر صوت تنفسه وحركات خفيفة تصدر عنه بين برهة وأخرى. حدست أنه لا بد نادم على مصاحبتها، ثم خطر لها أنه ليس كذلك، فالندم يتطلب أن يُتَاح للمرء بدايةً خيار القبول أو الرفض. كي يندم أحدهم عليه أولًا أن يكون حر الإرادة في توريط نفسه فيما يكتشف خطأه لاحقًا، وبلوقيا لم يملك القدرة على الاعتراض. هل جاء معها مرغمًا؟ سألت نفسها، وأجابت بأن هذا أيضًا احتمال غير وارد. تكاد تثق من أنه سعيد باصطفائها له كي يصاحبها في رحلتها هذه. لمحتْ هذا أكثر من مرّة في عينيه وفي حديثه - غير المنطوق - إليها.

لم تعرف سببًا لإيغاله المفاجئ في الصمت، ومع هذا شعرت بأنه صمت مشحون بتوتر تغص به المسافة الضئيلة بينهما، سكوت موشَّى بكلمات لم يُتَح لهما أن يتبادلاها، وبرغبات تكثّفها الظلمة والسكون. مدّت يدها تبحث عن يده، ضغطت عليها علّها تستمد منها الدفء، ففرد ذراعه في المسافة بينهما وجذبها نحوه كي تستريح في رقدتها بجواره. أخذت تقلِّب في رأسها احتمالات نجاتهما من عدمها. طمأنتها فكرة

وجود العنقاء بصحبتهما، وقررت أن يعودا إلى حيث تركاها ما إن تشرق الشمس من أجل الرجوع لـ«قاف».

بـدا لها جبـل المغناطيس مخيفًـا بظلامه هذا، وسـكونه التام. اقتربت أكثر من الراقد قربها ودفنت رأسها في صدره، ضمها إليه دون التخلي عن صمته، فأمدها بقوة أبعدت عنها أشـباح الرهبة. أغمضت عينيها وراحت في النوم. لم تنتبه إلى ما اعتراه من رجفة. قضى ليلته برفقة الأرق، مجترًا أحداث حياته، ومغالبًا رغبته في النائمة بين أحضانه، ساهيةً عمّا به.

اسـتيقظت زمردة قبل شـروق الشـمس بقليل، اعتدلت في جلسـتها، وهـي تحـاول تحديد موقعها مـن العالم: أين هي؟ ومـاذا تفعل؟ والأهم هـل تغادر فورًا أم تكمـل ما بدأته؟ كانت جائعة ومرهقة، وكان ثمة زقزقة لطيـور بعيـدة، وما يشـبه نباحًا متقطعًـا، وخرير مـاء أذهلهـا أن أذنيها لم تلتقطاه في هدأة الليل.

لـم يكن بلوقيا نائمًـا بجانبها، رجع بعد قليل بثمار لم تسـد جوعهما. طلبـت منـه التحرك إلـى حيث تركا العنقـاء بالأمس، فتاها مـن جديد في أحشـاء الجبل حتى بلغا غايتهما. لم يكن هناك أثر للعنقاء، كأنما تبخرت أو احترقت، وتطاير رمادها متحدًا بذرات الهواء.

ارتعبت الأميرة مما قد يسببه هذا الاختفاء من تبعات. بحثت مع بلوقيا عنهـا حتى هدّهما التعـب. أقلقها خاطر أن يقطع أبوهـا اعتكافه في قصر الياقوت فجأة فيكتشـف غيابها هي والعنقاء. لطالما حذرها من المغادرة على متنها قبل بلوغ الحادية والعشرين، لكنها استسلمت لشططها وعليها أن تدفـع الثمـن. تمنـت فقط ألاّ يكـون الثمـن باهظًا تترتـب عليه أضرار لـ«قـاف». امتلأت بحقد، غير منطقي، على ملكة الحيّات، أقنعت نفسـها بأن لعنة الحيّة سبب ما يصادفهما من حظ عاثر.

رمت نفسها على الأرض. جلست ورأسها للأعلى تراقب سماءً لا تعد بشيء، كانت الشمس قد أشرقت منذ مدة، لكنها متوارية خلف غيمة قاتمة. تابعت زمردة طيورًا عملاقة تكاد تحجب الأفق، قبل أن تستغرق في تأمل هاوية تطل عليها الحافة القريبة. أشعرها هذا بضآلتها في مواجهة طبيعة غادرة.

كان بلوقيا منهكًا أكثر منها، غلبه تعب النهار وأرق الليل فكاد يغيب عن الوعي، ظل منكمشًا على نفسه فترة، ثم تمدد على ظهره وغرق في النوم، وعلى شفتيه تيبَّست ابتسامة لا تناسب ما هما فيه من ضياع.

نهضت زمردة محاذرة إحداث جلبة. سارت في الاتجاه المعاكس للذي سلكاه أمس. تسكعت مدققة في معالم الطريق حتى يسهل عليها الإياب. ارتأت أن الحركة أفضل من الانتظار المستسلم لاستيقاظ رفيقها. هكذا يمكنها أن تجد فاكهة تأكلها، أو جدول مياه تشرب منه، أو ربما تقع عيناها على حجر فضي خاطرت بالمجيء إلى هذا المكان الموحش من أجله.

شعرت بأنها أبعد ما تكون عن نفسها كما تألفها، اكتشفت بداخلها طاقة جديدة، ساورها خاطر أنها نضجت بما يؤهلها لأن تكون ملكة قاف. مع المسير لاحظت أن جغرافيا الجبل تتبدّل من حولها، ابتعدت عن المنطقة الصخرية الجرداء - التي لم تبصر غيرها منذ وصلت - وخطت في مناطق أجمل وأكثر خضرة. صادفتها نباتات غريبة عليها، تتسم ببهاء غير مُرَوَّض. انتعشت لمرأى أشجار تُزنِّر الأفق، فغمرها النشاط رغم إرهاقها، لمحت من بعيد حقلًا ممتدًا يعج بالمئات. أسرعت صوبه وهي تهجس بكل الاحتمالات الممكنة.

لَمَّا دنت تيقنت من أن ما تراءى لها لم يكن سرابًا. كان الحقل يغص

بمزارعيـن منكفئيـن على نبتات قصيـرة لقطف ثمار يكوِّمونهـا في أكوام على مسـافات متساوية بين خطوط الزرع. كانوا منهمكين بحيث لـم يرفع أحدهـم رأسـه ولو لمرّة، ينتهون من كومة ويبـدأون في تكويم أخرى، ثم يعـاودون الانحنـاء على الشـجيرات. أملَت أن يرشـدوها إلـى الأحجار الفضيـة، غيـر أنهـم ذابوا ما إن داسـت داخـل الحقل. بات فارغًـا إلاّ من ثماره المكومَّة.

التفتت حولها فلم تبصر أثرًا للحاصدين. التهمت بضع ثمار وحملت بعضًـا منها عائـدة إلى حيث تركت بلوقيا نائمًا. حكت لـه بينما يأكل عمّا رأتـه. بَشَّـرته بوجود أنـاس على مقربة، وطلبـت منه مرافقتهـا إلى هناك. طاوعها على الرغم من تأكده - عبر جولاته الاستكشافية السابقة مع إيليا - من أن جبل المغناطيس مهجور.

قطعا الطريق نفسه، ومع هذا لـم يقابلا أشجارًا ولا أيًا من معالـم كانت زمردة سـجلتها في ذاكرتها. حين وصلا إلى حيث من المفترض أن يجدا الحقـل وفيـه الحاصدين، فوجئـا بقصر باذخ مـن الرخام الـوردي تعلوه قبـة فيروزية تخطف النظر، وتحيط به حديقة شاسـعة، تفـوح منها روائح عطريـة أخـاذة. تجولا بين الـورود والنباتات، مسـتمتعين بمرأى جداول ميـاه، ونوافير على هيئة تماثيل لنسـاء عاريات بأجسـاد من مرمر ونحاس أصفـر. كان بلوقيا مأخوذًا، أما الأميرة فاعتراها الفزع وهي تسـأل نفسـها كيف انبعث هذا القصر من العدم.

في إحـدى قاعاته المؤثثة بآرائك مكسـوة بالحرير وبُسـط من الفراء، وجدا مائدة عامرة بأفخر أصناف الطعام: خراف مشـوية وفراريج محشوة بالفستق وفواكه وحلوى وخمور معتَّقة. بدون حذر تسابقا على الأكل من كل الأصناف، وشربا من الخمر حتى كادا يغيبان عن الوعي. بنصف انتباه

استمعا إلى موسيقى تعالت في أرجاء القاعة مصحوبة بغناء لم يفهما كلمة منه. شعر كلاهما بأنه يبحر في عوالم مبهجة جديدة عليه. تحركا بين قاعات القصر وغرفه وعلى لسانيهما مذاق خمر يعجزان عن وصفه، قبل أن يستسلما لفضاء أبيض حملهما بخفة إلى براح الحلم.

استيقظا صباحًا متعانقين في العراء، ولم يكن ثمة أثر لقصر البارحة الباذخ. تبادلا حكْي ما مرا به، بعد التهام الطعام الشهي، وشرب الخمر الذي كان مذاقه لا يزال حاضرًا، أما القصر نفسه فتلاشى.

أكد بلوقيا أنهما في الاتجاه الصحيح إلى حيث إيليا والأحجار الفضية، وإلاّ لماذا تحوَّل الدرب إلى متاهة، تتلاعب بهما وتضللهما عن وجهتهما بتبديل معالمها، وابتكار إغراءات تحيد بهما عن مواصلة سعيهما إلى نهايته. طلب منها أن تتبعه وألاّ تنشغل بأي شيء يخايلهما. تابعا مسيرهما من دون الالتفات حولهما، مرّا بطيور ملونة بألوان قوس قزح، لاحقتهما، فلم يعيراها اهتمامًا. أبصرا عجوزًا تنتحب تحت شجرة لم يعرفا ما ينافس ثمارها جمالًا، توسلت العجوز إليهما أن يساعداها على النهوض مقابل كل طرح شجرتها، فلم يستجيبا رغم تعاطف زمردة معها.

قرب نهاية الطريق ظهرت فتاة باهرة الحسن متكئة شبه عارية على صخرة بازلتية، اندفع بلوقيا نحوها كأنما سلبته إرادته، لكن زمردة قبضت على كفه وشغلته بسرد سيناريوهات لما يمكنهما فعله حين يعودان إلى جبل قاف. ما إن تجاوزا الفتاة حتى تبخرت، ولحظتها فقط عاد جبل المغناطيس مألوفًا لبلوقيا، استعاد إحساسه باتجاهاته. التفت حوله متأملًا الصخور السوداء والمدرجات الصاعدة والهابطة، وقاد زمردة متجهًا إلى حيث ترك إيليا آخر مرّة.

وصلا إلى أجمة الأشجار القريبة من جدول الماء. كان إيليا قد بنى كوخًا لنفسه وجلس أمامه يشوي غزالًا اصطاده في الصباح. تهلل وجهه حين رأى بلوقيا. احتضنه بلهفة، وسلَّم على زمردة بتحفظ. قادهما إلى داخل الكوخ، وغاب بالخارج لبرهة ثم ارتدَّ بالغزال المشوي. أكل ثلاثتهم بنهم بينما يسرد بلوقيا لصديقه ما مرّ به منذ أن تركه ذات صباح، راقبت زمردة السحنة المتجهِّمة لإيليا المنصت دونما تأثر، بدا لها كشخص واجه أهوالًا حصَّنته ضد الدهشة.

قال في النهاية: جئتما من أجل مغناطيس الأجساد؟ سأمنحكما بعضه بعد تغطيته كي لا تقعا تحت تأثيره.

ردّت زمردة بتفاخر: أنا محمية منه بتعويذة من أبي ملك الجبال والأحجار الكريمة.

اصطحبها إيليا معه، فيما خرج بلوقيا للتجول في الجوار. عندما عاد وجد زمردة جالسة في الكوخ تنصت مبهورة الأنفاس إلى حكاية إيليا منذ ارتحل بحثًا عن الليل، حتى استقرت به الحال فوق قمة جبل المغناطيس.

أثار كلامه عن مسوّداته فضولها، فَرَجته أن يطلعها عليها. أشار إلى الركن حيث تلة صغيرة من رقوق وجلود لم تكن زمردة لاحظتها. انغمست فيها تاركةً المجال للرجلين لمسامرة ممتدة أمام الكوخ.

في مسودة حديثة قرأت:

«الآن فقط، أفهم مغزى وجودي. أؤمن بأني ما وُلِدتُ إلاّ من أجلها، وما خاطرت بحياتي على دروب وعرة سوى من أجل لحظات مختلسة تتراءى لي فيها. أربعينية فاتنة، ذات سمت ملكي، تخطو كطيف بين شِعاب الجبل، تبتسم للفراغ أمامها، وتربت على الأحجار الفضية وهي تتفحصها بشغف. مثلما تظهر فجأة تختفي بلا مقدمات. تعقبتها مرّة

فأخذتنـي إلى طريـق تتغير معالمه باسـتمرار، تنبعث فيه قصور وأشـجار وحقول سـرعان ما تزول كسـراب. وحدها المرأة تحافظ على حضورها وخطوها الرشيق.

أشـعر بطيفها يرافقني حتى في الأحلام، أغفـو فأفاجأ بأني بصحبتها، جالسًـا أتابع مراحـل مختلفة من حياتهـا. أراها طفلة فـي مدينة تقع فوق جـرف يمتد بين جبال زاهية الخضـرة، وبحر تتلاطم أمواجه بصخب، ثم صبية، ثم ملكة واثقة على عرش من زمرد مُطعَّم بالياقوت، ثم وهي تحمل رضيعة بينما ترنو للبعيد بأسى. امتلكت قلبي، وربطتني بجبل المغناطيس بحيث لم أعد أتخيل مسـتقرًا سواه. يداخلني يقين بأنها تكن لي المشاعر نفسـها، المـرّات القليلة التي التقت عيوننا فيها أسـرَّت لـي بوعود خلابة ثمنها حياتي».

في الصباح، انفردت زمردة به في الكوخ وسـألته عن المرأة المكتوب عنهـا فـي مخطوطه، فصمـم على أنها متخيلـة ولا وجود لها فـي الواقع، وعندمـا ألحـت عليه أقسـم أن مـا تبقى، من امـرأة أحلامـه، مجرد طيف يؤنس وحدته. شـرد مقلِّبًا بصره بين الصخور المجاورة، ثم أعطى زمردة حجرين فضيين ملفوفين بعناية، وخرج. بعد قليل غادرت بصحبة بلوقيا، حمل هو الحجرين الملفوفين بعناية، فيما دسّـت هي بين طيات ملابسها بضعة رقوق مختلسة.

عادا في طريق التيه ذاته. تجاهلا كل ما قابلهما من مغريات. هذه المرّة فاجأهما الطريق ببساتين كروم من فضة وذهب، وجداول مياه رقراقة بلون أرجوانـي زاهٍ، وبحيـرات من خمر تفـوح رائحتها. لم يلتفتا، اسـتمرا في سـيرهما بهدف الوصول إلى حيث هبطت بهما العنقاء قبل يومين، ابتهلا كـي تعود لحمْلهما. محل القصر الباذخ الـذي قضيا فيه ليلتهما الثانية في

جبل المغناطيس، فوجئا بشـق في جسم الجبل يكاد يختفي خلف نباتات متسلقة كثيفة الأوراق، حاولا إسراع الخطى للابتعاد عنه، لكن قوة جذب هائلة انبعثت منه وشدتهما صوبه.

انطلق من داخله غناء اسـتحوذ عليهما، مع الوقت كان الصوت يتضح أكثر ليملأ فضاء مغارة جدرانها سـوداء، أسـلمهما الشـق لهـا، تتّبّعاه إلى العمق مرتبكين، دخلا سـردابًا ضيقًا، غفلا فيه عن حقيقة أنهما ابتعدا عن غايتهما في الوصول إلى حيث أنزلتهما العنقاء.

أوصلهما السرداب بدوره إلى قاعة مزدحمة بنساء مخمورات، لم يبد عليهـن أنهن لاحظـن دخول بلوقيـا والأميرة اللذين توقفـا للحظات قبل أن يواصـلا التعمـق في الداخل. خرجا مـن القاعة ليدلفا إلـى ممر مظلم ابتلعهما، تحسسا طريقهما بصعوبة وكادا يتعثران غير مرة.

فـي النهايـة بان لهما شـعاع ضوء أمَـلَا أن يقودهما للخـارج. لم يكن من أشـعة الشـمس كما تخيلا، إنما من مصباح باهر معلق في سقف قاعة جديـدة، محيـلاً ظلمتهـا إلى نهـار. خلَّفا وراءهمـا الممـر المظلم وقاعة النسـاء الهائمـات، ليلجـا بعد البهـو المضاء، آخـر جدرانـه زمردية، وبه شـموع موضوعة في كوى على مسافات متسـاوية من الحائط. اهتز لهب الشموع مخلِّفًا ظلالًا متداخلة تراقصت فوق تخت منحوت من الصخور يقبع في صدر المكان.

شـعرت زمـردة بأنهـا انتقلـت إلـى أجـواء مغايـرة كليًا لأجـواء جبل المغناطيـس، عـززت الجـدران الزمرديـة هـذا الشـعور لديهـا، وأمدتها بالألفة، اخترقها مزيج من روائح هجين، جلسـت فوق التخت الصخري طلبًـا للراحـة. أشـارت لبلوقيـا أن يحـذو حذوهـا، فوضـع الحجريـن، الملفوفين بعناية، على الأرض، وجاورها.

تخففت من ملابسها. وصلت يدها إلى الرقوق التي اختلستها من إيليا ولفَّتها حول وسطها، وضعتها بحرص على الأرض، فيما يتابعها بلوقيا متحفزًا. كانت شبه عارية حين اقترب منها، ولثم فمها بارتباك. أغمضت عينيها، في حين غمر هو وجهها ورقبتها بالقبلات، ثم نزل بشفتيه إلى صدرها. تأوهت بدلال، فغرق بلوقيا أكثر في تضاريس جسدها الذائب بين أصابعه والمؤتمِر بلمساته.

حين تصاعد لهاثهما المنتشي معًا في اللحظة نفسها، وأراح رفيقها رأسه على صدرها، اختفت الرائحة الكثيفة، وبقيت الأضواء المهتزة والظلال المتراقصة. رقدا على ظهريهما متجاورين لبعض الوقت: هو يحدق في السقف مجترًا ما اختبره لتوِّه، وهي تلاحق الظلال على الجدران الزمردية غير راغبة في النطق بأي كلمة.

في النهاية قاما بتثاقل، ارتدت ملابسها أولًا ثم تبعها هو، وحمل حجريّ الجنون فيما نسيت هي رقوق إيليا. خرجا من باب تكاد تحجبه شجرة ضخمة، ليكتشفا أنهما في جبل الزمرد. انتبها لذلك عندما لمحا صخورًا زمردية في كل مكان حولهما وإن لم يفهما كيف يربط هذا السرداب العجيب بين جبلين تفصل بينهما بحار ومحيطات.

كانت السماء زرقاء والجو صحوًا. ثمة حقل شاسع من الصبار امتد في مواجهة باب المغارة، وتشكيلات صخرية من الأحجار الكريمة تناثرت هنا وهناك. ابتعدا دون الالتفات خلفهما. في الداخل كان ثمة طيف ينحني للقبض على رقوق دوَّنها مَن اُفتتن يوما بالبحث عن شيء خارق الجمال يدعى الليل.

***

مختفية خلف الشجرة على باب مغارة أرض الجنيات، وقفت مروج تتابع الأميرة وبلوقيا بينما يبتعدان.

اصطخبت في عقلها الظنون، وتأرجحت دقات قلبها وغارت بداخلها، شعرت بغصة بينما كانت تنصت إلى لهاثهما وهمسات غرامهما قبل قليل، حمل لها السرداب المعتم، حيث توارت بجوار الطيف، حرارة الجسدين الغائبين في النشوة، فتمنت لو كانت تراهما رأي العين، لا ترهف حواسها لتسول اختلاجات الشوق الصادرة عنهما. اختلطت غصتها بالإثارة والفضول.

غابا عن مجال بصرها مبتعدين، فدخلت لتجد الطيف متربعًا فوق تخته الصخري، يقرأ الرقوق المنسية مبهور الأنفاس، غير قادر على رفع عينيه بعيدًا عن السطور المكتوبة بعشوائية، جلست بجانبه، تحاول اختلاس النظر. بدت لها الحروف المتشابكة أشبه بطلاسم، واندهشت من قدرته على سبر غورها. تشاغلت بتدوين ما جرى بين بلوقيا وأميرة الجبل، وبوصف المغارة السحرية من الداخل، لم تنتبه قبل اليوم إلى ربطها بين قاف وجبل المغناطيس. بان لها الطيف لأول مرة ككائن كلي القدرة، يخفي أضعاف ما يُظهِر. أقلقها هذا، غير أنها سرعان ما نفضت مخاوفها، واحتمت بحروف تخطها.

انتهى الطيف من القراءة، فألحت عليه أن ينقل لها فحوى ما قرأ. بصبر بدأ يسرد محتوى الرقوق، فيما انكبت مروج على تدوين الخطوط العريضة لما يقول، وقد شغفت بالخيال الجامح لمدوِّن هكذا نصوص. في الليل تربعت على أرضية الكهف تكتب، على الضوء المرتعش للشموع، ما حفظته ذاكرتها مما نقله الشيخ عن الرقوق التي نسيتها الأميرة. غير عابئة بالأصوات والأصداء المترددة بين جنبات أرض الجنيات، استعانت بالخيال وبما سبق ودوَّنته من خطوط عريضة لإعادة خلق حكاية عملاق باحث عن الليل، ومدينة تغيرت أقدارها لتصير أخرى مترددة بين نهار

غادر بلا رجعة وليل يأبى الوصول، حكاية من عاش أيامًا وليالِيَ وشهورًا وسـنوات يدوِّن بلا انقطـاع، تفاصيل حقيقية وأخـرى مخترعة بينما تهيم روحه بين كوخ في غابة على مقربة من بحيرة، وآخر متقشـف في وحشـة جبل المغناطيس.

رابونزل

تموت كلماتي ما إن أنطق بها، لا تغادرني،
تلاحقني أشباحها لمعاقبتي على جرم غامض.

في ماضٍ بعيد، كانت «رابونزل»!

لم يكن ثمة برج عالٍ أو ساحرة شريرة أو أمير وسيم. لم يكن ثمة فجل مسحور أو صوت يسلب العقل، وبالطبع لم يصلح شعرها كحبل يتسلقه حبيب ما إلى محبسها، لكنّ نادية كانت «رابونزل» الجميلة ذات الشعر الطويل وكانت رابونزل إياها.

حتى سن العاشرة امتلكت شعرًا طويلًا يصل إلى أسفل ظهرها، خصلاته بنية ضاربة للشقرة، تسير فتكاد تتعثر فيه، تتابعها أمها بفخر، وترمقها باقي الأمهات بحسد، وتخجل هي من العيون التي تتجاوز وجهها وجسدها متوقفة دائمًا لتأمل شعرها.

اعتادت أمها أن تتعامل مع شعر بناتها كمعيار وحيد تقيس به تفوقها على بقية الأمهات، ولسببٍ ما تحملت نادية وحدها مسؤولية أن تكون دليلًا على مهارة الأم وعلوّ كعبها. الأولاد في الشارع يقولون إنها جنيَّة، ورغم هذا يقفون منتظرين أمام بيتها أملًا في رؤيتها حين تقف في الشرفة أو تخرج للحديقة، والبنات ذوات الشعر القصير ينظرن لشعرها بازدراء غيور، وهي رغبت في التخلص من هذا العبء. صرخت وبكت وامتنعت

عـن الطعـام من أجل التخلص ممـا ليس في نظرها أكثر مـن حبال طويلة تقيد حركتها.

بعد ثلاثة أيام من الضغط المتوالي رضخت الأم مضطرة لتنفيذ مطلب «رابونزل»، ثم امتعضت حين رقصت الأخيرة مبتهجة، لم تتمالك نفسها، أشاحت بوجهها، وتحسّرت على سوء حظها مع بناتها.

تخلـت «رابونـزل» عن شـعرها فصـارت تمتهـن التخلـي، وتتقن فن الخسـارة، كان تدريبهـا المبكـر علـى الهجـر، ومـع أنها لم تكـن أجمل بشعرها القصير، لم تندم قط ولم تتأثر بتحسر أمها وأقاربها على جدائلها، وقد أصبحت «ألا جارسـون»، بسـبب نزقها وتصميمها. لم يعاود شعرها النمو سـريعًا، بل ببطء شـديد كأنما ينتقم من صاحبته التي لم تكن مهتمة أصلًا. وصل إلى الكتفين بصعوبة بعد ثلاث سنوات من قصه.

تواصـل حـزن الأم طويـلًا كأنهـا أم لهـذا الشـعر فقـط، ولا يربطهـا بابنتها شـيء غيـره. تعجبت لأنهـا قامت بكل الطقـوس اللازمة كي ينمو علـى نحو أفضل. قصَّتـه والقمر بدرًا، والتقطـت الخصلات المقصوصة بحـرص ووضعتهـا في كيس، ألقته فـي النيل مصحوبًـا بأمنيات أن يكون الشـعر الجديـد أغزر وأجمل من سـابقه. لم تغادر موقعها بجوار شـجرة الصفصـاف، المائلـة أغصانهـا على مياه النهـر بحنو كأنها تسـجد له، إلا بعـد التأكد من أن تيار الماء جرف الكيـس معه. قامت بالطقس على نحو صحيح، لذا لم تفهم لماذا تأخر نمو شعر صغيرتها، استنتجت أن نبتة ورد نيل أعاقت جريانه، أو الاحتمال الأسـوأ أن تكون إحدى جنيات النهر قد أخفته، ساعتها لن يعود كما كان أبدًا.

وحدها نادية فرحت بأن شـعرها لـم يعد يضايقها، وحرصت فيما بعد على ألاّ يطول عن حدود كتفيها.

لكـنّ علاقتها بالتخلي لم تبدأ بقَصّه، إنما قبل هذا بأربع سـنوات على الأقل. كانت في الخامسة من عمرها تلعب فوق سطح بيتهم بطائرة ورقية ملونة. الهواء يعابث شـعرها فيكاد يخفي وجهها، ويدها الصغيرة تمسك بخيـط الطائرة بأقصى قـوة ممكنة، النيل وأشـجاره والحقول المحيطة به تبين من بعيد وطيور الإوز العراقي البيضاء تكاد تلامس ماءه قبل أن تطير مجـددًا، فـي حين ينقر طائر أبي قردان في تربـة حقل مجاور. وهي كانت غافلـة عن هذا كله لأن عينيها كانتا متشـبثتين بالطائرة الورقية في رقصتها الصاخبة مع الهواء المشاكس.

سـعيدة حد النشـوة، ودت لو تطير مـع الطائرة إلى مـا لا نهاية، لكنها فجـأة وبـلا مقدمات تركت الخيط يفلـت من يدها ووقفـت تراقبها تبتعد عنها. لم تحزن ولم تندم، فقط ظلت سـاكنة تتابع المشهد كاملًا. بتخليها عـن الطائـرة انتبهت لجمال منظرهـا على خلفية النيل بنباتاته وأشـجاره، والحقول المحيطة به.

هـي رابونزل! هذا ما أنـا متأكدة منه. غير أني لو اخترت لها شـخصية أخـرى، سـأختار «ريميديـوس». سـأقول لها بتأكيـد: «أنـتِ ريميديوس الجميلة». وإذا نظرت إليّ مسـتفهمة، لن أُحدِّثها عن جارسيا ماركيز، ولا عن جميلته التي طارت إلى السماء. سأكتفي بكلمة واحدة: «كانت إياكِ».

اعتادت الأم أن تغطي وجه ابنتها وهي رضيعة بقطعة شـيفون شـفافة، وحيـن تضبط أحـدًا من أطفال العائلة يكشـف وجههـا ليحملق فيه وهي نائمة، توبِّخه، وتطلب منه الابتعاد. رأت ابنتها أجمل من أن تنكشف على الملأ هكذا لأعين الحاسـدين والفضوليين. لكـن لمّا كبرت نادية لم يعد من الممكن حجبها.

كانت تعود باكيةً من المدرسـة، وتسـأل لماذا يحملق فيها الآخرون؟

فتطلب منها أمها ألاّ ترد على نظراتهم. لم يخبرها أحد أن جمالها فائق، فكانت كلما دخلت مكانًا، ولاحظت العيون المتجهة إليها، تظن أن ثمة خطأً ما في هيئتها يدعو الآخرين للتحديق فيها. عندما تزور بيت أقارب بعيدين أو إحدى زميلاتها، تسألها أمها بمجرد عودتها، ماذا قالوا حين رأوكِ؟ لا تعرف كيف تجيب، ولا ما الذي يجعل رؤيتهم لها أمرًا ذا أهمية؟

عندما تنظر الأم لابنتها الأخرى يرتسم شعور بعدم الرضا في عينيها وعلى قسمات وجهها. «ارفعي راسك»، «افردي جسمك»، «ابتسمي، وشِّك مش ناقص». تردد الأم لهذه الابنة بلا ملل. لكنها تبتهج حين تبصر نادية. حتى لو لم تعطف عليها، أو تمدح جمالها بكلمة، فعيونها كانت تفعل، وما كان يغيظ الشقيقة ويضاعف من غيرتها في الوقت نفسه أن أختها لم تكن تكترث بهذا أو حتى تنتبه له. تمامًا كعدم اكتراثها فيما بعد حين كان المارة يتركون انشغالاتهم ويقفون متابعين نزولها من سيارة زوجها الأول كمال، أو خطوها الرشيق في الشارع بصحبة ابنتها هدير، إلا أن لا مبالاتها، في الحالة الثانية، كانت بطريقة الواثق من جماله، العارف به لا الغافل عنه.

الآن، في مهجرها البعيد، يخيَّل لنادية أنها غير مرئية. تتحرك بين الناس كظل تائه. لا أحد يعرفها، ولا تعرف أحدًا. تشتاق لابنتها ولحياتها القديمة وتستعيد تفاصيل لطالما ظنتها تسربت إلى عالم النسيان. صارت تخيفها فكرة أن تموت مقطوعة عن جذورها. بدأ هذا الانشغال بمداعبة عابرة سرعان ما تشعبت لتستحوذ على واقعها ككابوس.

«إذا متُّ فلا تدفنّي في هذه البلاد الباردة». قالت لزوجها بينما تسوِّي شعرها بيديها أمام المرآة.

قصـدت مداعبتـه، إذ تعرف أنه يمتلـك مزاجًا اكتئابيًـا، كما لا يحتمل فكرة فقدها، وجملة مثل هذه سـتجعله يقطّب جبينه، ويوبخها بعبارة آلية من دون النظر إليها.

رغـم مقصدها هذا فإن كلماتهـا خانتها وارتدَّت عليها، فلم تبصر فيها سـوى مصيرها الآتي بلا ريب، لمحت ابتسـامة ماكرة تلمع فوق شـفتيه، فبدت لها نذير شؤم، ودلالة على تبدل أقدارها.

لأول مرة تفشـل في توقع رد فعله. كانـت واثقة من قدرتها على قراءة مـا يعتمل بداخلـه، وتتعمد أن تضعه في مواقف بعينهـا لمجرد التأكد من عـدم قدرته على الخروج عن السـيناريوهات التي تتوقعها، إلا أن الرجل المبتسم أمامها بمكر وتشفٍ وضعها بقسوة أمام عبارتها القبيحة.

لـم تنشـغل قبلًا بالموت، وليسـت مؤمنة بما يكفي لتهتم بما سيحدث لهـا بعده، لكنهـا دون مقدمات وبعد أن اندفعت الكلمات السـوداء، التي أرادتهـا لعوبًا من فمهـا، انتابها خوف طفولي، من إمكانيـة موتها ودفنها، سـواء في مقبرة الحي الأشـبه بحديقة عامة، أو في مقبـرة عائلتها بقريتهم التي لم تزرها في السـنوات الأخيرة سوى مرات قليلة. انتبهت لعبثية دفن إنسان في مكان لا علاقة حقيقية تربطه به.

كانـت سـتخضع لعملية جراحيـة طارئة، وأرادت التلـذذ برؤية خوف زوجهـا وانزعاجـه عليهـا، ولمّا لم ترَ هـذا انزعجت هي. ركبت السـيارة بجواره في طريقهما إلى المستشـفى محاولة إبعاد وسـاوس المرض عن ذهنها: سـيناريوهات متعددة تؤدي كلها إلـى نتيجة واحدة، يخبر الطبيب مريضتـه مرتبكًا أنها تواجه مرضًا لا شـفاء منه. «أمامك سـتة أشـهر» هذا مـا يردده الأطباء عادة في الأفـلام الميلودرامية القديمـة، يتغير الممثلون والمخـرج والديكـور لكن الجملة لا تتغير، ومعهـا النهاية، حيث تحدث معجزة الشفاء دونما تقديم مبررات مقنعة.

رغم علمها بأن مرضها ليس بهذه الخطورة، تمنّت للحظات أن تختبر مشـهدًا مماثلًا، فقط كي يشعر زوجها بأنه أخطأ عندما ابتسم بمكر ساخر هكذا.

جلست في الكرسـي المجاور له بينما يقود السيارة وهو يدندن بأغنية مرحـة، قبـل أن يرفع صوت الكاسـيت ويصمـت تاركًا المجـال لـ»بينك فلويـد» وأغنيتهـم «الجانب المظلم من القمر»، رمقتـه بغضب كأنه تعمد اختيار أغنيـة موجّهة ضدها، لتضخيم مخاوفها الوليدة. تشـاغلت بالنظر عبـر النافـذة إلـى المدينـة، زجاج السـيارة كان يحجـز البـرد القارس في الخـارج. وصوت الـ»بينـك فلويد» يتعالى من أغنيـة لأخرى من دون أن يبدد هواجسها.

السـيارة المسـرعة نقلتها إلى زمنها الماضي، إلى الطفلة ذات الثماني سـنوات التـي كانتها، وصدقـت أن نبتة قمـح عملاقة سـوف تنمو داخل أذنها، وتخترق جذورها طبلة الأذن لتفقدها سمعها نهائيًا.

كانـت تلعـب في إجـازة الصيف فـوق كومـة القمح في شـرفة بيتهم. ترمي نفسـها في بحـر حبوب القمـح وتتدحرج فوقهـا. حاولت الوقوف على يديها: رأسـها للأسفل، وقدماها للأعلى. اختل توازنها ودُفِن رأسها في كومة القمح الأشبه برمال متحركة. قامت مسرعة تنفض حبات القمح عنها، خاصة ما تسرب لمنها إلى أذنها. تخلصت منها جميعًا باستثناء حبة مشاكسـة استقرت في تجويف الأذن اليسـرى. خافت أن تبكي أو تصرخ كي لا تعاقبها أمها على شغبها الدائم.

خرجت إلى الحديقة حيث أشجار البرقوق والليمون وتكعيبة العنب. قضـت سـاعتين في اللعـب القلِق مـن غير أن تنسـى الحبة المسـتقرة في أذنها، حين عاد والدها الذي يتواطأ معها ضد الجميع، أخبرته بما حدث.

طلـب منهـا أن ترتدي ملابس الخـروج فورًا كي يصطحبهـا إلى الطبيب. أكد لها أن حبة القمح لو تُرِكت، سيطالها الماء، وسوف تنبت ممتدة أفقيًا للخارج. أو قد – وهذا هو الأسـوأ – تخترق جلدها وأنسـجتها مسـتطيلة رأسيًا بداخلها. أرعبتها الفكرة.

سـارت بجواره وهـي تغالب دموعها. قالـت بميلودرامية إن هذا ربما يكون يومها الأخير، فأمّن على كلامها بهزة من رأسه وهو يقاوم الضحك. شـعرت بالأسـف من أجل حياتها التي بدأت بالكاد وها هي سـتنتهي في لمح البصر، فكرت أنها يجب أن تصالح شقيقتها التي خاصمتها لأنها لم توافقهـا على أن الفـأر جيري أكثر ذكاءً من القط تـوم. كما عليها أن تخبر أمها أنها من كسر برطمان مربى المشمش لأنها لا تطيق مذاقه.

«بمـا أنه يومك الأخير، إيـه رأيك أعزمك على سـباتس وجيلاتي؟»، سـألها أبوها، فنظرت له بلوم ولم ترد. لم تفهم لماذا لا يبدي بعض القلق عليهـا طالمـا أكـد لها خطـورة حالتها. سـحبها من يدهـا إلـى «كافيتريا» مجـاورة. طلب لها زجاجة سبيروسـباتس كـولا، و«آيس كريـم» فانيليا، وتابعها مبتسمًا.

جلسـت تغالب توترها، بفسـتان أحمر قصير مُزَيَّن بالدانتيلا البيضاء، وبشعر ململوم للخلف بمحابس صغيرة ملونة على شكل زهور وفراشات وقلـوب صغيرة، أزاحت زجاجة سبيروسـباتس جانبًـا، وبدأت في تناول «الجيلاتـي» وهـي تتأمل لافتـة تحمل اسـم الطبيب فوق واجهـة المبنى المقابـل. بـدا أبوها مسـتمتعًا لدرجـة ضايقتها، ومنحازًا لإيقـاع بطيء لا يفضِّله عادةً.

يعـرف أنها تكره الأطباء، وترتعب من الحقن والأدوية، غير أنها – في لحظتهـا تلـك – كانت تتعجل الذهاب للطبيب، وتكـره إصرار أبيها على تأخير هذه الخطوة. ندمت على أنها لم تخبر أمها بما حدث لها.

فـي النهايـة اتجها إلـى العيادة. ضحـك الطبيب حين علـم بقصة حبة القمـح، وقرصها مـن خدها مداعبًا ثم أعطاها شـيكولاتة. رفعها لتجلس فوق الكرسـي العالي، واقترب منها بأداة لـم تتبينها لأنها أغمضت عينيها خوفًـا وعضّـت علـى شـفتها السـفلى. شـفط القمحايـة دون ألـم يُذكر. وسـاعدها علـى النزول. لم تصدق بسـاطة الأمر، ولم تسـامح أباها على سخريته منها.

الآن وبعد هذه السـنوات الطويلة، وبينمـا تتجاهل الأغنيات المنطلقة من كاسيت السيارة، وترنو لناطحات السحاب الأنيقة والمارة المسرعين في الوسـط التجاري لمدينة يخترق بردها العظـم ويترك آثاره في الروح، راودتها أحاسيس مشابهة لما مرت به قبل الذهاب إلى الطبيب وهي طفلة، عادت صغيرة يقوم زوجها بدور أبيها في إغاظتها ببروده وسخريته، أمالت رأسـها جانبًا، وضعت كفها أسفل أذنها، واستغربت عندما لم تسقط منها حبـة قمح. التفـت إليها زوجها متسـائلًا عمّا تفعل، فطلبت منه بما يشـبه الرجـاء... «ممكن ناكل آيس كريم ونشـرب حاجة سـاقعة قبـل ما نروح للدكتور»!

في تورنتو، حيث المستشـفى بالغ النظافة والنظام أخبرها طبيب أشقر بابتسـامة جذابة ونظرة سـاحرة، أنها تحتاج إلى عملية جراحية صغيرة في الرحم، لا تستدعي كل هذا الخوف البادي عليها.

«كفاية سخرية بقى».

خرجت من العملية سالمة، لكن فكرة الموت لم تغادرها، بل عششت داخل جسدها الجميل، ولوَّنت رؤيتها للعالم. حاولت طمأنة نفسها، غير أن اسـتعادتها لرد الفعل البسـيط وغيـر المتوقع لزوجهـا كان يُدخِلها في موجة كآبة لم تستطع التخلص منها بسهولة.

استعصى عليه فهم أسباب اكتئابها، بالغ في تدليلها والاهتمام بها، اصطحبها ليبتاع لها هدية تختارها بنفسها. استسلامًا لموجات حنين شرعت تداهمها بلا سابق إنذار، رغبت في القبض على بعضٍ من ماضيها، اختارت خاتمًا مزينًا بفص من الزمرد شبيهًا بالذي كانت تملكه وضاع منها، وتمنت أن تجد أي قطعة مجوهرات على شكل رأس المسيح لكنها لم تعثر عليها.

عادت مع زوجها إلى منزلهما تكاد تطير من الفرح بخاتم الزمرد، لم يفهم سبب سعادتها الفائقة، إذ سبق وأهداها هدايا أثمن لم تسعدها بالقدر نفسه، لكنه ارتاح لاستعادتها كثيرًا من ألقها المحبب له.

أما هي فكانت ترفل في دهاليز زمن بعيد حملت فيه رأس المسيح!

أو لو شئنا الدقة، تزينت فيه لسنوات بسلسلة ذهبية بها «دلاّية» على هيئة رأس المسيح، اشترتها مع خاتم الزمرد الذي أضاعته هدير.

كانت في سنتها الجامعية الأولى في القاهرة في الثمانينيات، طالبة غريبة تتعرَّف على المدينة وتتحرك فيها بمزاج سائحة ترسم بخطواتها خريطة متخيلة لمدينة تخصها وحدها. أخذتها قدماها إلى محل ذهب في شارع متوارٍ خلف جامع السلطان حسن على واجهته لافتة: «مصوغات جورج». وقفت تتفرج على الحلى الذهبية المعروضة في «الفاترينة» فخطفت السلسلة المنتهية برأس المسيح انتباهها. في البداية لم تدرك لمن الوجه، ظنته لفيلسوف يوناني: أفلاطون مثلًا أو سقراط.

دلفت إلى المحل، وأشارت إلى السلسلة التي ترغب في شرائها. للحظة بانت علامات الاندهاش على وجه الصائغ الأبيض السمين المزينة أصابعه بخواتم ذهبية عديدة. رمق رسغها الأيمن فلم يجد وشم الصليب عليه، فتهلل وجهه وراح يمدح تسامحها وتحضّرها، الأمر الذي نبهها لماهية الرأس.

باع لها السلسلة بخصم جيد. وضعتها حول رقبتها على الفور، وراحت تتفرَّج على الخواتم والأقراط المعروضة داخل المحل. طمعًا في كسب زبونة جديدة، فتح الصائغ خزانة مجاورة وأخرج تشكيلة من الخواتم قال إنه لا يعرضها إلاّ على زبائنه المفضلين.

فَرَد التشكيلة على زجاج مكتبه طالبًا من نادية إلقاء نظرة عليها. تجاورت خواتم مزينة بفصوص من الماس، الياقوت، والفيروز، وفي وسطها خاتم بفص زمرد خطف بصرها. تأملت زمردته بشغف، ارتدته فبان خلاّبًا في بنصرها. المال المتبقي معها لم يكن يكفي لشرائه، فباعت للصائغ خاتمًا وسوارًا كانا في يدها اليمنى.

تمنت أن يشاركها معارفها انبهارها بخاتم الزمرد، لكن لم ينتبه له أحد، وركزوا جميعًا على السلسلة المنتهية برأس المسيح. بعضهم تأملها بدهشة. وهناك من سألوها عن ديانتها رغم معرفتهم بها، أو قالوا باقتضاب إنها غير ملائمة، في حين تقربت منها زميلاتها المسيحيات بفضول مشوب بالامتنان.

وهي شعرت بالخذلان قليلاً لأنهم لم يقدروا خاتمها الزمردي حق قدره.

كان الخاتم الجديد الذي اشتراه لها زوجها يشبه القديم لدرجة كبيرة، شعرت أنه يمنحها درجة أعلى من الانسجام مع محيطها. الخاتم وحوض أسماك الزينة، والمرايا العديدة التي تكسو الجدران، ونباتات الظل داخل المنزل وأشجار ونباتات الحديقة منحوها الكثير من التناغم، وقللوا من إحساسها بالغربة، واحتياجها إلى الدفء، بمعناه الحرفي، في أجواء بالغة البرودة لم تعتدها بعد.

ناسجة الحروف

ليكن هذا انتقامي منكِ: أن أكفر بكِ، أن أضيِّعك أولًا كي أستعيدك وأستبقيك بداخلي.

تسللت زمردة إلى القصر، متمنية ألا يراها أحد بملابسها المتسخة، وشعرها الأشعث. كان مظهرها فوضى عارمة. طلبت من بلوقيا ألاّ يظهر بورشته في حدائق القصر إلاّ مع حلول المساء، فقضى النهار في التسكع بالشوارع والأزقة.

لحسن حظها لم يلمحها أحد وهي عائدة. كان والدها لا يزال معتكفًا بقصر الياقوت، فمشت على أطراف أصابعها من قاعة إلى أخرى حتى بلغت غرفتها. ارتمت فوق فراشها فلم يتأخر النوم عليها.

مع حلول الليل. اغتسلت، ورطَّبت جسدها بماء الورد والدهون العطرية، ثم ارتدت ثيابًا نظيفة، وهي تفكر في أمها، كانت واثقة من أنها المرأة التي كتب عنها إيليا، رغم زعمه أنها محض خيالات، ثم عودته ليؤكد أنها طيف يتراءى له. هل يمكن أن تكون ماتت، وبقي شبحها يطوف في أرجاء جبل المغناطيس؟ أزعجها الخاطر. اتجه ذهنها إلى ملكة الحيّات، وصبَّرت نفسها بأن أوان مواجهتها قد آن. ذرعت القاعة الملحقة بغرفة نومها، جيئة وذهابًا.

عادت تنظر إلى العالم وفق منطق أبيها. في جبل المغناطيس كانت

نفسـها فقط. اسـترجعت كل ما مرّ بها متخيلةً رد فعل والدها إذا علم بما فعلت. أكثر ما أخافها كان هروب العنقاء. ابتهلت كي لا يكتشف علاقتها بالأمر. لم تكن تعلم أن الطائر المقدس آب إلى عشـه في قاف بمجرد أن ابتعدت عنه هي وبلوقيا.

قضـت ليلـة من أرق. وحيدة في مواجهة سـهادها، كانـت كأنها تحفر قلبها بإبرة بحثًا عن لا شـيء. دارت الأفكار في ذهنها برتابة فلم تسـلمها إلاّ إلى الفراغ.

قُبيل شـروق الشـمس خرجت إلى حديقـة المتاهة النباتية، تسـكعت بيـن ممراتها حتـى وصلت إلى الخميلة المجاورة لبحيـرة اللجين، ومنها تسـللت إلـى ورشـة بلوقيـا، أمرتـه أن يوافيها إلى جـوار شـجرة الجميز المعمـرة الواقعـة عنـد الطـرف الغربـي للمملكـة، ومعه حجـرا الجنون والزمرد المسـيِّل لأحداق الحيّات. سـمحت له بامتطاء جواد يختاره من الجياد الملكية.

تعـرف أن ملكـة الحيّـات في مثـل هذا الوقت مـن النهـار تلتجئ إلى جحرهـا فـي تجويف الشـجرة العملاقة التي يخشـى جميع سـكان قاف الاقتراب منها. سـبقت بلوقيا إلى هناك على متن جوادها الأشـهب، وقد أخفت معظم وجهها بلثام حريري.

بدت لها الشجرة كجبل قائم بذاته. تأملت أوراقها، وجذعها الضخم، وثمارها النابتة على خشب الأغصان، أثار المكان في نفسها رهبة ضاعفها فحيح مزعج تردد صداه. كان الجو معتدلًا، وهبَّت نسمة خفيفة زادت من لطفه، لكن زمردة لم تنتبه إليها في انتظارها المتوتر لبلوقيا الذي تأخر عمّا توقعت.

أخيرًا وصل. رأته مبتسـمًا على صهوة الجواد المفضّل لوالدها فازداد

توترهـا. لـم تفهـم سـر هدوئه، عزَتـه لكونـه غريبًا عـن الجبل بنواميسـه وتقاليده. كان يسبح في بحيرة من جهله بخطورة ما هما مُقدمان عليه.

قفـز عـن الحصـان، فاتجه الأخيـر إلى جوادهـا الواقف علـى مقربة. أعطاهـا بلوقيا قطـع الزمرد بالغـة النقـاء، والحجرين الفضييـن ملفوفين كما هما. لفت نظرها إلى أنه لا يسـتطيع أن يسـاعدها كثيرًا خوفًا من تأثير حجري الجنون، فطلبت منه أن يبدآ بالزمرد، ثم يتركها لتكمل هي المهمة.

اقتربا بحذر من جذع الشـجرة القابعة على حافة الجبل، أثارت زمردة جلبة كي تخرج ملكة الحيّات من مخبئها دونما فائدة. غيرت إستراتيجيتها وبدلًا من الضجيج شـدَت بأغنية شـجية، أنشـودة حزينة عـن وطن قديم وأسـلاف رحلوا ومشـاعر هاربة لا سـبيل إلى القبض عليهـا. بدا صوتها كأنما ينبع من الجنة. هي نفسـها فوجئت باختلافـه عمّا عهدته. أما بلوقيا فكان مسحورًا.

بـدأ صوت زمردة يخفت تدريجًـا، كأنما تهدهد طفلًا لينام. وهنا فقط أطلَّت ملكة الحيّات برأسها من تجويف جذع الشجرة، ثم زحفت خارجة بكامل جسـدها. كانت كأنما خُلِقَت من بلور أخضر مضيء؛ وجهها وجه إنسان مفعم بالسكينة، وعيناها مسكونتان بحكمة عصية على التفسير.

بهتـت زمردة لمرآها، إذ كانت قد جهزت نفسـها لمقاتلة وحش بشـع الخلقة، فإذا بها أمـام كائن بالغ الجمال، يفيض حضوره بالرقة والرهافة. قدَّمت نفسـها للحية الحارسـة، فقالـت الأخيرة إنها تعرفها. سـألت دون مواربة عن مصير أمها، فأجابت الحيّة بحياد:

قبل سـنوات قليلة، لجأتْ إليّ الملكة نورسـين، ورجتني أن أساعدها في السـفر إلى جبل المغناطيس، فرفضتُ. بكت وسـجدت على الأرض متوسـلة، تمرغـت فـي التـراب، وهي تترنـم بابتهـالات غيـر مألوفة لي.

أخبرتها أن عزلة قاف قدرية ما دمتُ حية، وأن الطيور والجان فقط يمكنها الارتحال منه وإليه. لم أطلب منها اللجوء للعنقاء كوني أعرف أنها ممنوعة، بأمر ملكي، من الاقتراب من عشها. ذكرت لي شيئًا عن مدينتها الواقعة بين جبال مكسوة بنباتات زاهية الخضرة، وبحر هائج دومًا، عن رجل بملابس داكنة عاش حياته مرتحلًا، وأحجار فضية تجذبها نحوها بلا أمل في الفرار. قالت إنها على وشك الجنون، ويجب أن تلتحم بمصيرها. بدت لي كائنًا معذبًا يبحث عن خلاصه. ظلت ليلة كاملة تنتحب بجوار الشجرة، ثم هددت بالانتحار قبل أن ينتبه الملك لغيابها. لحظتها فقط خطرت لي الكيفية المثلى لدعمها. التففت بجذعي حولها، ففهمتْ هدفي، ابتسمتْ لي بامتنان فاعتصرتها على مهل. همستُ لها بأن هذا هو السبيل الوحيد كي تتحرر روحها وتسافر إلى حيث تشاء. لم يبد عليها أي انزعاج أو تألم، أغمضت عينيها ورفعت رأسها لأعلى، تطايرت خصلات شعرها الطويل فبدت في ذروة جمالها. حين أسلمت الروح كان ثمة بسمة عذبة تضيء ملامحها مقرونة بشعور بالسلام لم يصادفني قبلًا.

أدارت ملكة الحيّات رأسها لتخفي دمعة غافلتها، وغرقت زمردة في بكاء صامت، احتارت هل تحقد على غريمتها، أم تشكرها على تلبيتها رغبة أمها؟ كادت تتراجع عمّا خططت له، لولا تذكرها بأنها تسعى لهدف أسمى، هو تخليص قاف من عزلته، وربطه بالعالم خارجه. زحفت ملكة الحيّات رافعة رأسها الجميل بأسى. اتجهت إلى حافة الجبل وتبعتها زمردة بوجل. توقفت فجأة واستدارت نحو ضيفتها التي صوَّبت إلى عينيها أحجار الزمرد المسيلة للأحداق. ولدهشة زمردة لم تشح الحية الحارسة بوجهها بعيدًا، بل حدّقت في الأحجار بإمعان وقد تألقت

عيناهـا، اقتربت أكثـر حتى كادت حدقتاها تلتصقـان بقطع الزمرد، دارت حـول نفسـها في حلقات بينما يصدر عنها فحيح يشـبه عـواء ذئب متألم، وإن حافظ وجهها على اطمئنانه.

سـارعت زمردة إلى حيث وضعت حجـري الفضة، نزعت غطاءهما، وأمسكت كل منهما في يد، وركضت نحو الحية الراقصة في دوائر. دارت مثلها وقد وجهت الحجرين نحو العينين مباشرة. ارتعشت ملكة الحيّات. واصلت فحيحها. استحالت سكينتها تشنجًا، والتفَّت حول زمردة.

كان بلوقيـا يقف على مقربة. منذ أزاحت زمردة الغطاء عن الحجرين، نظر للجهة الأخرى خوفًا من مغناطيسـهما، غير أنه حين سمعها تستغيث بينمـا تلتـف الحية على جذعها، هرع إليها دون تفكير. ما إن لمسـها حتى التصقـت يـداه بالحجريـن، اللذين أفلتـا من يديهـا. بات بلوقيـا وحجرا الجنون الفضيين شيئًا واحدًا. فزعت زمردة حين سمعته يغرق في ضحك هسـتيري، بينمـا ابتعـدت عنهـا ملكة الحيـات والتفت حول جسـده هو، منجذبةً هي الأخرى إلى مغناطيس الأجساد، ومواصلةً فحيحها الموجع.

شـرع الجوادان في الصهيـل ليضفيا بصْمتهمـا الخاصة على مهرجان الأصـوات الصاخبـة. حاولـت زمـردة الاقتـراب مـن بلوقيـا المنغمـس مـع ملكة الحيّـات في رقصـة مميتة، لكـنّ الاثنين ابتعدا عنهـا متوحدين بمغناطيس الأجساد، ومتجهين دون قصد نحو حافة الجبل.

امتـزج صوت الضحـك المجنون بالفحيـح ليتحولا معًـا إلى صرخة مرعبة ضاعفها الصدى. حين هوى الجسـدان مـن قمة الجبل، انخرطت أميـرة قـاف فـي صراخ ملتـاع. فـرّ الجـوادان وخلَّفـا وراءهما غبـارًا كاد يخفيها. في سـقطته من علٍ، غابت عن ذهن بلوقيا تفاصيل حياته. تاهت

عنه ذكرى زمردة وجدَّته ومعلمه الفارسي. نسي كل ما يخص يتيمًا حالمًا أغواه جبل من زمرد، فلاحقه غير عابئ بما عداه.

***

الملل عدو ينبغي الحذر منه، يجعل اللحظات تتشابه، يقتل التفرد والدهشة، بل وقد يدفع صوب أقدار مشئومة. حارس ضجر هو من انتبه إلى مروج بينما تراقب ما يبين لها من حديقة المتاهة النباتية بقصر الزمرد. في موقع المراقبة الخاص به فوق سور القصر الشبيه بقلعة محصنة، كان الحارس فريسة وقت يمر بطيئًا وبلا تغيير يُذكَر، وهو مصلوب في مكانه، وعيناه مصوَّبتان نحو الخارج، ممنوع عليه النظر إلى الداخل.

«لا شيء حدث، لا شيء يحدث، ولن يحدث شيء»! قال لنفسه، متحسرًا على عمر يضيع بلا فائدة. دفعه السأم للتركيز فيما حوله، ربما تأخذه نظرته إلى شيء أكثر إثارة من رتابة حياته.

راقب لبرهة سربًا من النمل يحمل أفراده فتافيت طعام إلى شق لا يكاد يبين فوق السور العريض، فأدهشه كيف استطاع النمل الدءوب تسلق السور حاملًا مؤونته معه. ملّ سريعًا، فانتقل ببصره إلى السماء متتبعًا السحب البيضاء، متخيلًا إياها في صورة حيوانات خرافية تتسابق، قبل أن تتجه نظرته صوب سطح البيت القابع قبالته، تفصله عن محيط القصر ساحة هادئة. خُيِّل إليه أنه لمح ظلًا يتوارى. أعقب هذا جلبة كأن هناك من تعثر وندَّت عنه صرخة ما لبث أن كتمها.

يعلم الحارس أن البيت مهجور منذ اختفى صاحبه عقب هروب زوجته. ضاعف هذا من فضوله لاكتشاف من تسلل إلى سطحه. غادر موقعه مسرعًا، واصطحب زميلًا من حرس البوابة، لاستطلاع الأمر.

هناك كانت مروج مختبئة - بعد أن تعثرت ولوت كاحلها - وهي

تبتهـل ألاّ يكـون الحـارس قد انتبـه إليها. منعهـا ألم الكاحـل من الهرب السـريع، فاختبأت أملًا في التسـحُّب خارج البيت ما إن ينشغل الحارس. فوجئت برؤيته هو وزميله، ومفاجأته هو لم تكن أقل.

اتجهـت عيناهـا تلقائيًـا صـوب البرج الذي يتوسـط السـطح، فدخل الحارس إليه ليفاجأ ببعض من رقوقها. حملها مسـرعًا، وطلب من زميله القبض على المرأة المتكوِّمة على نفسها كأنما ترغب في التلاشي.

اصطحباهـا مـن غيـر أن يفهما تمامًـا حقيقة الأمر، كل مـا فكرا فيه أن وجود رقوق مع امرأة أمر مثير للريبة. لم يكن أي منهما يجيد القراءة، لذا قررا الذهاب بها إلى كبير الحرس كي يقرر بنفسـه مصيرها هي وما معها. تنـاول كبير الحـرس الرقوق بيد مرتبكة، وأمـر بتفتيش ملابس مروج قبل الزج بها في الحبس إلى أن يُبَّت في شأنها.

فـي المسـاء كان القاضـي يقـرأ مرتعشًـا مـا دونتَّه. بالنسـبة لـه كانت جريمتهـا مزدوجة، فهـي أولًا ارتكبت إثـم التدوين المحرم على النسـاء بخـلاف زمردة، وثانيًا كتبت سـيرة مفتَرضة للأميـرة، وهو الأمر الممنوع على الجميع.

أُبلِـغ الملك ياقوت بما حدث، فقطع اعتكافه وعاد من فوره إلى قصر الزمـرد لمتابعة التحقيقات بنفسـه. فاجأته الحالة المزريـة التي وجد ابنته عليهـا. كانـت وحيدة فـي غرفتهـا، لا تكف عـن النحيب، ملابسـها غير مهندمة وشـعرها أشـعث، والأهم أنها غرقت في الصمت من جديد. زاد هـذا من نقمته علـى من جرؤت على تدوين سـيرة ابنته. خشـيَ أن يكون جبـل قاف علـى عتبة لعنة لا قبل له بها، إذ لم يحـدث من قبل، في حدود علمـه، أن أقدمـت امـرأة من عامة الشـعب علـى انتهاك حرمـة التدوين، ناهيك عن أن تدون سيرة أميرة الجبل وولية عرشه.

طلب من القاضي والحرس استنطاق مروج، لمعرفة الدافع وراء جريمتها، والوصول إلى كل ما دونته لحرقه في طقس علني، على أمل أن يخفف هذا من العواقب المشئومة لفعلتها لكنها اعتصمت بالصمت، أبدت بسالة مدهشة، وتحملت مختلف صنوف السَّحل والتعذيب، دون النطق بكلمة واحدة.

راحت تستدعي كلمات ونبرات الطيف. شغلت نفسها رغم الألم والعذاب بترديد نبوءاته في سرها محاولة أن تفهمها. فكرت في زمردة وتساءلت عن سبب امتناعها عن التنزه في حديقة المتاهة النباتية في الأسابيع الأخيرة.

داومت مروج، قبل القبض عليها، على مراقبة الحديقة كعادتها. ومع هذا لم تلمح طيف زمردة أو بلوقيا. غابا عن المكان، وتركاها للحيرة والانتظار، حتى قاد حظها العاثر، الحارس الضجِر إليها.

في إحدى نوبات نومها المتقطع بمحبسها، زارها الطيف في الحلم. في منامها لم يكن طيفًا بل رجل من لحم ودم بابتسامة هادئة تكاد تحتل كامل وجهه. كان أكثر وقارًا مما عهدته. سحبها من يدها إلى الجميزة العملاقة، حيث لم تجرؤ يومًا على الاقتراب. هناك ومن خلف صخرة زمردية ضخمة راقبت مشهدًا مهتزًا لما سبق ودار بين زمردة وملكة الحيّات، ارتعشت بينما تتابع السقوط المروع للحيّة وبلوقيا. وعندما سجدت زمردة باكية، تمنت لو تستطيع احتضانها لمواساتها.

نظرت إلى الطيف فوجدته هادئًا لا يزال، قالت كأنما تكلم نفسها:

- اللعنة قادمة لا محالة، ودوري أن أسرِّع مجيئها كي يمكنني إبطال مفعولها فيما بعد.

هز رأسه موافقًا وفي عينيه لمعة إعجاب بفطنتها، واصلت بالنبرة نفسها:

-مـن يحـرق الأميرة يتمكـن وحده من اسـتعادتها، من يزلـزل الجبل يقدر دون غيره على بعث أميرته مرة أخرى!

غام المشـهد أمامها فجـأة، واختفت زمردة عن مجـال بصرها، خلف عاصفة من غبار سبقها صهيل حاد.

في الضباب

تلك هي لعنتي.. لعنة الوريث؛ مَن يكون امتدادًا لغيره.

على بعد خطوات قليلة من هدير، ثمة حياة تأفل في شرفة جدتها. حياة تنسحب تدريجًا، من نبتة جاردينيا اشترتها قبل مدة. قصة غرام جمعتها بالزهرة البيضاء الرقيقة في لحظات شحوبها. كانت تلقي نظرة عليها كل نصف ساعة، تمسح الأوراق الخضراء بعطف، متخيلةً أن حنوها عليها سيعيد لها رونقًا بدأت تفقده بسبب أشعة الشمس الملتهبة. بحثتْ عبر الإنترنت عن سبل إعادة إحيائها، وحينما يئست جلست تتأمل انزواءها.

ثمة ما هو مأساوي في الأفول الخافت لزهرتها، معها تذوي الحياة بكاملها وتنسحب. مثلما تذوي زهرة جاردينيا في شرفة مشمسة، شيء ما بداخل هدير يأفل أيضًا. خجلت من نفسها، إذ كيف يسرقها الاحتضار البطيء لنبات تحبه من الأهوال الجارية حولها؟

لم يخبرها أحد أن هذا الذبول استعارة عن القتل المنتشر بالخارج، وحزنها عليها وعجزها عن إنقاذها من صميم الحزن والعجز اللذين يكبلانها أمام الموت الغادر للأبرياء على شاشات الفضائيات.

بيما تنقر أزرار «لوحة المفاتيح»» متنقلة بين مواقع الإنترنت، وهي ترثي في سرها زهرة جاردينيا لا تهم أحدًا غيرها، ثمة في مدينتها: قنَّاص

يصوِّب بندقيته إلى عين شـخص أعزل، أُم تبكي ابنها الشـهيد، أو تتحايل على جوع طفلها الباكي. خائف ينتظر من قد يقتحم عليه بيته ويأخذه إلى المجهول.

تذكرت هذا، فانشغلت عن موت زهرتها، ولامت نفسها لأنها تورطت معي أنا وكريم في ما لا تفهمه، وتركت ما كان عليها الاهتمام به.

لكم تغيرت هدير خلال الشهور السابقة!

لم تعد تلك الفتاة التي اعتادت متابعة برنامج الصباح في إذاعة «نجوم إف إم»، والدخـول فـي مبـاراة يومية غير معلنة مع مستـمِعة أخرى تدعى «ملك» على من ستكون الأولى في الاتصال ببرنامجهما المفضل.

في الغالب كانت هدير تسبق الأخرى في الاتصال بالبرنامج، باستثناء صباحـات قليلـة. تحـب محمد منيـر، وتطلب دومًـا أغنيتـه «كان فاضل بـس يا دوب». من كان يسـتمع إلـى البرنامج في تلك الفترة سـيتذكر في الغالب هدير كمال باتصالاتها ورسائلها اليومية، بملاحظاتها خفيفة الظل وصوتها المتحمس ذي الغُنَّة الملفتة، كما كان سـيلاحظ اهتمامها بمقدم البرنامـج، إذ اعتـادت التعبيـر عـن إعجابها الشـديد به، وتجاهـل زميلته المرحة الضاحكة على نكاته أكثر مما تتكلم هي.

ثـم حـدث أن غابت هدير لشـهور، انخرطت في أجـواء مدينة تتزلزل بالثورة، ثم حين هاجرت نادية، انكفأت الفتاة الشابة على نفسها، سافرت إلى مدينة بعيدة لتقابل كريم وينفتح أمامها باب لا تعلم ما سـيقودها إليه؛ بـاب أغرقها في عمل لا تفهم أبعاده، وفي ملاحقة أشـياء ما كانت تتخيل أن تهتم بها يومًا.

في خضم هذا كله، خفتت لمسة اللامبالاة المرحة في صوتها. اكتست نبرتهـا بغلالة جدية، وباتت تكتفي بجمل قصيرة حاسـمة لـم تتنازل فيها

عن سخرية لاذعة صارت أكثر مرارة. نضجت فجأة! علينا، أولًا، إعادة تعريف الكلمة. النضج بالنسبة لها، يعني انزياح الغمامة من فوق الأعين، استعادة القدرة على الرؤية بلا رتوش ولا خداع. التدرب على قسوة فتح العيون على ما لا يراه الآخرون من خراب، على تفاصيل القبح المتوغل في كل شيء، على حشود من معدمين لا يهتم أحد بتحسين ظروفهم، وطوابير بلا نهاية أمام الأفران ومستودعات توزيع أسطوانات الغاز ومحطات الوقود، وفساد ينخر في جسد مهترئ.

حاولت هدير استعادة سذاجتها القديمة، طراوة صوتها المفقودة ورنة الفرح التي كانت تحلِّق في فضائه. وإلى أن يتحقق لها هذا، أدمنت السير في شوارع مدينة ملونة بالتناقضات، مثقلة بتجاذبات السياسة، ومنهكة تحت وطأة أزمات لا تنتهي. مدينة عجوز، تحترف النسيان وتمتهن الضجيج.

صارت ترتب المدينة بعينيها، تعيد رسمها في خيالها. تمحو تفصيلة هنا، وتضيف أخرى هناك. «تفلتر» المشاهد أمامها، وتنقي الهواء من عوادمه بروائح الذاكرة. وحده الصوت يثقل عليها ويصيبها بالوهن. مدينتها، مدينة الأصوات المتعانقة في رقصات هستيرية صاخبة، لا تني تحاصر أذنيها بضوضائها. أصوات، أُضيفت إلى القائمة الطويلة، وصارت هدير تستحضرها في تجوالها الأبدي: هتاف ورصاص وصراخ لا ينقطع، يذكِّرها بعام تراه الأهم في عمرها.

وسط هذا، كان عليّ أن أجرُّها بعيدًا عن ركام الواقع ووحله، وأدفعها إلى حيث تنتمي فعلًا، ويا لها من مهمة صعبة. لم تفطن إلى محاولاتي المستترة، وكنت مجبرة على التقية كي لا أخيفها. لو تكلمتُ معها بشكل مباشر لما صدقتني. هل كانت ستفهمني لو نصحتها أن تعلو فوق هذه الهويات الضيقة، وتنشغل بالأهم.

تمشـي هديـر بخطوتها الراقصـة فتتأرجح ذراعاهـا، وتتطاير خصلات شعرها المموَّج. تحملق في كل شيء. تطيل النظر فلا تبصر سوى الغموض المغلِّف للوجود بأسـره، كأن ستارة شـفافة تخايلها وتضفي الالتباس على العالم من حولها. تتذكرني فتسكن الكآبة محياها، تعرفها إليَّ أورثها شعورًا بالغرق؛ كثَّف الغموض فصار ضبابًا ثقيلًا يجرها لقاعٍ معتم.

فـي طريـق عودتهـا من شـقتي بعـد أن قـرأت أجزاءً مـن «الفتـاة التي أضاعـت خاتـم الزمـرد»، فضّلـت الترجل مـن التاكسـي بعيـدًا عن بيت جدتها، وأكملت طريقها سيرًا على الأقدام.

كانـت مشوَّشـة ومذهولة تسـأل نفسـها: كيـف وصلتُ إلـى كل هذه المعلومات عنها وعن أمها؟

رأت نفسـها كحشـرة بائسـة بين خيوط عنكبوت سـام. كانت الأفكار تتصارع في ذهنها، والأرض تهتز تحتها.

حيـن وصلت إلى الميدان الذي يشـرف عليه البيت، طالعها المتشـرد أخضر العينين واقفًا تحت شجرته المعتادة مصوبًا نظرته نحوها بإمعان.

لـم تشـغل نفسـها به مـن قبل، اعتـادت أن تصادفه في ذهابهـا وإيابها، تتأمل لافتاته محاولة أن تفهم فحواها، فلا تخرج بشـيء. جمل بلا معنى لا تعرف منها هل يعترض على شـيء ما؟ أم فقط يكتب «فضفضات» إلى لا أحـد؟ رغـم إجادتها للإنجليزية بطلاقة ولقليل من الفرنسـية، لم تصل هدير أبدًا إلى ما يريده، كأن ما يكتبه مجرد طلاسم وإنْ بحروف مألوفة.

تجاهلتـه، وواصلت سـيرها، فاعتـرض طريقها بينما تمـر بالقرب من شجرته. لم ترغب في صده، مع أن تبادل الحديث مع مجنون يضيِّع أيامه عبثًا، كان آخر ما ينقصها في تلك اللحظة. قالت لنفسـها إن لديه ما يكفيه من عذابات وليس عليها أن تضيف إليها المزيد.

اقتـرب المتشـرد منهـا حتى كاد يلمسـها، وخـرج صوتـه كصوت لم يُسـتعمَل منذ سـنوات، همهم بأصـوات لـم تفهمها، وصمـت متراجعًا. لمحـت في عينيـه رغبة في أن يبوح لها بشـيء مـا، لكنه تركهـا وعاد إلى جلسـته تحت الشـجرة غير عابئ بوقفتها المنتظرة. أثـار فضولها ورغبت فـي معرفة ما يريده، ولماذا أوقفها اليوم بالـذات؟ غير أنه غاب في عالمه الداخلي وأخذ يرتب لافتاته، ويعبث بمقتنياته من زجاجات فارغة وأغطية زجاجـات كـولا وبيبسـي، وأوراق مفضضـة لمـاركات من الشـيكولاتة والحلـوى. تصـرف كأنها غير موجـودة، فخطت نحو بنايـة جدتها، وهي تلعـن الحمقـى الذين تغص بهـم المدينة بدايـةً مني مرورًا بهـذا الرجل، وانتهاءً بكل مجنون آخر لم يصادفها بعد.

امتنعـت عن مغادرة البيت بعدها لأيـام، أخبرت جدتها أنها في إجازة من عملها بسـبب الإرهـاق. كان الفضول يعبث بها لمعرفة السـر ورائي، وفكَّرَتْ أن الاختفاء لفترة سـيدفعني للسـعي خلفها وعندها لن تعود قبل معرفـة كنـه ما يحـدث، وسـر اهتمامي بتسـجيل قصة حياتها هـي وأمها، والأهم كيف وصلتُ إلى تفاصيل يغيب معظمها عنها هي.

لاحظـت ارتيـاح جدتها لمكوثها الدائم في البيـت. لطالما تخيلت أن العجـوز تفضل البقـاء بمفردها كمـا تعودت خلال سـنوات طويلة، لكن طمأنينـة شـيرويت والتصاقها المفاجئ بهـا جعلا هدير توقـن أنها كانت مخطئة. انتبهت إلى أن جدتها تشـرد كثيرًا بينما تجالسها، تكون بجوارها منغمسة في حديث ما، فتسرح بعيدًا، وقد حجبت غيمة حزن عابرة صفاء ملامحها المعتاد. ثم تثرثر بلا انقطاع: حكايات تافهة وتفاصيل بلا مغزى تكررهـا وتضحك منها، فتفكر هدير في أن شـيرويت تختفي خلف ركام ثرثرات، لتهرب من شـيء ينغِّص عليها حياتها، ولم يلفت انتباه حفيدتها من قبل لأنها كانت غارقة حتى أذنيها في عالمها الخاص.

بينما تتحادثان في الشـرفة، فردت شيرويت أمامها صفحة من جريدة، وأشـارت بسـبابتها إلى صورة لامرأة وقور بابتسـامة حـذرة. قرأت هدير النعي ثم نظرت إلى جدتها مستفهمة، صمتت الأخيرة لبرهة ثم قالت:

-سمية رفعت. صديقة قديمة كانت مسئولتي الحزبية.

-البقيَّة في حياتك.

-دي ماتت من شهور.

صمتـت هديـر منتظرة أن تسـتطرد جدتهـا في الحديث عـن صديقتها المتوفاة، إلاّ أنها شـرعت في مراقبة الشـارع بوجوم. لم يكن الجو باردًا، ومـع هذا أوقد المتشـرد نارًا وجلس يتأملها تحت شـجرته، سـارقًا انتباه شيرويت. تابعته هدير بدورها، بدا لها كأنما ينصت إلى النار لا ينظر إليها فحسب.

سألت جدتها فجأة:

-إيه حكاية الرجل ده؟

أجابت شيرويت وهي لا تزال تتابعه:

-مسكين!

-أكيد مسكين، بس قصدي مش غريب إن متشرد فقير بيعرف إنجليزي وفرنساوي؟ وكمان عمري ما شُفته بيقبل فلوس من حد.

قالت شـيرويت إنه ظهر في المنطقة قبل سـنتين، هناك من يقولون إنه رجل أعمال سـابق خسـر ثروته كلها فلم يحتمـل الصدمة، ومن يؤكدون أنـه لا يـزال ثريًا لكنه فقـد عقله بعد خيانة زوجته لـه. قالت هدير إنه ليس مجنونًا أو على الأقل لا يبدو كذلك، فهزت جدتها كتفيها.

في المسـاء دخلت علـى هدير غرفتها، جلسـت بجانبها فوق السـرير وفـي يدهـا صفحـة الجريدة مطويـة. فردتها أمامهـا ثانيـةً، ودون أن تبعد

عينيهـا عن صورة سـمية رفعـت، حكت عن شـابة أرسـتقراطية خرجت على عائلتها، وانخرطت في السياسـة. حلمت بالعدالة الاجتماعية وثورة تحقـق الحلـم علـى الأرض. أفاضت فـي الحديث عن صداقـة جمعتها بمسـئولتها الحزبية، وعن مزيج من حماسة وإخلاص وراديكالية، لم يقو على الصمود لشهرين فقط في المعتقل.

قالت الكثير، من بين دموعها، عن ورقة اعترافات أجبرها ضابط خشن على التوقيع عليها، وعن رفاق دفعوا سـنوات من حياتهم بسـبب انهيارها تحـت التعذيب؛ رفـاق من بينهم سـمية التي أُبعِدت عن طفلها لسـنوات ست دون أن تعلم أن لضعف صديقتها المقربة علاقة بالأمر.

احتضنـت هديـر جدتهـا، فكفكفـت الأخيـرة دموعها. لم تكـن تريد مواسـاة أو تعاطفًـا، رغبـت فقـط في أن يسـمعها شـخص يهتـم بأمرها، ويحمل معها سرًا أثقل صدرها لعقود، وتضاعف ثقله بعد وفاة من دفعت الثمن.

لم تخبرها جدتها أنها زارت سمية، في شقتها بحي الزيتون، قبل وفاتها بسنوات قليلة. ذهبت للاعتراف بما اقترفته قبل عقود، لكنها جبُنت.

شـيء ما في سـمت رفيقتهـا القديمة دفعها إلى إغـلاق باب الماضي، شعرت أن العجوز التي رأتها ابتعدت عن سنوات النضال، بحيث لم تعد تعني لها شـيئًا. ظنَّت شـيرويت أنها سـتنجح أخيرًا في دفـن هذه الذكرى المؤلمة، لكنها حين فوجئت بخبر وفاة سـمية رفعت قبل شـهور، تيقنت من أن التسامح مع خطيئتها مستحيل. تسامحها هي بالأساس. ما واساها بعض الشيء أن سمية رأت قبل وفاتها مباشرة بوادر تحقق حلمهم القديم بالثورة، ورحلت قبل أن تشهد ارتباكاته وعثراته.

في الصباح التالي، اسـتيقظت شـيرويت على صـراخ ينطلق من مكان

قريب وجلبة تعم الميدان، خلال العام الأخير اعتادت أن تلتقط أذناها أصوات طلقات عشوائية تحطم الصمت والسكون. صارت تميز بين طلقات الرصاص، والسلاح الآلي، وضجيج الألعاب النارية، بين الرصاصة الطائشة، وتلك التي تصيب الهدف. تخيلت أنها تحصنت ضد الفزع، غير أن الصراخ الصباحي المتواصل أرعبها.

قاومت وجع ظهرها وساقها اليمنى، ونهضت من فراشها صوب الشرفة، لتجد هدير قد سبقتها إلى هناك. كان الصوت ينبعث من الشرفة المجاورة، حيث وقفت جارة بدينة تستغيث، وعيناها مثبتتان على الميدان، الذي ازدحم عن آخره.

أشارت هدير إلى حيث اعتاد المتشرد أخضر العينين الجلوس. دققت شيرويت النظر نادمة على أنها لم تحضر نظارتها. كان جسد المتشرد غريب الأطوار متدليًا من أحد الأغصان وحول عنقه التف حبل غليظ. جثة باردة برأس محني كانت تترنَّح على إيقاعات حركة الحبل إذ يهزه هواء الصباح، هي كل ما تبقى من معدم لا يتصرف كغيره من المشردين.

لم يعرف أحد ملابسات انتحاره، كل ما عرفوه أنه لن يجلس بعد اليوم في فيء الشجرة الظليلة، محاطًا بلافتات لا يفهمون فحواها. لن يمارس تمارين الصباح على مرأى من الجميع، ولن تتابعه شيرويت من شرفتها، كتسلية وحيدة، بينما تتناول قهوتها الصباحية. كما لن تكون مضطرة لمده بطعام يومي مثلما تفعل مع القطط الضالة.

شعرت بالأسف عليه، كأنما بموته فقدت رفيقًا، تعودت على وجوده في روتينها اليومي. جلست إلى كرسي البامبو، تراقب الجيران في الميدان، وهم يتحلقون حول الجسد الخامد، أحدهم يحاول الاتصال بالشرطة، وبعضهم يتابع بصمت، فيما انشغل آخرون بالثرثرة، وقد

وجـدوا مـادة شـائقة للاختـلاف حولها. لـم تنتبـه شـيرويت، في خضم انفعالهـا بالحـدث، أن أنفاس حفيدتها تكاد تتوقـف، بينما تعلقت عيناها بالشجرة والجسد المتدلي منها.

اسـتعادت هديـر تفاصيل اقترابـه منها، في طريق عودتهـا آخر مرة من عندي. كانت قد قررت، قبل نومها أمس، أن تسأله عمّا أراد أن يقول لها، إذ رأت أن معرفة حكايته ربما تشـغلها عن ضبابية تحاصرها منذ قرأت ما كتبته عنها، بل منذ تعرفت إلى كريم خان.

مضـى اليـوم رتيبًـا. طلبت شـيرويت وجبة سـمك للغداء مـن مطعم مجـاور، وبينمـا تـأكلان، خطـر طيف حلـم الليلـة الفائتة في بـال هدير، فاندهشت كيف نسيته.

كانت مع كريم! جاءها بينما تجلس في حديقة بيت جدها لأمها، تمامًا حيث أضاعت خاتم الزمرد قبل سـنوات. كانا كأن لا حدود ولا مسافات تفصـل بينهمـا، كأنهما يواصلان شـيئًا ممتدًا فـي الزمن. سـحبته من يده وأخبرتـه أن الحديقـة مكشـوفة للمتطفلين. صعدت معه إلى السـطح في جـو ضبابي، كانت نائمة بجـواره على أرضية السـطح، احتضنته فيما بدأ يقبلهـا فاعترتها موجة لذة مدوخة، ارتجف لها جسـمها كله. اعتدل قليلًا وأخبرها أنه مضطر للسفر بصحبة زوجة مفترضة إلى لندن، انقبض قلبها، ولدهشتها بدا أمرًا مقبولًا لها في عالم الحلم أن تكون له زوجة وأن تتقبل هي وجودها ببساطة.

أكد أنه سيعود فورًا ثم اختفى، فيما ظهرت أمها ومعها زوجها.

خافـت هدير مـن إمكانية عـودة كريم فـي حضورهما. لـم تتصل به، خشـية أن يرن هاتفه المحمـول، أثناء صعوده إلى السـطح، فيعرفا أنه من تهاتفـه. بعد قليـل نزلت لاسـتطلاع الأمر، فوجدته منشـغلًا فـي احتفال

صاخب بالأسفل، لا تتذكر هل لمحها أم لا! انتقل الحلم فجأة إلى مطبخ جدتها شيرويت، حيث وقفت تتطلع إلى ثلاث سمكات نيئة كبيرة الحجم، وتتفحصها باهتمام ربة منزل ماهرة قبل أن تفيق من نومها، بذهن مضطرب وأفكار متداخلة، على الصراخ والحادثة الكئيبة.

عندما استعادت حلمها في نهاية اليوم، تعجبت لأن كريم لم يخطر ببالها منذ أكثر من شهر. ودّت لو تراه، وضايقها أن فرص هذا اللقاء ضئيلة. أخبرها عقلها أنه يكاد لا يفكر فيها، غير أن قلبها تمنى لو أن هذا غير صحيح.

في رسائله الإلكترونية العديدة تبحث عن أي بادرة حميمية، عن جملة، زائدة على المعنى خارجة عن السياق، قد تعكس اهتمامًا خاصًا، وتعيد قراءتها مرّات. مثلما حدث عندما أخبرها، بلا مبرر، أن بوسي سكرتيرته ولا علاقة خاصة تجمع بينهما، أو حين كتب لها، خارج سياق رسالة ما، أن المطر كان غزيرًا في «فيينا» بالأمس، وأنه خرج إلى متنزه (Stadtpark) ليستنشق رائحة المطر في اتحادها مع أريج الزهور والأشجار. أو أنه زار «بلفيدير» وغرق بين أعمال جوستاف كليمت لأكثر من ساعتين، قضى جزءًا لا بأس به منها متأملًا لوحة «القبلة». تفاصيل عابرة، لكنّ هدير تقرؤها بعينين مختلفتين، وتخترع لها تأويلات تقربه منها.

فوجئت عندما هاتفها كريم، بعد يومين من موت المتشرد أخضر العينين، ليخبرها أنه في زيارة مفاجئة للقاهرة ويرغب في رؤيتها. التقيا في اليوم التالي في مطعم هادئ بوسط البلد، فعرفت أنه جاء خصيصًا لمقابلتها بناءً على طلبي. قال لها إنني على علم بأنها قرأت «الفتاة التي أضاعت خاتم الزمرد» خلسة، ولأنني لن أستطيع شرح ماهية الأمر لها على نحو مقنع، لجأتُ إليه لإدراكي أنه أقرب إليها مني.

ذكر لها ما يعرفه عن جبل قاف وحكاية ابنة ملك الجبال، عن أسلافنا الذين اضطروا للنزوح من أرض أجدادهم وتاهوا في شِعاب الجبال المختلفة محاولين، قدر استطاعتهم، إحياء ذكرى الأميرة وحفظ حكايتها، وكيف أن أجزاءً مفصلية من الحكاية حُرِّفت مع مرور الزمن، وأن وجود هدير لا غنى عنه لاستعادة الحكاية الأصلية تمهيدًا لانبعاث الأميرة من رماد احتراقها وعودة قاف إلى سابق عهده.

اعترف لها بأنه كذب عليها حين أخبرها أن «سيرو دي لا بوفا» في ثاكاتيكاس يُسمَّى بـ«جبل الحياة»، وأنه ألصق به إحدى التسميات التي أطلقها أسلافه على قاف في محاولة منه لجذب انتباهها.

«كنتِ بتدوري على بستان، وما تعرفيش إنها منتظراكِ من سنين». قال، ثم أضاف أنني أخذت أنسج خيوط ما أعرفه من الحكاية المقدسة، ساعيةً في الوقت نفسه إلى ملء ثغراتها، وعبر قواي السحرية الموروثة رحت أبحث عن المغناطيس الكفيل بلضم أجزاء الحكاية معًا وكشف التفاصيل المُحرَّفة تمهيدًا لمحوها.

-كان فيه ريحة مميزة في ثاكاتيكاس، صح؟ سألها. أجابت بهزة من رأسها، فتابع.

-الريحة دي يشمها بس اللي لهم علاقة بقاف، ريحة بتزيد في المدن والمناطق الجبلية، وبتدل اللي لهم علاقة بجبل الزمرد وأسطورته على روايحه الأصلية.

التزمت هدير الصمت لأنها لم تعرف كيف ترد عليه، بدا لها في هذه اللحظة كنسخة ذكورية مِني؛ شخص مسكون بهواجس لا تخصها ولا تفهمها. تفحصته بحياد فواصل ناظرًا في عينيها مباشرةً:

«أنت مغناطيسنا يا هدير. اللي يشوفك من المنحدرين من قاف

هينجـذب لـك زي حديد بينجـذب إلى مغناطيس. مـا أقصدش انجذاب جنسي أو عاطفي، إنما هيحس إنك مرتبطة بشكل ما بماضيه».

اسـتولى عليه توتر مفاجئ بسـبب صمتها، فقال وهو يبعد نظرته عنها، إنها ليسـت وحدها، هنـاك عديدات ينطبق عليهن الأمر نفسـه، لهن صلة مـا – حتى ولو غير محسوسـة من جانبهن – بالزمـرد. بعضهن وُلِد تحت العلامات الفلكية نفسها التي وُلِدت تحتها الأميرة الغائبة، والبعض الآخر فيـه مـن خصالها، أو ارتبـط طالعه بالحجـر الأخضر الكريـم منذ مولده. وإنهـا فـي مكان ما من العالـم سـتجد طفلة أخرى أضاعـت خاتمًا زمرديًا تملكه أمها وشعرت بمشاعرها نفسها حين فعلتْ هذا.

-يا سلام على المصادفات!

ردت هدير ساخرة فأكد بحزم:

-مش مسـألة مصادفات. أكيد سمعتِ عن العوالـم المتوازية، المسألة هنـا أبسـط، مجـرد أحـداث وشـخصيات متوازيـة، بتكـرر أفعال بعـض، إمـا على فتـرات زمنية مختلفـة أو في زمن واحـد وأماكن مختلفة. اختلافات بسيطة ممكن تحصل وتسبب اختلافات أكبر، لكن جوهر الفعل واحد. إحنا نسخ من بعض، مفيش مجال للتفرد إلاّ في حالات نادرة.

- زي حالة أميرتكم؟ سألته بغيظ مكتوم.

- صحيح. زمردة ملهاش مثيل. أجاب بجدية أدهشتها.

أخبرهـا أن النبـوءات المكتوبة على هيئة أشـعار غامضـة هي ما قادتنا إليهـا، وأنهـا رغم إلغازها تحـوي الكثير عن حياتها هـي وأمها، وأني من جانبـي جمعـت ما اسـتطعت مـن معلومـات مُكَمِّلة، وسـددت الثغرات بالخيـال. احتجت بـأن ما كتبته قبض على مشـاعر لم تصرح بها لنفسـها

وليس مجرد تخيل، فاضطر لقول إنها باحت له، وهي نصف غائبة عن الوعي، في مطعم الجبل في «ثاكاتيكاس»، بكثير من أسرارها. صدقته وأضفت كلماته، رغم عدم منطقيتها، بعض المنطق على سلوكي غير المفهوم لها. لم تستسغ هدير أبدًا جديتي المفرطة إزاء تفاصيل تراها هي لا تستحق التوقف عندها. من وجهة نظرها، أتعامل مع نفسي كأني في مهمة لإنقاذ البشرية. ومع كلمات كريم فهمت هدير أني في مهمة مقدسة، من وجهة نظر جماعتي على الأقل.

النزوح إلى العالم

فلأستمد الرؤية من رصف الكلمات لتكوين أحجية تُخبِّئ بداخلها السر بينما تتظاهر بكشفه.

كانوا يواجهون العالم خارج جبلهم لأول مرة!

أجسادهم كأنما تجف تحت الشمس المحرقة، وأرواحهم الملتاعة تحلِّق حول المشهد الأخير لأميرتهم المخلوقة من ضوء. ينظرون خلفهم فيفاجأون بالجبل، وقد بدأ يفقد لونه الأخضر الزمردي تدريجًا، ويصير إلى بُهُوت كما لو كان مثل حرباء مُحَنَّكة، سيتقمص لون الصحراء التي حاصرته من كل صوب.

حشود هاربة تسير في مجموعات. الصحراء حولهم كون شاسع لا نهائي: مفازة خاوية نبعت من لا مكان، رمال تذروها رياح مُنذِرة بالأسوأ، وأفواج تئن من العطش والجوع والإنهاك. كلما زاد التعب، وطال الطريق تخفف الفارون من بعض متاعهم الذي فرّوا به.

الهواء يحمل صدى صراخ بعيد، تنقله الريح ليرتطم بجنبات الجبل، فيتعملق الصوت مرّات ومرّات. أحدهم يمسح بيده عرقًا غزيرًا عن جبينه، ويترنح قبل أن يستند إلى كتف زميل له بالكاد يقوى على الوقوف. آخر يلقي بجسده المهدود فوق الرمال ويتمدد باسطًا ذراعيه بشكل أفقي ليرسم صليبًا هائلًا.

من ينظر، من أعلى، للحشـود الهاربة يرى أجسادًا هامدة متروكة على طـول الطريق. لـم يملك الرفاق رفاهية الوقـوف لإغاثتها، أو حتى دفنها. أجساد تبدو من علٍ كنقاط سوداء تُرّقِش الدرب.

في المقدمة سـار متصوفة وحكماء الجبل، يقاومون الموت بنقاشات هادئة تتقد شعلتها لدقائق، قبل أن تنطفئ لساعات.

كان المصير المفاجئ للأميرة يحيِّرهم، وتزلزل الجبل وارتعاشه يثيران خوفًا كامنًا في نفوسـهم. لم يتخيلوا لأنفسـهم موطنًـا غيره، وها هم الآن فـي مواجهة عالم قاسٍ غريب لا يعرفونه. فقط قرأوا عنه حكايات ظنوها أساطير، وسمعوا به في حواديت عجائز مخبولين وسحرة مخادعين.

في خضم مأساتهم وألمهم على الطريق الشاق نحو المجهول، راحوا يقلِّبون الأمر على وجوهه كافة، محاولين البحث عن السبيل المثل لحفظ تـراث قومهـم. الرقوق والمخطوطـات لا خوف عليهـا، كونهم حملوها معهم، وعلى أتم اسـتعداد لبذل دمائهم حمايةً لها. ما كانوا يناقشـونه، هو كيفية صون تراث قاف الشـفاهي: النشـأة، التاريـخ، الأهازيج، العادات، وتفاصيـل الحيـاة اليوميـة، فضلًا عن قصة حيـاة الأميرة التـي غابت للتو واستحالت ترابًا أمام أعينهم.

سـمعوها بآذانهـم في لحظـات احتراقها تقـول إن التذكر هو السـبيل الوحيـدة لانبعاثهـا مـن رمادهـا الـذي يحمله كبيرهـم في بلـورة خاصة كجوهـرة لا تقـدر بثمن بعد أن منحتـه إياه مروج. قالت الأميـرة أيضًا إن عليهـم ترديـد حكايتهـا بلا كلل، وتدوينهـا كي لا تتوه فـي غياهب العدم وظلماتـه. «الحكايـة سـتعيدني. وكاهنـة الأبيـض والأسـود سـتجمع شظاياي»! كان هذا آخر ما نطقت به.

اختلفوا حول تأويل كلماتها، لكنهم تعاهدوا على جمع كل ما يخصها

لتضفيره في حكاية غير قابلة للمحو؛ حكاية شفوية، عليهم وحدهم، يقع عبء تخليدها بعد أن استنطقوا «مروج» كل ما تعرفه. كانوا منهمكين في أفكارهم ونقاشاتهم، بحيث لم ينتبهوا لمن سقطوا على امتداد خط السير، لم يلتقطوا تأوهات الوجع والتعب، ولم ينصتوا لصدى الصراخ البعيد المتراقص في الفراغ من حولهم. نمط حياتهم الزاهد في الماضي حماهم من مشقة هذا التيه. بدوا كمن يمارس تمرينًا جديدًا على الزهد والتخلي. اختبار روحي عليهم اجتيازه بقوة الإيمان لا غير.

بعد المسير لأسابيع، وصل الناجون إلى ما ظنوه نهاية الصحراء. واحة من أشجار مانجو عملاقة تكوِّن غابة صغيرة. بعضهم جلس يستريح في ظلها، وآخرون رموا أجسادهم على الأرض كيفما اتفق، فيما وقف فريق ثالث محدقًا فيما قطعوه من الطريق أملًا في إلقاء نظرة أخيرة على جبلهم، لكنه كان قد غاب ولم يعد ماثلًا عند خط الأفق. بدا كأنما تبخر، أو تلاشى واستحال رمادًا كأميرته المحبوبة.

تجولوا بين الأشجار حتى عثروا على عين ماء، وقطفوا من الثمار ما يقتاتون عليه. اقترح بعضهم البقاء حيث هم والاعتماد على الصيد، غير أن حكماء قاف رفضوا الاقتراح قائلين إنهم سيواصلون مسيرتهم صباحًا، ولن يرتضوا بغير الجبال سكنًا لهم، موقنين أن إخلاصهم للطريق وتوحدهم به يعنيان أن مسافات تستغرق سنوات في المعتاد، ستُطوى لهم في أيام، وهو ما حدث لاحقًا.

في الصباح، أفاقوا ليجدوا أن كثيرين شنقوا أنفسهم فوق أغصان أشجار المانجو، وبقيت أجسادهم الخالية من الحياة معلقة كثمار عملاقة. كانوا في معظمهم من الفريق الذي تشبثت أنظاره حتى آخر لحظة بـ»قاف»، من الصامتين، السائرين بوهن، والملتفتين طوال الوقت

إلى الوراء، كأنما يرغبون في حِفظ صورة جبلهم حية في أذهانهم للأبد.

لـم يُصـدَم رفاقهم لمرأى العيون المحدقة برعب ميت، ولا الأجسـاد المتدليـة. بعـد ما لاقوه لم يعد شـيء بقادر على ترويعهـم. فقط خرجت من بعض النساء صرخات مكتومة، وتأوُّهات حزن عابرة. فعلن هذا كمن يقلد رد فعل يعرف أنه المتوقع منه في موقف مماثل.

في حلقات صغيرة أكلوا ما تبقى من زاد، كانوا قد التقطوه على عجل، بينمـا يغادرون بيوتهم، وشـربوا من مياه النبع الذي يتوسـط غابة أشـجار المانجـو، وحملوا مؤونة مـن ثمارها معهم في طريقهـم لمواصلة تيههم الإجباري.

قامـوا منتفضين، وانطلقوا دون الالتفات إلى جثث زملائهم المتروكة للريـح والطيـور الجارحـة. مدوا خطاهـم محافظين على نظامهم نفسـه. الحكمـاء فـي المقدمـة لكـن صامتيـن هـذه المـرة، تتبعهـم أفـواج مـن مجموعـات صغيرة يخطو أفرادها خطوات تائهة، وتغيم نظرتهم تهيبًا من مستقبل لا يعد بالكثير.

انطلـق فجأة صـراخ مرعب مـن الخلف. اسـتداروا لاسـتبيان الأمر، ففوجئـوا بمـروج ملقـاة علـى الرمـال وقد طعنـت قلبها بخنجر. سـالت دماؤها لتلوِّن الرمال، بلونها الأحمر القاتم. اسـتنتجوا أنها تبعتهم خلسة، وأقدمت على قتل نفسها ندمًا على ما اقترفته في حق الأميرة.

لـولا الكلمات الأخيرة لأميرتهم، وأمرها بتدوين حكايتها، بالمخالفة لنواميـس قـاف، لكانوا أحرقوا «مـروج» كما أحرقت ابنـة ملكهم. عندما رأوها مطلقة السـراح، تهيم في الشـوارع - غير عابئة برائحة الحريق ولا بالدخان المُسـيِّج للهواء - اسـتوقفوها، أرادوا فهم سبب فعلتها النكراء، سمعوا قصتها، وأخذوا منها رماد احتراق زمردة.

اندهش كبير الحكماء من غزارة معارفها وسعة اطلاعها، لذا صدقها حين أخبرته بضرورة النزوح من الجبل. قالت إن هذا قدر حتمي، كونه السبيل الوحيدة لاستعادة قاف كما كان يومًا ما. كان الجبل قد توقف عن الاهتزاز مؤقتًا، اختفى قصر الملك بمن فيه، كأن الأرض انشقت وابتلعته، وغارت المياه في الآبار والينابيع، وفسدت الثمار والمزروعات.

قالت لهم مروج إنهم إن لم يرحلوا فورًا ستحترق أجسادهم جميعًا لحظة تلاشي جبل الزمرد، وسينعدم الأمل في تجسده مرة أخرى مستقبلًا. جمعوا أنفسهم على عجل بما استطاعوا حمله، وبدأوا رحلة تيههم متخيلين أن المرأة المطلعة على ما ليس لهم به علم لن تلحق بهم.

شيء ما في نظرتها المنكسرة، ولمحة من عدمية ويأس سيطرت على محيّاها، جعلتهم يظنون أنها غير قادرة، أو بالأحرى غير راغبة في مغادرة الجبل، ومع هذا لم يندهشوا حين اكتشفوا مجيئها في إثرهم، كما لم يصدمهم انتحارها. على العكس شعروا بالراحة لأنها - في النهاية - عوقبت بشكل ما على خطيئتها.

***

أخيرًا، وعقب السير لمدة لم يستطيعوا حسابها، وجدوا أنفسهم خارج أسوار مدينة عامرة. دخلوها بتردد، وهم ينقلون أبصارهم بين مبانيها وشوارعها وأسواقها. القافلة خائرة القوى، التي فقدت كثيرًا من أفرادها، حطت رحالها في نهاية الأمر وسط بشر آخرين.

تجولوا على مهل في السوق، غير قادرين على فهم اللغة الغريبة المنطوقة من رواده وتجاره. حاولوا، عبر الإشارات، التفاهم مع البائعين لشراء ما يقتاتون عليه، فاكتشفوا أن نقودهم بلا قيمة خارج جبلهم.

طلب حكماء قاف السبعة من الباقين أن ينتظروهم في مكان حددوه

علـى أطـراف السـوق، وتوغلـوا هـم داخـل حنايـاه ودهاليـزه بحثًا عن محـال «الصاغة» وبائعي الجواهر. كالمسـرنمين خطوا فـي طرق ملتوية كابيـة كأمعـاء ضيقة بعيـدة عن مملكتهم التـي يلاعب فيها الضـوءُ الماءَ، وينغمسان معًا في رقصات دافئة تكوِّن ظلالًا منتشية بنفسها.

خرجـوا من أمعاء المدينة ليجدوا أنفسـهم في سـاحة دائرية مشمسـة تحيط بها محال الجواهرجية. شعور بالارتياح سيطر على الرجال السبعة، ما إن وصلوا إلى السـاحة. في طيات متاعهم القليل، كانوا قد دسوا، وهم يفرون من الجبل، ما اسـتطاعوا انتزاعه مـن أحجار الزمرد. يعرفون أن لا زمرد آخر يماثله في النقاء، وسـمعوا كثيرًا عن قيمته في بلاد بعيدة لطالما شكُّوا في وجودها. بالنسبة لهم كان الزمرد يؤطر العالم من حولهم، ما إن يولدوا حتى يحيط بهم من كل جانب في هيكل الجبل، وجدران القصور، وفي كل شيء آخر.

دلّهم، على ارتفـاع قيمة أحجارهم الخضراء البراقة، انبهار بلوقيا بها، وما حكاه لملكهم عن قيمتها المرتفعة. ذكر لهم مَن اخترق عزلة جبلهم، أن حجـرًا واحـدًا بهذا الصفاء النادر يسـاوي ثروة في البـلاد النائية حيث وُلِد وعاش، قبل أن يعرف بـ«قاف»، ويتملكه هاجس الوصول إليه.

اختـار كبيـر الحكماء أصغـر حجر زمـرد بحوزته، ودار بـه من صائغ لآخـر. التقط علـى الفور نظرة الانبهار في عينـي كل منهم ما إن تقع على الزمردة بالغة النقاء. بلا كلمات رفض السـعر المعروض عليه من الصائغ الأول، فالثاني، مع أنه لم يفهم ما إذا كان مناسبًا أم لا. فقط لم يُرِد أن يبدو في مظهر الغرِّ الذي يقبل بأول ثمن يُعرض عليه.

وافق على بيع جوهرته للصائغ الثالث بعد رابع سـعر قدرها به. اقترح الرجـل سـعرًا فأخذ الحكيـم الجوهرة متظاهـرًا بإعادتها إلـى مكانها في

ملابسه، فاقترح الصائغ ثمنًا جديدًا، وفي رابع مرة وافق الحكيم. قبض على أكياس العملات الذهبية الممنوحة له، ونادى على زملائه المنتظرين بالخارج. وزعوا الأكياس بينهم، ودس كل منهم ما معه في ملابسه، وضمها على جسده بقوة، وعادوا إلى أفراد جماعتهم على أطراف السوق.

اختاروا أكثر خانات المدينة أمنًا، ووزعوا أنفسهم، رجالًا ونساءً عليها، وفي نيتهم السؤال، عقب أيام من الراحة والنقاهة، عن أقرب الجبال إلى هذه المدينة العامرة. بعد نقاشات ومجادلات طويلة خلص الحكماء إلى ضرورة الانقسام إلى مجموعات عدة، كل مجموعة يقودها حكيم، وتختار جبلًا معينًا للجوء إليه والاستقرار فيه حتى يحين موعد عودتهم إلى جبلهم الأم ما إن ينتصب قائمًا من جديد.

قرروا أن يتجه كبير الحكماء ومعه جماعة من الرجال والنساء إلى الجبل الأقرب، في حين يواصل الآخرون ترحالهم، وعند الجبل التالي في طريقهم ينفصل حكيم آخر بجماعة أخرى، ويرسل للجبل الأول من يخبر اللاجئين إليه بمقر جماعته، وبالوصول إلى الجبل الثالث تلجأ إليه جماعة أخرى مع حكيمها، وترسل رسولًا يخبر المجموعتين السابقتين بمقر جماعته، وهكذا حتى استقرت المجموعات السبع في سبعة جبال.

***

الكتابة موت الكلمات!

كل كلمة نخطها مشروع قتيل ننحره، ونمثِّل بجثته قبل أن نحنطه على الورق!

في الشفاهي يعاد إحياء الكلمة، تكتنز بدلالات تضفيها عليها تعبيرات الوجه، ونبرة الصوت. هو الصوت تحديدًا ما يحيي الكلمات، ما يجعل

الكلام حضورًا والكتابة غيابًا. الكلام حيوي، مندفع، وصاخب. والكتابة محاكاة باهتة له. الكلام هو الأصل، والكتابة نسخة مزيفة.

فـي زمـان قاف الأول عاشـت حكايات أهله وأسـاطيرهم منطوقة في جنّة الشفاهي. تتراقص فرحًا، أو تشتعل غضبًا، أو تتقافز حماسًا على وقع إيقاعات الصوت وموسيقاه.

كانـت الكلمات حاضرة، حية، مُشـعة. لكنّ ثمة حـوادث مفصلية في تاريـخ الجبل أخـذت تبهت. اسـتمات حكماؤه من أجل اسـتعادتها كما كانـت عبر إعادة حكيها مرارًا، فصُدِموا باختلافات طفيفة محكومة بتنوع الحكائين. كان كل منهم يسرد نسخته موبوءة بتلاعبات ذاكرته وانتقائيتها، وملوثة بمشـاعره وانفعالاتـه وانحيازاته. خطر لهـم أن التدوين قد يكون الضمانـة الوحيدة لإعـادة إحياء من ماتـوا، ممثَلين في كلماتهـم. غير أنه إحياء مقترن بالموت، فمع كل خيانة أو تحريف لما نطقوا به كانوا يموتون مرات ومرات.

مع الوقت فطن الحكمـاء القدامى إلى أهمية الكتابة رغم كرههم لها. بدا لهم أنها السـم والترياق في آن. بعد التشـاور فيمـا بينهم، وأخذ الإذن من الملك ياقوت، قسَّـموا أنفسـهم إلى مجموعات يعكف كل منها على التدوين في حقل بعينه. جمعوا كل معارفهم وصلبوها فوق رقوق وجلود.

صمتـت الكلمات. ماتـت وحُنِّطت بيـن دفتيّ مخطوطـات محفوظة ككنوز باردة. كانت الكتابة سـمًا زعافًا على حكماء جبل الزمرد ونسّـاكه القدامى ارتشـافه حتى الثمالة. وحدها حكايات ملوكهم رفضوا تدنيسـها بالتدويـن. منعوا تسـجيل أي حرف عـن الأميرة وأبيها الملـك وآبائه من الحـكام السـابقين، أرادوا أن يظل كل مـا يخصهم حيًا فـي قلوب الرعية وعلى ألسـنتها، كما حرّموا التدوين على النسـاء، باسـتثناء زمردة. علمها

كبيـر الحكمـاء الكتابة منذ كانـت طفلة صامتة يظنها الجميـع بكماء، غير أنهـا مثل الآخرين مُنعت مـن تدوين أي حرف يخصهـا أو يتعلق بوالدها وأجدادها.

لم يعلم كبير الحكماء، أن سلفه حكيم المملكة السابق، كان قد خرق النامـوس وعلّـم ابنتـه الكتابة، وأنهـا بدورها علّمـت، قبل موتهـا، ابنتها «مروج» أن تخط الحرف وتقرأ مخطوطات جدها السرية، وتفسرها وفقًا لأهوائها، بل وتنسج على منوالها.

لو علِم بهذا مبكرًا، وأضاف إليه أن «مروج» لم تكتفِ بخرق الناموس هـي وأمهـا وجدهـا، بـل ارتكبت خطيئـة أخرى بالبـدء في تدوين سـيرة زمـردة، خالطة الحقائق بالأوهام والوقائـع بالتخيلات، لتزلزلت الأرض تحـت قدميه، وتوقـف قلبه على الفور. لكن لربمـا أيضًا كان قد نجح في وأد الخطيئة في مهدها قبل اسـتفحالها وتسببها في كل ما ترتب عليها من نتائج سوداء.

فكـر في هذا، بعـد فوات الأوان، فـي طريق النـزوح الاضطراري من قاف حين سمع صرخة مروج وعاد إلى الخلف مع رفاقه ليفاجأوا بها وقد طعنت قلبها تاركةً دماءها تصبغ الرمال.

بتفتيش ثيابها، عثر مسـاعد الحكيم على الرقوق التي دوَّنت فيها سيرة الأميـرة، مربوطة حول خصرها. أعطاهـا لمعلمه، الذي خبأها بين طيات ملابسه، وظل طوال الطريق واضعًا يده عليها، خوفًا من فقدها.

كان جد مروج قد أقدم على تعليم ابنته القراءة والكتابة، وأوصاها قبل رحيلـه بـأن تعلِّم ابنتهـا بدورها، لأنه لـم يقتنع أبداً بتحريـم التدوين على النسـاء. كان يرفع الكتابة إلى مرتبة الإلهي المقدس، فيما اعتبر الشـفاهي وليد البشريِّ الخطّاء متعدد التأويل والمختلف من موقف لآخر.

آمـن بأن النسـاء أقدر على الإلمام بالتفاصيـل، وتحليلها ووضعها في سياقها الصحيح، لو كان الأمر بيده لاختار من بينهن حكيمات وناسكات وكاهنـات. غيـر أنه خاف مـن التصريح بما يؤمن به خشـية أن تُعتبر آراؤه تجديفًا يقوده إلى الإعدام أو الحرق، ويقود عائلته من بعده للتشرد.

كان مسـاعده وخليفته فيما بعد، الحكيم الأكثـر تطرفًا في الالتزام بما رآه ناموسًـا مقدسًـا لا يجوز المسـاس به، وكان يدعمه رأي عام بين نخبة الحكمـاء والنُسَّـاك والكهنـة، والأهم قناعة راسـخة من الملـك ياقوت، بتحريـم التدوين على النسـاء والعوام، وحظر تسـجيل سـيرته هو وأفراد أسـرته. مـن هنا احتفظ جـد مروج بقناعاته لنفسـه، وعكـف على تدوين مخطوطات سرية تضيء الطريق لابنته ومن بعدها حفيدته.

مع بدء التيه التالي لاحتراق الأميرة، وتزلزل جبل الزمرد، شاع التدوين بين عـوام الجبل التائهين فـي أصقاع الأرض. رغم عزلتهم النسـبية فوق قمـم جبال بديلة اسـتوطنوها، تخصَّلوا رغمًا عنهـم ببعض خصال أهالي منافيهـم، حين كانوا ينزلون للشـراء أو البيع مع سـكان المدن المجاورة، كانوا يكتسـبون منهم بعض عاداتهم. على الأقل تلك العادات التي بدت ضرورية كي لا يشتبه فيهم أحد.

دوَّن عـدد منهـم ذكرياتهـم عن قـاف وعصرهـم الذهبي فيـه، قدموه كمـا لـو كان مكانًا أسـطوريًا وجوده غيـر مؤكد للتمويه علـى الفضوليين والمشـككين فـي آن. ومع هـذا تفادوا تسـجيل حكاية أميرتهـم الحبيبة، خافوا من تدنيسها وجلدها على صليب برديات أو جلود ورقوق، إذ كيف لهذه المواد الفانية أن تحفظ حكاية مقدسة كتلك؟

أرادوها مصانة في ذاكرتهم، حية متألقة في أصواتهم وهم يتبارون في حكيهـا بأصوات ملؤها الشـغف والتوْق والحنان. يمسـك أحدهم بخيط

الحكي من حيث انتهى رفيقه في ليالي الشتاء الباردة فوق قمم اغترابهم، أو في أمسيات الصيف العذبة بينما يتحلقون حول نار هادئة تنير لهم ليل الشتات القاسي.

من جانبه قرأ كبير الحكماء مخطوطات مروج عن سيرة زمردة، وهو يرتعش. تملكه شعور بالذنب، كأنما يرتكب إثمًا لا غفران له، ومع هذا انغمس في القراءة لآخر خلية في جسده. غلبه الفضول والنهم إلى المعرفة. خمّن أن دافعًا قاهرًا هو لا بد ما حثّ حفيدة معلمه الروحي على التورط في خطيئة بشعة كتلك، وأخبره حدسه أنه سيصادف هذا السر مطويًا بين ثنايا سطورها وكلماتها.

قرأ مذهولًا وقائع من المستحيل أن يعرفها إلاّ الأميرة ذاتها: حوارات بينها وبين بلوقيا، تفاصيل رحلتهما إلى جبل المغناطيس الذي لا يمكن لمروج أن تكون زارته بأي حال، وخواطر جالت في بال ابنة الملك ياقوت.

قال الحكيم لنفسه إما أن «مروج» تختلق جزءًا كبيرًا من المكتوب، أو أنها تمتلك بالفعل قوى خارقة تمكنها من قراءة الأفكار ومعرفة ما يدور في أماكن بعيدة. استقر رأيه على أنها ساحرة بدليل أنها بمجرد ترتيل كلمات غير مفهومة، أحرقت زمردة وزلزلت الجبل وأخفت قصر الزمرد.

واصل القراءة محاولًا إقناع نفسه بأن المرأة الغامضة، مجرد مدعية، تمتلك خيالًا جامحًا، يساعدها على التزييف والتحريف. دفعته البلبلة الناجمة عن غرابة ما يقرؤه إلى تثمين إيمانه الخاص بضرورة حرمان النساء من التدوين. قال في سره؛ لو أن معلمه امتنع عن تعليم ابنته وبالتالي حفيدته، لنجا الجبل وأميرته وسكانه. كانت مروج ستختلق ما ترغب في اختلاقه شفويًا، ولن تجرؤ على نشره بين الآخرين. كان سيُدفن معها ويزول بزوالها.

أخفى الأجزاء التي رآها تقلل من شأن زمردة أو تهز صورتها في أعين رعيتهـا، حرَّف أجزاءً أخرى لتتناسـب مع رؤيته لمـا يجب أن تكون عليه صـورة أميـرة قـاف. تجاهـل أن كل تحريف فـي الحكاية طعنـة نافذة في جسـد زمردة ونارًا إضافية تزيد من أمد احتراقها. تناسـى وصيتها الأخيرة بضرورة تدوين حكايتها بدقة إن أرادوا استعادتها.

قرأ في نهاية ما خطّته مروج ما اعتبره سر خروجها المقيت على قوانين قاف، وهو إيمانها بأن الأميرة تسـببت في لعنة للمملكة، لعنة لن تُفكَّ إلاّ بالإسـراع بالمصيـر المحتوم، أن تقوم مروج بنفسـها بحـرق الأميرة، كي تتمكـن لاحقًا، عبـر تدوين الحكاية، مـن بعثها واسـتعادة العصر الذهبي للجبل من جديد. لم يفهم كيف آمنت مروج، بأنها مَن سوف تساعد على بعث الأميرة، ومع هذا انتحرت فوق رمال صحراء التيه الملتهبة!

حـرق بعض ما رآه غير ملائـم من المخطوطات، واحتفـظ ببقيتها في مخبأ سري في الكهف الذي التجأ إليه بجبل «دماوند» مضافًا إليه ما دوَّنه هـو عـن تفاصيـل رحلة النزوح مـن قـاف. كان لا يمل من حكـي حكاية الأميرة كما تروق له بين حوارييه وأبناء مجموعته من النازحين. حفظوها عنـه وبالغـوا في ترديدها وإعادة تمثيل مشـاهد منها. بعضهـم حوَّلها إلى سيرة شعبية ينشدها الرواة والمنشدون في الحواري والأزقة خارج حدود العوالم الضيقة للمنحدرين من قاف.

لم يفطن كبير الحكماء أن مساعده غافله، واختلس بعض مخطوطات ووثائـق مـروج، ومـن بينها نبـوءات مكتوبة علـى هيئة أحجيات شـعرية سيعرف المساعد، بينما يقرأها في منفاه بجبال الـ»ديلم»، أنها تنتمي لمن تطلق عليه مروج بتوقير لقب «الطيف».

علـى عكـس معلمـه، آمـن المسـاعد الشـاب بمـا حملته مـروج من

مخطوطـات جدهـا، وما كتبتـه من شـروح وتعليقات عليهـا، كما صدَّق النبـوءات التـي دونتها نقلًا عـن «الطيف»، وعكف على حـل ألغازها في ليالي منفاه الطويلة. أورثها لأحفاده من بعده مصحوبة بشـروحه لها، وما فهمه من الأحجيات عن «كاهنة الأبيض والأسـود» التي سـتنقي الحكاية وتسد ثغراتها وتبعث الحياة في رماد زمردة بمساعدة فتاة جامحة، أنجبتها امرأة تضحك لها المرايا.

فـي الزمـن الأول للتيه، لم يحتج عـوام النازحين من قـاف إلى رقوق أو مخطوطـات عن حكاية أميرتهم. كان ما عايشـوه من تفاصيلها حيًا في أذهانهم، أضافوا إليه ما أفشـته مروج خلال محاكمتها بجرم التدوين قبل أن تحرق زمردة مباشرةً، ورددوه بلا ملل كأنه حكاية شخصية لكل منهم.

عقب تلاشـي قصر الزمرد، وفرار العنقـاء إثر هذا، بقيَ الجبل يرتعش بعـد أن توقف عن الزلزلـة. غمرتهم ارتدادات قاف، ونقلـت إليهم دوارًا أسلمهم إلى حالة من الغثيان وعدم الاتزان.

لـم ينتبهوا إلى أي شـيء في هذه الأثناء. كافحـوا لمجرد البقاء أحياء. البيـوت القديمة تهاوى الكثير منها، وصدوع الجبل تصدعت أكثر وباتت خطـرًا محدقًا كفوهة فاغـرة لابتلاع من يقترب منهـا. ترحموا على ملكة الحيَّـات؛ حاميـة قاف وحارسـته. «لو ظلـت حيّة لما حـدث أي من هذه الكوارث»، قالوا بإيمان راسخ.

بعـد أن اسـتقر الجبل نسـبيًا، وهجر ارتجافـه الدائم، تتابعت سلسـلة حرائـق لا يعرفون لها سـببًا. اشـتعلت الغابـات والأحراش علـى أطرافه القصيـة، وصـار الدخـان أشـبه بضباب أسـود يغطـي الفضـاء ويحجب السماء. من الشوارع المضببة بالدخان خرجت لهم مروج بردائها الأسود الفضفاض، وقد تمزق في أكثر من موضع، وشـعرها وقد أصبح أشـعث، ونظرة زائغة جعلتهم يظنون أنها فقدت عقلها.

أرادوا تمزيقها انتقامًا لما فعلته بأميرتهم وجبلهم، غير أن كبير الحكماء أنقذها منهم. كانت حزينة كما لم يسبق لهم أن رأوا الحزن، عيناها مغرورقتان تغزوهما شرايين حمراء تكاد تغطي على بياضهما. تساءلوا إذا كانت مغمومة هكذا على زمردة، فلماذا فعلت بها هذا؟ لم ينتبهوا إلى أن ملامحها لم تحمل أي لمحة ندم. فقط حزن رواقي مستسلم لما تؤمن بأنه مصير محتوم.

مطر من زمرد

الكتابة انغلاق الدائرة، خيانة المعنى لذاته!

لستُ لي! لطالما تيقنتُ من هذا. منذ وعيت ترافقني سيرة زمردة، أتنفسها وأحياها كأنني أمام واقع معاش وامرأة من لحم ودم تشاركني أنفاسي.

روحي موشومة بماضي أسلافي وأخطائهم ومعارفهم. في أحلامي أجد نفسي في أماكن لم تسبق لي رؤيتها، وأزمنة لم أعش فيها قط.

حتى الأفق الداكن، الذي يتراءى لي من وقت لآخر، وأشعر أحيانًا أنه على وشك ابتلاعي بداخله، هذا الأفق يذكرني بما سمعته عن فضاء قاف في الأيام التالية لاحتراق زمردة، وما أعقبه من حرائق، في الغابات والأحراش، أحالت الكون كله إلى دخان أسود وانتهت باختفاء الجبل.

لستُ لي! أقول لنفسي. ثمة من يعبث بمزاجي ويتركني مفعمة بالالتباس مسرِّبًا لي شعورًا مقلقًا بأن الروح التي تحتل جسدي مطبوعة ببصمات غريب، ومُخلِّفًا لي في الوقت نفسه ما يميزني عن الآخرين.

حلمتُ قبل يومين بأني في مكان موحش، وسط صحراء قاحلة، خلفي صفوف متوازية من أشجار مانجو عملاقة على أغصانها مشنوقين لا أعرفهم. كالناجية الوحيدة من مذبحة مروعة، جلست أنتحب محملة

بـكل ألم الآخريـن ورعبهم. بعدهـا بلحظات رأيت نفسـي أجر خطوتي مقتفية أثر جموع منهكة. كانوا يسـبقونني بمسافة كبيرة، ظهورهم منحنية وأجسـادهم تحمل رؤوسـهم بالكاد. لم يشـغلني اللحاق بهـم. ارتميت علـى الرمـال السـاخنة وطعنـت قلبـي بخنجر مسـموم. حين اسـتيقظت ضايقني شعور مخاتل بأنني، لا شخص آخر، لي يد فيما أصاب المعلَّقين على أشجار المانجو.

لاحقنـي الضباب الأسـود بضراوة، خُيِّـل إليّ أنه ينبعـث من داخلي، يتكثـف ويتعتـق فـي خلايا جسـدي، قبـل أن يتسـرب ليسـتحوذ على ما حولي، ومع هذا لم يمرر لي أي إحسـاس بأنني على وشـك بلوغ غايتي. وقعت فريسة ليأس شامل ظننت معه أن لا أمل يرجى مما أقوم به، وأني – كآلاف سـبقوني من الجبليين – لن أنجح في استعادة الأميرة الغائبة، ولن أشهد هطول المطر الزمردي الذي أفنى أسلافي أعمارهم في انتظاره.

في شـرفتي، وبملابسـي السـوداء، جلسـتُ شـاردة، تأملتُ الطرقات ذات الأشـكال الهندسـية بين نباتات المشتل، وتهت في متاهتها. لم أفهم كيف لم يطلعني كريم خان حتى الآن على نتائج حديثه مع هدير، جاء من «فيينا» على وجه السـرعة بناءً على طلبي كي يقنعها بالعودة لمسـاعدتي، وهـا هو يختفي، تاركًا إياي في شِـباك هواجس تلقي بـي في لجة الجنون واليأس.

كأنمـا اسـتدعيته بمجرد التفكيـر به، إذ هاتفني بعد دقائـق قائلًا إنه في الطريق إلى شـقتي بصحبتها. انتزعني صوته مـن هاوية كنت أتردَّى فيها. غادرتنـي أطيـاف الكآبـة والـلا جـدوى، اتجهت صـوب غرفـة مكتبي، أخرجـت مخطـوط «الفتـاة التـي أضاعـت خاتـم الزمـرد» وتركتـه فوق المكتب، فتشـت أرفف مكتبتي بحثًـا عن الكتب والمخطوطات الأخرى

التـي قـد أحتاج إليها لإقناعها بخوض الشـوط لآخـره. رصصتها أمامي، وجلست أنتظر بلهفة.

حين وصلا، قدتهما إلى حجرة المكتب. تخليت لهدير عن الكرسـي الخـاص بي، وجلسـت أنا وكريم إلى كرسـيين متقابليـن أمامها. أعطيتها «الفتـاة التـي أضاعت خاتم الزمرد»، فبدأت فـي القراءة من حيث توقفت آخر مرة. لهثتْ وهي تلتهم ما كتبتُه عن مستقبلها.

تابعـتْ أمهـا وحيـدة يفترسـها البرد القـارس في كنـدا، امـرأة تغالب الحنين بالغرق في أعمال روتينية لا تنتهي، تتأمل سمك الزينة في حوضه الضخـم، وتبتسـم كعادتهـا للمرايـا وهي تجـرِّب ملامحهـا الجميلة في تعبيرات متنوعة. شـاهدتْ هدير نفسها بجوار أمها هناك، امرأتان تسيران معًـا كصديقتين قديمتين على حافة بحيرة شـبه متجمـدة. أو تتوغلان في غابة وهما تثرثران في مواضيع شـتى مسـتمتعتين برائحة المطر الممتزجة بعبير الزهور ورائحة العشب.

تغافلـتْ عـن وجـودي أنـا وكريـم، وضاعت بيـن السـطور. بدوري فتحـت كتابًا آخر بعد تيقنـي من أن الفرصة مواتيـة تمامًا مع غوص هدير فـي القراءة، بصوت خافت بدأتُ في ترتيل تعاويذي وعيناي مثبتتان على الشابة الجالسة أمامي، ابتهلتُ بأقصى ما أملك من إيمان.

مـع آخر جملـة قرأتها هدير، شـعرتْ بأنهـا تطير. تطفو فـوق العالم، بتفاصيله التافهة، بمشـكلاته الجادة، بأسـئلته غير القابلـة للإجابة. كانت خفيفة، منسـجمة مع نفسـها ومع الكون من حولها. شـعور رائع بالصفاء والتناغم مع الذات هيمن عليها.

أحسـت بأنهـا غير مرئية من الآخريـن، تعلو رويـدًا، وكلما علت أكثر تخففت مـن أعبائها. غاب جزء من ذاكرتها، واسـتعارت في مقابله جزءًا بديلًا من ذاكرة الجبل وأميرته.

نظرتْ للأسفل فأبصرتْ البنايات والأشجار والمرتفعات وقد صارت أصغر، والبشـر وقد تحولوا إلى ما يشـبه النمل. كانت القاهرة بضجيجها وتعبهـا تتقـزَّم وتتباعد عنها. لـم تكن ثمة عنقاء أو طائـر رخ ليحملها إلى حيث قاف، هي نفسها تحولت إلى طائر قادر على اجتراح المستحيل.

أطبقـت جفنيهـا، ومع هـذا ظلت قـادرة علـى الرؤية. أبصـرت تلالًا مـن الزمرد تسـابق الغيم، وحدائق من فضة وذهـب، وجداول وينابيع من اللُجيـن، ومرايـا ممتـدة تعكس حيوات ثريـة، أبصرت فـي المرايا: أميرة فاتنـة تعرفت فيها إلى زمردة كما تخيلتها، وشـخصًا معلقًا في سـاق طائر رخ ضخم يحلِّق به في الأعالي، وضريرًا يتكئ على عكاز مواصلًا السـير بلا انقطاع، وحشودًا منهكة هائمة في مفازة قاحلة يتساقط أفراد منها جثثًا هامدة بين وقت وآخر.

فـي مـرآة جانبية كانـت ثمة غابـة مانجو معمـرة ثمارها بشـر فارقتهم الحياة، تحت الأشجار وقفت امرأة تعرفت فيها هدير إلى أمها نادية، وقد أعطـت ظهرها للمعلقين فوق الأغصان، وراحت تراقب بشـغف سـرب طيور ملونة يحلق أمامها، كأنما تتعامى عن رؤية فظائع العالم وحقائقه.

واصلـت هدير الصعـود، فألفت نفسـها في غمامة بيضاء تسـبح فوق الغيم، وقد بدت هي نفسـها كقطعة منه. صارت خفيفة وهشـة مثله؛ على حافـة التحول إلى قطـرات مطر إذا صادفتها لفحة هـواء بارد. نظرت إلى جسـدها فأبصرته يشف رويدًا، فكرت في أنها تخلصت من عبء الجسد وباتت روحًا خالصة، غمرتها روائح تلخص معنى العطر وفكرته.

اسـتعادت كل مـا رأتـه بصحبـة كريـم فـوق «سـيرو دي لا بوفـا» في المكسـيك: تلال الزمرد السـابحة في الفضاء، البشـر المتحركين بحبور، قصر الزمرد المزين بالماس والياقوت وقاعات الذهب والفضة.

لم تصدق سـرعتها الفائقة، وتسـاءلت: هل أراها أنـا وكريم في رحلة صعودهـا أم لا؟ ثـم لم يعد هـذا يهمها في شـيء، رأت طفلة تفتش كومة قـش بحثًـا عـن خاتم من الزمرد، وشـابة تسـير فـوق رصيف متكسـر في شـارع صاخب وهي تجر حقيبة ملابسـها خلفها، ثم الشـابة نفسـها وهي تقـرأ مخطوطًا غامضًا عن فتاة أضاعت خاتـم أمها. مرّت حوادث حياتها ببالهـا، وكل حادث يخطر لها ينمحي في الحال مـن ذاكرتها ليحل محله حادث آخر ينتمي لحياة أميرة قاف.

لا تعـرف الكثيـر عن سـرعة الضوء، ومع هـذا كانت متأكـدة من أنها السـرعة التـي تطيـر بها. حـدس عابر أسـرّ لهـا بأنها، فـي هـذه اللحظة، اسـتحالت كائنًا من ضـوء، وكما صعدت فجأة، وجدت نفسـها تنخفض جزئيًا بلا مقدمات، كأن ثمة قوى ناعمة تجذبها نحو الأسفل بينما تحافظ علـى سـرعة طيرانها. بدأت تـرى العالـم الجديد الذي تحلـق فوقه، تقع عيناهـا على أشـياء لم تعرفها قبلًا، فينبثق اسـمها وتعريفهـا في ذهنها في الحال.

طافت فوق جبلي الماس والسـحاب، وكادت تختفي أعلى قمة جبل الدخان، عبرت جزر الواق واق سريعًا، وفقدت ذاكرتها بالكامل في سماء أرض النسـيان قبل أن تسـتعيدها مجـددًا بمجرد أن عبرتها. أوشـكت أن تصيـر جثة محنطة بينما تراقب مدينة النحـاس من علٍ، وأن تصبح حجرًا في سـماء مدينة الأحجار، لكنّ قوة سحرية كانت تحفظها، وتجذبها نحو السلامة.

أبطـأت حركتهـا فوق قمة قاف، لم تسـتطع سـحب نظرتهـا بعيدًا عن زمـرده البرّاق، ومحـوره الياقوتـي، وحدائقه الغنّاء، طـارت مبتعدة وهي تنغمـس أكثـر فـي أعمـاق ذاتها، بعـده مـرت بسـبعين أرضًا مـن ذهب،

وسبعين أرضًا من فضة، وسبعين أرضًا من مسك. حلّقت فوق سبعين أرضًا تسكنها الملائكة حيث لا حر ولا برد إنما اعتدال دائم.

التقت عفاريت تسبح في سماوات المدن، وجنًا يقابلونها بمرح لاهٍ أو تجهم أو ذهول قبل أن تعود أدراجها نحو قاف؛ مقصدها ومبتغاها.

هبطت في بستان حافل بروائح زهور نادرة وتغريد متواصل لطيور تجهل أسماءها، ريشها بألوان قوس قزح. خطت فوق أرض صخورها من زمرد وماس، وترابها من حناء وزعفران ومسك تنمو فيه نباتات وأشجار غريبة، بثمار متنوعة الأشكال والألوان. يمتزج تغريد الطيور بخرير ماء. واصلت سيرها في ممرات الحديقة وهي تتنسم أريج ورودها، حتى وصلت إلى مصدر الخرير: بحيرة يترقرق ماؤها بلمعة لم تعهدها هدير في الماء، ويتوزع على جداول عدة تخترق أرجاء الحديقة صعودًا وهبوطًا. جلست على حافة البحيرة وانحنت لتتأمل ماءها بالغ النقاء والبريق، فواجهها انعكاس وجه ليس وجهها.

حدقت في الماء مطولًا تتأمل عينين واسعتين، وأنفًا دقيقًا، وشعرًا طويلًا يمنحها فتنة مضاعفة. كانت تحمل وجه زمردة كما رأتها في رحلة صعودها. انتبهت إلى أن أميرة قاف تشبه أمها نادية كثيرًا. لو غيّرنا لون العينين إلى العسلي بدلًا من الأخضر، والشعر إلى البني الضارب للشقرة وقصصناه حتى الكتفين، وتقدمنا بها في العمر قرابة عقدين ونصف العقد لأصبحت نسخة من نادية.

لم تندهش هدير لامتلاكها المفاجئ لوجه الأميرة الغائبة، لأنها منذ رحلة صعودها بدأت تحمل الكثير من ذكريات الأخيرة، لدرجة شعرت معها أنها هي، وإن لم تفهم سر التطابق الغريب بين زمردة وأمها. نهضت من جلستها لتكتشف أن جسمها صار أكثر انسيابية وأنوثة. خطت برقي

بعيد عن خطوتها الراقصة القديمة فبدت كأميرة حقيقية. انتهت إلى شرفة جدرانهـا من رخام وردي، وأرائكهـا وطاولاتها مُطعَّمة باللؤلؤ والماس، عبرتها إلى قاعة من زبرجد وعقيق تعلوها قبة فيروزية بتعريقات أرجوانية فريدة.

انتقلت من صالة إلى أخرى ومن دهليز إلى آخر حتى وصلت إلى قاعة العرش. في الوسـط جلس الملك ياقوت متربعًـا وإلى جواره ابنته زمردة في ثوب أزرق تتخلله نقوش فضية، كان الثوب يتطابق مع ما ترتديه هدير منذ هبطـت فوق قاف. تحلَّق الوزراء والأمـراء وكبار المملكة في نصف دائرة تواجه العرش وعلى وجوههم ترقب مضنٍ.

لم ينتبه أحد إلى دخول هدير، وقفت، كأنها جزء من الجدار الزمردي، تحـاول فهم ما يحدث. أدركت بعد برهة أن ثمـة محاكمة منعقدة. مكبلة في أصفادها، كانت تقف في ركن منزوٍ، امرأة برداء أسـود، شـعرها فاحم وعيناها واسعتان. حافظت المرأة على رأسها منحنيًا لأسفل. بدت لهدير كأنمـا تتلـو في سـرها تمائـم وتعاويذ مـا، فيمـا يتهمها القاضـي الواقف فـي الجهة الأخرى بممارسـة السـحر الأسـود، والاجتراء علـى القوانين المقدسة لـ «قاف»، ليس فقط بارتكابها، وهي المرأة، خطيئة التدوين، بل أيضًا بتدوين سيرة أميرة الجبل.

رفعت المرأة رأسـها بكبريـاء. كانت ثمة كدمات علـى وجهها وتورُّم فـي عينها اليمنـى وآثار تعذيـب على معصميهـا وعنقها، ومـع هذا بانت نظرتهـا حازمـة. دافعت عن نفسـها بأن حياة الأميرة يجـب أن تُدوَّن اتقاءً للعنة لا بد قادمة لو لم يحدث هذا. أردفت أنها وهبت حياتها لإنجاز هذه المهمـة. تبعت الأميـرة خطوة بخطوة ما إن كانت تغـادر القصر. جمعت كل مـا تعرفه، وما اسـتطاعت الوصـول إليه عنها. سـهرت لياليَ بلا نهاية

تنسج خيوط الحكاية، لكن نسجها تعقد بظهور بلوقيا الذي قلب حياة أميرتها ونقض نسجها هي، لحظتها أيقنت أن اللعنة آتية، وعليها أن تسرع من مجيئها وتهيئ لها الظروف تمهيدًا للعمل على إبطال مفعولها لاحقًا.

-ماذا تقصدين؟ سألها القاضي، وسط حنق الملك وذهول الحضور، فأجابت:

-من يحرق الأميرة يتمكن وحده من استعادتها، من يزلزل الجبل يقدر دون غيره على بعث أميرته مرة أخرى!

حثها الرجل على شرح كلامها الملغز، غير أنها بدأت هذيانًا ضاعف غموضها، صرخ الملك فيها فلم يبد عليها أنها سمعته. مغمضة عينيها، ورافعة يديها المكبَّلتين أمامها، واصلت هذيانها الذي استحال تدريجًا إلى كلمات مفهومة تحكي فيها عن علاقة الأميرة ببلوقيا، وعن وقائع غرام جرت في مغارة بأرض الجنيات.

حين أخذت المرأة تسرد تفاصيل دقيقة، اندفعت زمردة نحوها لمنعها من فضح المزيد من أسرارها. ما إن اقتربت منها، حتى راحت مروج تلقي تعاويذ بلغة غريبة وبصوت مرتفع كأنه صراخ، وهي تشير بسبابتها اليمنى صوب ابنة ياقوت التي تجمدت للحظات في مكانها قبل أن يتحول جسدها إلى كتلة مشتعلة.

كالطلقة ركضت كتلة النار بين جنبات القصر، كأن الركض وحده سيطفئها، ثم عادت للقاعة نفسها متبوعة بعويل أب يائس يجاهد لإنقاذها، وبنحيب حاشية مذعورة. استقرت في المنتصف تمامًا أسفل قبة الفيروز، صاحت بينما تحترق: «التذكر هو الطريق الوحيد لانبعاثي من رمادي. عليكم تدوين حكايتي وترديدها بلا كلل».

ثم أضافت بصوت ملتاع:

«الحكاية ستعيدني. وكاهنة الأبيض والأسود ستجمع شظاياي»!

تآكل جسـدها وتَفَحَّم سـريعًا على مـرأى من الجميع، ثـم تحوَّل إلى حفنة رماد على أرضية من الرخام الوردي.

مـا إن احترقـت بالكامـل، حتى انهار الملـك ياقوت وتزلـزل الجبل، كأنه سـيتهاوى. هرب الجميع هلعين، باسـتثناء هدير غير المرئية ومروج المكبلـة في أصفادها. بعد أن تأكدت من خلو القاعة، وبدون أدنى خوف مـن تأرجـح الجبل واهتـزازه، عادت مـروج لترديـد تعاويذهـا المبهمة، فانكسـرت قيودها. جمعت رماد الأميرة بيديهـا، والتقطت قارورة بلورية مـن فوق طاولة، ووضعـت فيها حفنة التـراب، ثم أغلقتهـا وخرجت بها بخطوة عرجاء من أثر التعذيب.

طمأنينتهـا انتقلت بالعدوى إلى هدير، فتبعتهـا غير عابئة هي الأخرى بالزلزلـة ولا بالعويـل الآتـي مـن كل مـكان. اختفـت المرأة بين أشـجار الحديقـة، وغابـت. مـادت الأرض بهدير حين تصاعد الصـراخ، وبدأت جـدران القصـر في التصدع من خلفها. لم تسـتطع السـيطرة على نفسـها فسـقطت على الممشـى الجرانيتي في الحديقة وغابـت عن الوعي، بينما تتردد في أذنها ضجة كأنما صادرة عن تحطم الكون بأسره.

***

كنـت لا أزال جالسـة إلـى مكتبي في مواجهـة أوراق بيضـاء، ولا أثر لكريـم أو هديـر. فـي رأسـي تركض مشـاهد وأفـكار متلاحقـة. المدينة بالخارج تشـحب وتخفُت في مخيلتي، أنفصل عنها وعن كل ما تستدعيه فـي نفسـي. روائـح وأجـواء «ألَمـوت» تبخرت أيضًـا ومعها أبـي، غاب عنـي صوتـه وبهتت ملامحه في ذاكرتي. لم يبق منـه إلاّ بعض الحكايات والكلمات.

لوهلـة لـم أعرف من أنـا! ولا ما يجـدر بي فعله! سـاورتني لمحة من خوف بينما أسـتعيد ملامح امرأة قوية تشـبهني، وهي تتلو تعاويذ محرِقة، ولا ترتجف في أشد اللحظات رعبًا.

«من يحرق الأميرة يتمكن وحده من استعادتها، من يزلزل الجبل يقدر دون غيـره على بعـث أميرته مرة أخـرى»! تكررت الجملـة في ذهني بلا نهاية، أتفكَّر فيها فتغيم نظرتي، وأطرق وقد امتقع لوني.

تابعـتُ مع هديـر كل ما قابلها في رحلة تجلِّيها، وكل ذكرى اكتسـبتها ذاكرتهـا دون أن تعايشـها: تفاصيـل الصعـود، الراعـي الوحيـد في كوخ متقشـف على حافة المملكـة، بلوقيا إذ وطأ القاف، إيليـا في عتمة عماه، مغناطيـس الأجسـاد، الأميـرة والمخفـي في سـيرتها، رحلة النـزوح إلى العالم، وزلزلة الجبل ثم تلاشيه.

فـي خيالـي كان ثمة مطـر من زمرد يهمـي بغزارة. حبّـات زمرد براقة لم أشـاهد ما يشـبهها غمرت الأفـق وتراصت علـى الأرض. اقتربتُ من مكتبتـي، أخرجـت الطبعـات المختلفـة مـن «ألف ليلـة»، وفتشـت فيها الواحدة تلو الأخرى، كانت حكاية «جبل الزمرد» تتوسـطها جميعًا كأنها لم تغادرها قط.

اعترتني رعشـة خفيفة، بينمـا تحلّق ذاكرتي في فضـاءات زمن موغل في القدم، غارق في ضباب النسـيان، كالمنومَّة، بدأت أكتب، وأنا أغالب انفعالي:

« أضاعـت هدير زمردة فـي طفولتها، وقدرها أن تضيـع طوال حياتها بحثًا عنها!

مَـن كان ليخبر الطفلة ذات السـنوات السـت أن خطأً بسـيطًا، أو فعلًا منسـيًا نقوم به دونما قصد قد يرسم مصيرنا. لو لم يخلب الفص الأخضر

البـرّاق لُبّهـا. لو لـم تشـتهيه وهو يتوِّج بنصر أمها. لو لم تلتقطه خلسـة من دُرج التسـريحة، وتخرج به إلى حديقة بيت جدها، ويسقط منها في كومة القـش، لو لم يحدث كل هذا، لربما عاشـت هدير حيـاةً أخرى.. لربما ما كان لحكايتنـا أن تكون. لكن، من يمكنه إقناع الشـابة الجامحة بمثل هذا بعد أن فات الأوان؟».

القاهرة

9 نوفمبر 2012

شكرًا للصديقين: ياسر عبد الحافظ ومحمد الشحات على ملاحظاتهما القيِّمة على مخطوط الرواية، وللصديق إليوت كولا على النقاشات المطولة – خلال زياراته للقاهرة في 2011، 2012 – حول عوالم الرواية و«ألف ليلة وليلة». وشكر أخير للصندوق العربي للثقافة والفنون – آفاق.

قرأت المؤلفة أثناء كتابة العمل عددًا من المؤلفات أهمها: «ألف ليلة وليلة».. طبعة بولاق، «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري، «محاورة فايدروس» لأفلاطون، ترجمة أميرة حلمي مطر، «صيدلية أفلاطون» جاك دريدا، ترجمة كاظم جهاد، «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» لابن الوردي، «عجائب الهند» لبرزك بن شهريار، وطبعًا «منطق الطير» لفريد الدين العطار.

المحتويات